سلسلة
الخير التربوية
قسم الأخلاق

الأخلاق الإسلامية

للناشئة

بقلم المربي
الدكتور محمد خير فاطمة

دار الخير

الأخلاق الإسلامية

للناشئة

الطَبْعَةُ الأُولىٰ
١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م
حقوق الطبع محفوظة لدار الخير

دمشق - حلبوني - جادة الشيخ تاج
هاتف: مكتب /2245822/ - مكتبة /2228074/ - فاكس /2222694/ ص.ب /13492/

بيروت - فردان - جنوب سيار الدرك - بناء الشامي
هاتف: مكتب/865697//810571/خلوي/03/610827 ص.ب/113/5630/
الرمز البريدي/2060-1103-1101-/

دار الخير
دمشق - بيروت

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهـــــداء

إلى كل أب وكل أم . . في عنق كل منهما أمانة تربية الأبناء . .

وإنها لأمانة . . وأية أمانة . .

فإن أُدِّيت كانت خيراً وبركة وسلامة . .

وبها تمام السعادة . . والكرامة . .

وإن ضُيِّعت عادت خزياً وحسرةً وندامة . .

في هذه الدنيا ، ويوم القيامة . .

* * *

وإلى كل مربٍّ ومعلم ومؤدبٍ . .

يقوم على تربية القلوب على التقى والهدى والإيمان . .

ويعمل على تغذية العقول بالعلم والعرفان . .

ويشرف على سقاية النفوس الظمأى للآداب ومكارم الأخلاق . .

قدوته في ذلك . . مهمة النبي ﷺ القائل :

«إنما بعثت معلماً ، إنما بعثت لأتمّم مكارمَ الأخلاق . . »

* * *

وإلى كل قائم على الدعوة إلى الله على بصيرة من ربه . .

دائب في تحصيل مواد هذا البناء مادة مادة . .

ليجعلها أركاناً في شخصية المسلم لبنة لبنة . .

يبني الرجالَ وغيره يبني القرى   شتان بين قرىً وبين رجال

هذه مادةٌ هامة في بناء الشخصية التي تسعى لاستكمال فضائلها . . مستمدّة ، من المثل الأعلى في كل فضيلة وكمال . . النبيّ الأمي الذي قال :

«أدّبني ربي فأحسن تأديبي . . » .

* * *

إلى كل هؤلاء نهدي هذا الكتاب . . . ليقوموا بدورهم بتقديمه إلى من يعولون ويرعَون ويربون . . وليقوموا بأنفسهم بتدريسه درساً درساً . . وليلمسوا بأيديهم ثمراته عطاءً بعد عطاء . .

ولا يعين على ذلك إلا القدوة الحسنة ، والواقع المشاهد الملموس ، من قبل كل مشرف على تدريسه . .

* * *

هؤلاء الأبناء صفحات بيضاء . . نسجّل فيها ما نشاء . . وما نسجّله فيها نسجّله في صفحات أعمالنا ذكراً خالداً ، وعملاً لا ينقطع . .

هؤلاء الأبناء ترْبة خيّرة معطاء . . نزرع فيها ما نشاء . . وحصادها امتداد لنا في الأرض . . وذخر لنا في السماء . . وباستخراج هذه الطّاقات . . وقطاف هذه الثمرات . . يكون الأبناء فلذات الأكباد . . وقرة العيون . . وأمل الأمة في الحاضر والمستقبل . .

* * *

المقدمة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين.

والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد:

إن العقيدة أي عقيدة، لا تظهر قوتها الحقيقية ولا يظهر أثر نجاحها وتأثيرها، إلا من خلال سلوك أصحابها ومعاملاتهم مع غيرهم، فسلوكهم يدل على قوة عقيدتهم وتأثيرها في النفوس، وإلا لما كان لهذه العقيدة، أدنى قيمة أو تأثير، فالإسلام دين عقيدة وعمل لا يتخلى أحدهما عن الآخر.

فقد قال رسول الله ﷺ:

«ليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي، ولكن هو ما وقر في القلب وصدّقه العمل». [رواه ابن النجار عن أنس رضي الله عنه]

وقال ﷺ:

إن الله لا ينظرإلى أجسامكم ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم».

[رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه]

فالإيمان وحده لا يكفي لأنه يحتاج إلى برهان، ألا وهو العمل، والعمل هو التطبيق لما في الإسلام من أخلاق ومبادىء سامية، رفعت بالإنسان إلى درجة محبة الآخرين ومساعدتهم. لذلك نرى أن الله عز وجل بيّن لنا ذلك من

خلال آياته في القرآن ، فهو في أكثر الآيات التي يذكر بها المؤمنين يذكر مع الإيمان العمل الصالح :

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ . [البقرة: ٢٥]

وحريٌّ بمن لا يعرف الإسلام بحقيقته ومضمونه ، أن يتعرّف عليه من خلال أخلاق أصحابه ، لأنه لا يوجد ملحد بل جاهل ، ومن تعرف على الإسلام حقيقة ، لا يسعه إلا أن يرضخ له ويؤمن به ويخضع لأخلاقه المجيدة .

فلقد شهد للنبي ﷺ أعداؤه وأحباؤه بالصدق :

حين سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان قبل أن يسلم: هل كنتم تتهمون محمداً بالكذب قبل أن يقول ما قال؟

قال: لا ، ما جربنا عليه كذباً قط .

فقال هرقل: ما كان ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله .

ولقي رجل أبا جهل ألد أعداء الرسول ﷺ فسأله قائلاً :

يا أبا الحكم ليس هنا غيري وغيرك يسمع كلامنا ، فخبرني عن محمد صادق أم كاذب؟ فقال أبو جهل: والله إن محمداً لصادق ، ما كذب محمد قط .

وحين سأل النجاشي ملك الحبشة الوفد الإسلامي المهاجر إلى بلاده فراراً بدينهم حدثوني ما يدعوكم نبيكم.

فقال سيدنا جعفر بن أبي طالب الذي كان المتكلم باسمهم :

(كنا قوماً أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتي الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسيء للجوار ، ويأكل القوي منا الضعيف ، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً فينا ، نعرفه بنسبه وصدقه ، وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ، وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنات) .

فما إن سمع النجاشي هذه الأخلاق الفاضلة التي أتى بها رسول رب العالمين يدعو بها إلى تزكية النفس حتى أعطاهم الأمان.

أليست هذه ثمرة الأخلاق العملية؟

وما خطبة النبي ﷺ في حجة الوداع ، إلا برهان كامل لعظمة الإسلام وتعاليمه وأخلاقه التي دعا إليها الناس ليكونوا في سلام دائم ، حتى قال عليه السلام:

«أيها الناس ، إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا. . . . وكل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع ، إن كل مسلم أخ للمسلم ، وإنّ المسلمين إخوة».

إنه لم يلقها لمن كان حاضراً من صحابته ، إنما كانت هذه المعاني الجليلة والأخلاق السامية منهاجاً وشريعة يسير عليها الناس والأجيال المقبلة إلى الإسلام ، الذي سيملأ شرق الأرض وغربها.

وعندما بدأت الفتوحات الإسلامية كان أعداء الإسلام يدخلون في الاسلام من وراء أخلاق وسلوك المسلمين الفاتحين ، إذ كانوا يتخذون من وصايا خلفائهم وقوادهم شعارات يفتحون فيها البلاد ، ولكن ما أكملها من شعارات ، وما أجملها من مبادىء سامية ، فما أعظم وصية سيدنا أبي بكر رضي الله عنه المشهورة التي وجهها للجيوش أثناء الفتوحات ، وكانت بمثابة قانون وشرائع يسير عليها الفاتحون ، وكانت عبارة عن جملة الأخلاق الفاضلة التي يجب أن يتحلى بها كل مسلم ليفلح ، وكل جيش لينتصر ، حيث خاطبهم بقوله رضي الله عنه:

(أوصيكم بتقوى الله فلا تخونوا ولا تغلوا ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا طفلاً صغيراً، ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة، ولا تغدروا ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لمأكلة ، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له).

وهل من مثل أروع يدل على أخلاق الإسلام العملية لا القولية فقط من موقف المسلمين في سمرقند عندما فتحها قتيبة في عهد الوليد ، ولما استلم الخلافة عمر بن عبد العزيز وعلم أهل المدينة بعدله وتطبيقه لأخلاق الإسلام اشتكى أهلها إليه ، ورفعوا القضية إلى قاضيهم ، فعندما تحرى القاضي عن حقيقة الأمر وأن قتيبة لم يفتحها بحق ، أمر هذا القاضي المسلم بما تخلق به من أخلاق الإسلام بالتراجع عن أراضيهم ، وأراد المسلمون بالفعل أن يتراجعوا عن هذه المدينة ، فلما رأى أهلها هذه الأخلاق الرفيعة ، لم يسعهم إلا أن طلبوا من الجيش المسلم الفاتح البقاء ، وأسلم الكثير من أهل المدينة من جراء أخلاق المسلمين.

وبعد أن توقفت الجيوش الإسلامية عن الجهاد والفتح بسبب تراجع المسلمين عن الإسلام الحقيقي ، كانت جيوش المغول والتتار قد اجتاحت بلاد المسلمين ، فلم يوقف هذا الزحف الصليبي جيوش الدعوة والدعاة المخلصين الذين تخلقوا بأخلاق الإسلام ، وعلى رأسهم الشيخ جمال الدين وابنه رشيد الدين ، عندما تمثلت أخلاقهم في تجارتهم التي كانت ستاراً أو سبباً لنشر الإسلام الحقيقي ، وحوّل التتار من حاقدين على الإسلام إلى مؤمنين به ، وفي مدة وجيزة ، دخل الإسلامَ بفضل الله وعونه أكثر من مئة وخمسين ألفاً من التتار ، وأولهم قادتهم ، وكانت دعوته قائمة على الحكمة والموعظة الحسنة والأخلاق والمعاملة الفاضلة.

عقيدةٌ هؤلاءِ أصحابُها ، وهذه مبادئها وأخلاقها ، لا يسع من يتعرف عليها إلا أن يؤمن بها وبمبادئها.

فالعلم الحقيقي هو الذي يولد العمل الذي ينقلك إلى الفضائل وتزكية النفس ، تطبيقاً لقوله تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ﴾.

[البقرة: ٢٨٢]

ومن يحمل لواء الإسلام بجوهره وحقيقته ، سيحقق السلام العالمي الذي ينشده العالم لأن تعاليم الإسلام هي التي تحقق ذلك.

من أجل هذا الأمر رغبت بالكتابة للناشئة في موضوع الأخلاق الإسلامية الفاضلة التي يجب أن يربي الآباء والمربون والدعاة أبناءهم عليها ، مع التركيز على ضرورة العلم ثم الحفظ ثم التطبيق العملي ثم الدعوة لهذه الأخلاق مندفعين وراء هدف سام وهو :

(إلهي أنت مقصودي ورضاك مطلوبي) .

الذي يتجلى في محبة الله وطاعته والرغبة في إرضائه وتطبيق شرعه المسعد في الدنيا والآخرة وعلى المستويين الفردي والجماعي .

فالله أسأله التوفيق والقبول وتحقيق الهدف والغاية والفائدة من ذلك .

والحمد لله رب العالمين .

* * *

تمهيد

قبل الشروع بالحديث عن الأخلاق الإسلامية ، وما يتعلق بها ، لا بد أن نبين أنّ الأخلاق فطرية ومكتسبة .

فالأخلاق الفطرية ، تظهر في المرء منذ أول حياته ، ومنذ بداية نشأته بالفطرة التي فطره الله عليها .

والأخلاق المكتسبة ، يكتسبها المرء من أسرته وأصدقائه وبيئته المحيطة به ، أو من توالي الخبرات والتجارب عليه ، ونحو ذلك .

الأخلاق الفطرية :

حظوظ الناس من الطبائع النفسية ، التي فطروا عليها ، حظوظ متفاوتة .

فالناس كما تتفاوت حظوظهم من الذكاء الفطري ، وتتفاوت حظوظهم الجسدية قوة وضعفاً ، وطولاً وقصراً ، وبدانة ونحولاً ، وصحة وسقماً ، وجمالاً ودون ذلك .

فإن حظوظهم من الطبائع النفسية الخلقية وغير الخلقية متفاوتة بالفطرة .

وهذه المتفاوتات نلاحظها حتى في الأطفال الصغار ، الذين لم تؤثر البيئة في تكوينهم النفسي بعد .

وقد جاء في أقوال الرسول ﷺ ، ما يثبت هذا التفاوت الفطري في الطباع الخلقية وغيرها منها :

قال رسول الله ﷺ :

«إن بني آدم خلقوا على طبقات شتى ، ألا وإن منهم البطيء الغضب سريع

الفيء ، والسريع الغضب سريع الفيء ، والبطيء الغضب بطيء الفيء فتلك بتلك ، ألا وإن منهم بطيء الفيء سريع الغضب ، ألا وخيرهم بطيء الغضب سريع الفيء ، وشرهم سريع الغضب بطيء الفيء». [رواه الترمذي]

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«الناس معادن كمعادن الذهب والفضة ، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا ، والأرواح جنود مجندة ، فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف». [رواه مسلم]

وهذا الحديث يكشف عن أصلين جوهريين من أصول التكوين العام للناس ، التكوين النفسي ، والتكوين الروحي.

عن أبي موسى رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«إن الله خلق آدم من قبضة من جميع الأرض ، فجاء بنو آدم على قدر الأرض منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك ، والسهْل والحزْن ، والخبيث والطيب». [رواه أحمد والترمذي وأبو داود]

من هذه الأحاديث ، تتبين أن من الأخلاق ما يكون أخلاقاً فطرية بها يتفاضل الناس في أصل تكوينهم الفطري.

وقد يسأل سائل:

إذا كانت الأخلاق طباعاً فطرية ، فلماذا وُضع الإنسان تجاهها موضع الابتلاء والتكليف؟

فالجواب على ذلك:

إنَّ هناك حقيقة ثابتة في مجال كل تكليف رباني ، هي أن الله تبارك وتعالى لا يكلف نفساً إلا وسعها ، فمسؤولية الإنسان تنحصر في نطاق ما يدخل في وسعه ، وما يستطيعه من عمل.

وامتحان الله تعالى لعباده يكون بمقدار ما منحه من هبات وعطايا ، وعلى مقدار استطاعته الجسدية والنفسية ، ثم تكون المحاسبة بعد ذلك على مقدار

نسبة الامتحان ، ويكون الجزاء العادل على مقدار الطاعة والجهد المبذول نفسياً وجسدياً ، أو على مقدار المعصية والجهد الذي كان يمكن بذله في الطاعة.

قال الله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾. [الزلزلة: ٧ ـ ٨]

﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا﴾. [الطلاق: ٧]

﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾. [البقرة: ٢٨٦]

وقد يسأل سائل أيضاً:

إذا كانت الطبائع الإنسانية هي المهيمنة على سلوك الإنسان الشامل للسلوك الأخلاقي وغيره ، وهذه الطبائع ذات نسب فطرية متفاوتة ، فما هي فائدة التربية الأخلاقية؟

والجواب على ذلك:

إن من الطباع الفطرية ما تكون قابلة للتعديل والتبديل ، ولو في حدود نسب جزئية لدخولها تحت سلطان إرادة الإنسان وقدرته ، فهي خاضعة للمسؤولية ، وداخلة في إطار التكاليف الربانية.

وهذه تستفيد من التربية الأخلاقية المتعددة وإن اختلفت نسب الاستعداد من شخص إلى آخر ، وما لم يكن قابلاً للتعديل والتبديل ، لخروجه عن سلطان إرادة الإنسان وقدرته ، فهو غير داخل في إطار المسؤولية تجاه التكاليف الربانية.

هذا ويجب أن نعلم أن الأخلاق الفطرية قابلة للتنمية والتوجيه والتعديل ، لأن وجود الخلق بصفة فطرية ، يدل على وجود الاستعداد الفطري لتنميته بالتدريب والتعليم وتكرر الخبرات ، كما أنه يدل على وجود الاستعداد الفطري لتقويمه وتعديله وتهذيبه ، بالتدريب والتعليم وتكرر الخبرات ، وتشهد لهذه القابلية التجارب التربوية على الإنسان ، والملاحظات المتكررة على أفراد الناس من مختلف البيئات الإنسانية.

قال الله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾. [الشمس: ٧ ـ ١٠]

الأخـلاق الـمكتسبـة:

وهي الأخلاق التي يكتسبها المرء من البيئة الطبيعية، أو البيئة الاجتماعية أو من توالي الخبرات والتجارب ونحو ذلك.

ورسول الله ﷺ بيّن أثر البيئة في تغيير الفطرة، وإكسابه الأخلاق والمبادىء المتعددة.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه».

[رواه الشيخان]

ولكن لا بد لاكتساب الأخلاق من وجود الاستعداد الفطري لاكتسابها، وشأن الأخلاق في هذا كشأن المهارات الحركية والعضلية، فالعضو الذي لديه استعداد وقابلية فطرية لاكتساب مهارة من المهارات، يمكن أن يغدو بالتدريب والتعليم مكتسباً لهذه المهارة.

أما العضو الذي ليس لديه هذا الاستعداد، فإنه من المتعذر تدريبه وتعليمه حتى يكتسب هذه المهارة، وكذلك اكتساب الأخلاق.

والتربية الإسلامية لم تلجأ إلى محاولة إلغاء أصل طبائع الناس الفطرية، أو إلى إلغاء شيء منها، لتضع في محلها طبائع جديدة مكتسبة لم تكن هي ولا الاستعداد إليها من الأمور الفطرية.

ولكن التربية الإسلامية لجأت إلى الأسس التربوية النافعة في التقويم والتحويل والتنمية والتهذيب والتشذيب. كما لجأت إلىٰ وسائل متعددة لاكتساب الأخلاق، كالتدريب العملي، والرياضة النفسية والغمس في البيئات الصالحة، والقدوة الحسنة وغير ذلك.

فمن وجـد في نفسهـ أو أولاده أو طلابه، أخلاقاً فطرية سامية، فليحمد

الله عـز وجـل وليشكـره علـى هـذه النعمـة ، وعليـه أن ينميهـا ويشجعهـا ويزكيهـا.

كما يجب عليه أن يسعى وراء الأخلاق المكتسبة ليكتسبها ويغرسها في نفسه وأولاده وطلابه بكل مجالات الاكتساب والتربية ، لتسمو الأرواح وتزكو النفوس وتطهر ، وليعم الخير والسعادة على جميع المستويات ، وليحصل التوفيق والنجاح في دار الدنيا والآخرة.

* * *

أهمية الأخلاق في الإسلام

أهمية الأخلاق في الإسلام:

ـ علم الأخلاق من أشرف العلوم إن لم يكن أشرفها.

إذ إن قيمة المرء في الحقيقة، تقدر بأعماله وأخلاقه النابعة من قلبه لا بجسمه وصورته، كما ورد في الحديث الشريف عن أبي هريرة عبد الرحمن بن صخرٍ رضي الله عنه قال:

قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله تعالى لا يَنْظُرُ إلى أجسامِكُمْ ولا إلى صُوَرِكُم، ولكنْ ينظُرُ إلى قُلوبِكُم». [رواه مسلم]

وهذا الشاعر يبيِّن في بيت من الشعر، أن خلاصة نجاح الأمم وَرُقِيِّها إنما هو بالأخلاق، وسبب فشلها وخرابها ودمارها هو ابتعادها عن الأخلاق فيقول:

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هُمُ ذهبت أخلاقهم ذهبوا

ما هو الخُلُق؟

الخُلُق في اللغة: السجية والطبع.

ـ ويقول الإمام الغزالي:

إن الخُلُق عبارة عن هيئة في النفس راسخة، عنها تصدر الأفعال بسهولة ويُسْرٍ، من غير حاجة إلى فكر ورويَّة، فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة المحمودة عقلاً وشرعاً، سُمِّيت تلك الهيئة خُلُقاً حسناً.

وإن كان الصادر عنها الأفعال القبيحة، سميت الهيئة التي هي المصدر خلقاً سيئاً.

ـ وهناك فرق بين الخُلُق والتَّخلُّق.

فالأخلاق: سجايا وطبائع.

ولكن التخلق: تكلُّف من الإنسان، يحاول به أن يتخلَّق بهذا الخُلُق، فإن صدق هذا الإنسان في تَخلُّقِه أصبح الخُلُق فيه سجية وطبعاً.

الديـن هـو الـخُلُـق:

ـ من السلف من يعدُّ الدينَ هو الأخلاق الكريمة، فقد تعرَّض ابن عباس لتفسير: قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾.

فقال: إن المعنى لعلى دين عظيم، لا دين أحبُّ إليَّ، ولا أرضى عندي منه، وهو دين الإسلام.

ولذلك يقول ابن القيِّم:

الدين كله خُلُق، فمن زاد عليك في الخُلُق زاد عليك في الدين.

ويبيّن ذلك بشكل واضح الحديث الشريف التالي:

ـ [جاء رجل إلى رسول الله ﷺ من بين يديه فقال: يا رسول الله ما الدين؟

قال: حُسْنُ الخُلُق.

فأتاه من قِبَلِ يمينه فقال: يا رسول الله ما الدين؟

قال: حُسْنُ الخُلُق.

ثم أتاه من قِبَلِ شماله فقال: ما الدين؟

فقال: حُسْنُ الخُلُق.

ثم أتاه من ورائه، فقال: يا رسول الله، ما الدين ؟

فالتفت إليه وقال: أما تفقه؟ هو أن لا تغضب].

[أخرجه محمد بن نصر المروزي من رواية أبي العلاء بن الشخير مرسلاً]

ـ ولعل هذا هو السبب في أن يقول ابن عباس:

/ لِكُلِّ بنيانٍ أساس وأساس الإسلام حُسْنُ الخُلُق/ .

ـ الأخـلاق فـي الـقـرآن :

القرآن الكريم هو أساس الإسلام ، وينبوعه الأول ، وإذا كان القرآن المجيد دين وتشريع ، وكتاب عقيدة وعبادات ومعاملات ، وكتاب عبر وعظات فإنه في الوقت نفسه كتاب أخلاق .

ـ ولقد تحدّث القرآن الكريم عن مكارم الأخلاق ومحامد الخصال في سور متعددة وآيات كثيرة ، في شكل موجز مُبيّن ، فصار رائداً لكل مسلم راغب في التحلّي بالفضائل ، والتزيّن بمحاسن الطباع .

ـ ولعلّ هذا مما يشير إليه قول الله تبارك وتعالى في سورة الإسراء .

﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ . [الإسراء : ٩]

ـ ومما جاء في القرآن الكريم في بحث الأخلاق .

١ ـ قوله تعالى : ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ . [النحل : ٩٠]

٢ ـ ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴾ . [الفرقان : ٦٣]

٣ ـ ﴿ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴾ . [لقمان : ١٩]

٤ ـ ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ . [الأعراف : ١٩٩]

٥ ـ ﴿ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ . [النحل : ٩١]

ـ والآيات في موضوع الأخلاق أكثر من أن تحصى .

ـ بل إن سورة الحجرات يُسَمّيها العلماء بسورة الآداب والأخلاق .

ـ وإننا سوف نمرّ على هذه الآيات ونذكر كلاً منها في الأبواب الخاصّة بمواضيعها .

الأخلاق في السُّنَّة النبوية:

ـ لقد أقبلت السُّنَّة النبوية المطهرة من وراء القرآن، تبيِّن وتفسر وتؤكد وتفسح مجال الحديث عن أخلاق الإسلام الكريمة، ولا عجب في ذلك فالرسول ﷺ هو القائل: «بعثت لأتمم مكارم الأخلاق».

[رواه الإمام مالك في الموطأ]

ـ وهو القائل: «أدّبني ربي فأَحْسَنَ تأديبي». [رواه العسكري عن علي]

ـ ولقد كان من دعاء النبي ﷺ في افتتاح الصلاة قوله: «اللهم اهدني لأَحْسَنِ الأخلاق، لا يهدي لأحْسَنِهاإلاّ أنت، وَاصْرِفْ عنِّي سَيِّـئَها، لا يَصْرِفُ عنِّي سَيِّئَها إلا أنْتَ».

ـ ولقد سأل هشام بن حكيم السيدة عائشة رضي الله عنها، عن خُلُقِ رسول الله ﷺ، فأجابت بقولها: «كان خُلُقُهُ القرآن».

ـ وأقوال رسول الله ﷺ في الأخلاق كثيرة منها:

١ ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سُئِلَ رسولُ اللهِ ﷺ، عن أكثر ما يُدْخِلُ الناس الجنَّـةَ فقال: «تقوى اللهِ، وَحُسْنُ الخُلُقِ». [رواه البخاري وغيره]

٢ ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللهِ ﷺ: «أكمل المؤمنينَ إيماناً أَحْسَنُهُم خُلُقاً، وخِيارُكم خيارُكُم لأَهْلِهِ».

[رواه الترمذي وقال حسن صحيح]

٣ ـ عن أبي الدرداء « عن رسول الله ﷺ قوله: ما من شيءٍ يوضعُ في الميزانِ أثـقـلُ من حُسْـنِ الخُـلُق فإنّ صاحب حُسْنِ الخُلُقِ لَيَـبْـلُغُ بـه درجـةَ صاحب الصَّـومِ والصـلاَةِ». [رواه الترمذي]

٤ ـ عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله قال: «إنَّ أحبَّكم إليَّ وأقرَبَكم مني مجلساً يومَ القيامةِ أحاسنكم أخلاقاً، وإنَّ أبغضَكُمْ إليَّ وأبعدكم مني مجلساً يوم القيامة أسوَؤكُمْ أخلاقاً، الثرثارون المُتَشَدِّقُون المتَفَيهِقُونَ».

[رواه الطبراني]

٥ ـ عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال عليه الصلاة والسلام: «إنَّ اللهَ تعالى جوادٌ يحبُ الجودَ ويحبُ معالي الأخلاق ويكرهُ سَفاسِفَها».

[رواه الطبراني]

ـ ولقد كان رسول الله ﷺ يحب مكارم الأخلاق ويجازي عليها، ففي عهده ﷺ تمَّ غزو قبيلة طيء، فلما أتوا بالسبي إلى رسول الله ﷺ، قامت جارية من بين السبايا فتحدثت قائلةً: «يا محمد، إني رأيت أن تُخَلِّي سبيلي فلا تُشَمِّتْ بي أحياء العرب، فأرجو أن تفعل». ثمَّ بررت طلبها بأن قالت: «أبي كان يُطْعِمُ الجائعَ، ويَفُكُّ العانيَ، ويساعِدُ المحتاجَ، وما ردَّ طالب حاجة قط... أنا ابنة حاتم الطائي». فقال عليه الصلاة والسلام: «يا فتاةُ إنَّ أخلاقَ أبيكِ هي أخلاقُ الإسلام، لو كانَ أبوكِ مسلماً لتَرَحَّمْنا عليه». ثم قال: «فُكُّوا إسارها وخلُّوا عنها فإن أباها كان يحب مكارم الأخلاق»...

أقـوال الـعلمـاء:

ـ ما أكثر ما تحدَّث العلماء في موضوع الأخلاق، بل إن بعضهم ألَّف كُتُباً متعددة الأجزاء في الأخلاق المتفرقة.

ـ ولكن أُورِدُ هُنا بعض أقوالهم في موضوع الأخلاق عامة:

١ ـ قال سيدنا علي رضي الله عنه: [حُسْنُ الخُلُقِ في ثلاثِ خِصَالٍ: «اجتنابُ المحارم، وطَلَبُ الحلال، والتَّوْسِعَةُ على العيال»].

٢ ـ وقال الحسن رضي الله عنه: [حُسْنُ الخُلُقِ: بَسْطُ الوجه، وبذل الندى].

(الندى: الخير والمال).

٣ ـ قال الغزالي رحمه الله تعالى: يُقال حُسْنُ الخَلْقِ والخُلُقْ: أي حُسْنُ الظاهر والباطن.

٤ ـ قال الواسطي: حُسْنُ الخُلُق، هو أن لا يُخَاصِمَ من شِدَّة معرفته باللهَ تعالى. وقال أيضاً: هو إرضاءُ الخَلق في السَّرَّاءِ والضرَّاء.

٥ ـ قال شاه الكَرْماني رحمة الله عليه: حُسْنُ الخُلُقِ، هو كفُّ الأذى واحتمالُ المؤمن.

٦ ـ وسئل سهل التستريّ عن حُسْنِ الخُلُق؟ فقال: أدناه الاحتمال وتَركُ المكافأة، والرحمة للظالم، والاستغفار له، والشَّفقةُ عليه.

وقال مرّةً: حُسْنُ الخُلُق، أن لا يتَّهِمَ الحَقَّ في الرزق، ويثق به، ويسكن إلى الوفاء بما ضَمِنَ، فيطيعه ولا يعصيه في جميع الأمور، فيما بينه وبينها وفيما بينه وبين الناس.

٧ ـ قال الحُسَيْن بن منصور: حُسْنُ الخُلُق، هو أن لا يُؤْثِرَ جفاء الخَلْق بعد مُطَالعته للحقِّ.

٨ ـ قال أبو سعيد الخرَّاز: حُسْنُ الخُلُق، هو أن لا يكون لك همٌّ غير الله تعالى. ومما ورد أيضاً من أقوالهم في موضوع الأخلاق ما يلي:

١ ـ بِسِعَةِ خُلُقِ المرءِ يطيب عَيْشُهُ.

٢ ـ سعةُ الأخلاق تفتح كنوز الأرزاق، وتكثرُ من الأصفياء، وتُقَلِّلُ الأعداء وتسهلُ المصاعِب، وتنيلُ أسنى الرغائب، وأعز المطالب.

٣ ـ حسْنُ الخُلُقِ يوجب المودة، وسوءُ الخُلُقِ يوجب المباعدة، والانبساط يوجب المؤانسة، والانقباض يوجب الوحشة.

٤ ـ صفاء الأخلاق من نقاء الأعراق.

٥ ـ وقد جمع بعضهم علامات حُسْنِ الخُلق فقال: هو أن يكون المرءُ كثير الحياء، قليلَ الأذى، كثير الصلاح، صدوق اللسان، قليلَ الكلام، كثير العمل، قليلَ الفضول، قليلَ الزلل. وهو بَرٌّ وَصُول، رَضيٌّ شكور، حليمٌ رفيق، عفيفٌ شفيق، لا لَمَّازٌ ولا سبَّاب، ولا نمَّام، ولا مُغْتَابٌ، ولا عجولٌ ولا حقودٌ، ولا بخيل ولا حسود، هشَّاش، بشَّاش، يحبُّ في الله ويبغض في الله ويرضى في الله، ويغضب في الله.

من أقوال الشعراء:

قال الشاعر:

أحــبُّ مكــارم الأخــلاق جهــدي ... وأكـــره أن أَعِيْـــبَ وأَنْ أُعـــابَ

وقال الشاعر:

واحذَر مساويءَ الأخلاق تشان بها ... وأسوأُ السّوءِ سوءُ الخلقِ والبخلِ

وقال آخر:

وكـم من فتـى أزرى بـه سوءُ خُـلْقِـه ... فـأصبح مـذمـومـاً قليـلَ المحـامِـدِ

ـ وقال غيره:

ولــو أنـنـي خُيِّـرتُ كــلَّ فضيلــةٍ ... مــا اختــرتُ غَيـر مَكـارِمِ الأخـلاقِ

* * *

خُلُقُ الصِّدْقِ

١

قيمة الصدق:

ـ الصدق هو أول الأخلاق الحسنة التي يجب أن يتصف بها المؤمن الحقيقي.

ـ وهو أعظم درجات الأخلاق وأساسهاوثمراتها. وهو رأس الفضائل وأُسُّ المروءة، من تحلَّى به كَمُلَتْ صفاته وسَمَتْ أخلاقه، وتحققت معه آماله.

ـ والصدق أساس الدين، وحياة الأمم والشعوب، وسبب الرُقيِّ والمحبة والتعاون، لذا نجد الشعوب الراقية جُبِلَتْ على الصدق فلا تجد فيها كذاباً...

ـ فليس في الأخلاق خُلُق أحسن للإصلاح والنظام من الصدق.

معنى الصدق:

ـ الصدق في الاستعمال الشائع: هو الإخبار بالحق الذي يعلمه الإنسان ولا يعلم غيره.

ـ ومادة الصدق في لغة العرب، تدل على قوة في الشيء، سواء أكان الشيء قولاً أم غيره... وسمِّي الصدق القولي صدقاً، لقوته في نفسه ولأن الكذب لا قوَّة له.

ـ والأصل في هذا قول العرب: رمحٌ صَدْقٌ: أي صَلْبٌ.

تعريف الصدق:

ـ عرفوا الصدق بأنه: (مطابقة القول للضمير والشيء المخبَر عنه معاً).

- ودون ذلك لا يكون القول صدقاً تاماً.

- فلو قال المنافق : محمد رسول الله ، كان صدقاً في الحقيقة لمطابقته الواقع ، ولكنه في الوقت نفسه كذب بالنسبة إلى هذا المنافق ، لأنه يخالف ما في ضميره.

- ولذلك قال القرآن الكريم يخاطب رسول الله ﷺ: ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾.

[المنافقون : ١]

- فالصدق هو القول بما يطابق الحقيقة والواقع ، من غير تبديل ، ولا زيادة ولا نقصان ، ولولاه لانتزعت ثقة الناس بعضهم من بعض ، ولما وصل إليهم شيء من الحقائق في العلوم والأديان.

معـانـي الـصـدق:

يستعمل الصدق في عدة معانٍ :

أولاً: صدق القول (اللسان) وهو أشهر أنواع الصدق وأظهرها ، وذلك لا يكون إلا في الإخبار ، أو فيما يتضمَّن الإخبار وينبه عليه.

قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴾. [الأحزاب : ٧٠]

- وحديثنا عن الصدق في هذا الكتاب ، في هذا المعنى الخاص فقط.

ثانياً: صدق الإيمان والاعتقاد ، والثبات عليه ، والاستقامة فيه ، وعدم التردد ، مع الصمود أمام المغريات والشهوات.

قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾. [الحجرات : ١٥]

ثالثاً: صدق النية والإرادة ، ويرجع ذلك إلى الإخلاص ، وهو أن لا يكون له باعث في الحركات والسَّكنات إلا الله تعالى ، وسنفرد له بحثاً خاصاً.

رابعاً: الصدق في العزم ، والوفاء به.

قال تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ۝٢٣ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ . [الأحزاب: ٢٣ ـ ٢٤]

خامساً: الصدق في مقامات الدين، وهو أعلى الدرجات كالصدق في الخوف والرجاء والزهد والرضى، والحب والتوكل.

سادساً: الصدق في المعاملات مع الناس، من بيع وشراء، وحاجات مختلفة، فلا غش ولا خداع، ولا احتكار ولا رشوة، ولا مماطلة ولا وعود كاذبة.

مكانة الصدق في الإسلام:

ـ للصدق مكانة عظيمة في الإسلام، تظهر من خلال ما يلي:

أولاً: الصدق صفة من صفات الله سبحانه وتعالى، وقد ذكر القرآن الكريم اتصاف الله تبارك وتعالى بصفة الصدق.

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۗ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ . [النساء: ٨٧]

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ .

[النساء: ١٢٢]

ثانياً: والصدق من أبرز صفات الرسل والأنبياء، وهم مفطورون عليه إذ لو بدر من أحدهم غير الصدق أُهْلِكَ فوراً، وقد بيَّن الله ذلك في حق سيِّدنا محمد ﷺ، وهي عامة لكل الرسل.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ۝٤٤ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ۝٤٥ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾ . [الحاقة: ٤٤ ـ ٤٦]

ـ وقد وصف القرآن الكريم الرسل عليهم أفضل الصلاة والسلام بالصدق.

قال تعالى: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ . [يس: ٥٢]

وقوله تعالى: ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴾ . [مريم: ٥٦]

ثالثاً: ولقد كان خلق الصدق من أبرز أخلاق الرسول ﷺ ، ولذلك نعته قومه قبل بعثته [الصادق الأمين].

- ولقد قالت له السيدة خديجة رضي الله عنها ، عند بدء الرسالة: [إنك لتصدق الحديث].

وقال له قومه: [ما جرَّبنا عليك كذباً].

وقد قال الله تعالى: ﴿ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ﴾ . [الأحزاب: ٢٢]

- هذا وقد وصف القرآن النبيَّ ورسالته بالصدق.

قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ .

[الزمر: ٣٣]

رابعاً: والقرآن يبين أهمية الصدق ، وأنه تالٍ لدرجة النبّوة.

- فقد قال تعالى عن أناس: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾ .

[النساء: ٦٩]

خامساً: وما دام الصدق صفةً لازمة للرسول ﷺ. وكان فضيلة تحلَّى بها منذ صباه ، وضرب فيها القدوة المثلى لكل البشرية ، فمن الطبيعي أن يدعو إليه ، ويحث عليه ، ولذلك جاءت في السنة النبوية المطهرة ، تلك الكلمات الجوامع التي تُظْهر أهمية الصدق ، والأمر به والحث على التخلُّق به ، والأحاديث الشريفة كثيرة في هذا الموضوع منها:

١ - عن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ قال: [إنَّ الصِّدق يهدي إلى البرِّ ، وإنَّ البرَّ يهدي إلى الجنَّة ، وإن الرَّجُلَ ليَصْدُقُ حتَّى يُكْتَبَ عندَ اللهِ صِدِّيقاً ، وإنَّ الكَذِبَ يهدي إلى الفُجُورِ ، وإن الفجور يهدي إلى النَّار ، وإنَّ الرجُلَ ليكذبُ حتى يُكْتبَ عند الله كَذَّاباً]. متفق عليه.

٢ - عن أبي محمد الحسن بن عليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنهما قال:

حفظتُ من رسول الله ﷺ: «دَعْ ما يَرِيبُكَ إلى ما لا يَرِيبُكَ ، فإنَّ الصِّدْقَ طُمَأْنينةٌ والكَذِب رِيبَةٌ». [رواه الترمذي]

ـ قوله[يريبُكَ] بفتح الياء وضمها ، ومعناه:

ـ اترك ما تشك في حلِّهِ ، واعدل إلى مالا شَك فيه.

٣ ـ عن أبي سفيان صخر بن حَرْبٍ رضي الله عنه في حديثه الطويل في قصة هِرَقل ، قال هرقل: فماذا يأمُرُكم ؟ [يعني النبي ﷺ].

قال أبو سفيان: قلت يقول: [اعبدوا اللهَ وحْدَه لا تشركوا به شيئاً ، واتركوا ما يقول آباؤُكُمْ ، ويأمُرُنا بالصلاةِ والصدقِ والعفافِ والصِّلَةِ]. [متفق عليه]

سادساً: ولقد اتصف الصحابة الكرام رضوان الله عليهم بالصدق من أول إسلامهم وعَرَفوا أهمية الصدق والتمسُّكِ به ، وأنه من أهم أخلاق المسلم ، حتى قال قائلهم: [ما كَذَبتُ منذ أسلمتُ].

ـ قال سيدنا عُمر بن الخطاب رضي الله عنه: [لأنْ يضعني الصدقُ ـ وقَلَّما يَفْعَل ـ أحب إليَّ مِنْ أنْ يَرْفَعني الكَذِبُ ـ وقَلَّما يفعل ـ].

ـ وقال سيدنا عليٌّ كرَّمَ الله وجهه ورضي الله عنه: [قد يَبْلُغُ الصادق بصدقِهِ ، ما لا يَبْلُغهُ الكاذبُ في احتياله].

ـ وقال ابن عباس رضي الله عنهما: [أربعٌ مَنْ كُنَّ فيه فقد ربح: الصدقُ ، والحياءُ ، وحُسْن الخُلُقِ ، والشُّكر].

سابعاً: ومن بعد الصحابة الكرام جاء التابعون ، ثم تابعوهم ، ومن بعدهم العلماء والصالحون ، فتمسَّكوا جميعاً بهذا الخُلُق الكريم في جميع أقوالهم وأعمالهم ، وأَمَرُوْا من وراءهم من المؤمنين والمريدين بالتخلُّق بالصدق ، والتمسُّك به في كل أحوالهم.

قال أحدهم: [الصدق مُنْجِيك وإن خِفْتَهُ ، والكذب مرديك .(موقعك) وإن أمنته].

ـ وقال آخر: [مَنْ صدق في مقاله ، زاد في جماله].

ـ وقال ثالث: ثلاثة لا تُخطىء الصادق: الحلاوة ، والهيبة ، والملاحة.

ـ وقد قال الإمام ابن القيم في الصدق: [هو سيف الله في أرضه ، الذي ما وُضِعَ عَلى شيء إلا قطعه ، ولا واجَهَ باطلاً إلا أَرْداه وصرعه ، مَنْ صالَ به لم تُرَدَّ صولتُه ، ومن نَطَقَ به عَلَتْ على الخصوم كلمته ، فهو رُوح الأعمال ، وَمِحَكُّ الأحوال ، والحامِلُ على اقتحام الأهوال ، والباب الذي دَخَلَ منه الواصلون إلى حَضْرة ذي الجلال ، وهو أساسُ بناء الدين ، وَعَمودُ فسطاط اليقين ، وَدَرَجَتهُ تالية لدرجة(النبوة) التي هي أرفع درجات العالمين. ومن مَسَاكِنُهُم في الجنات : تجري العيون والأنهار إلى مساكن الصديقين ، كما كان من قلوبهم إلى قلوبهم في هذه الدار مددٌ متصلٌ ومعين].

ثامناً: هذا ويقرر القرآن المجيد بعد هذا ، أن الصدق هو صفة الأخيار من عباد الله الصالحين المصلحين ، الطائعين المستقيمين.

قال تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾. [البقرة: ١٧٧]

ـ ويقول مادحاً المؤمنين: ﴿ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾. [آل عمران: ١٧]

ـ لذلك نجد أن الصحابة الكرام رضي الله عنهم ، والعلماء والتابعين والصالحين تمسّكوا بهذا الخُلُق واتصفوا به.

تاسعاً: هذا وإن الله عز وجل ، يدعو أهل الإيمان ، وأهل الصلاح والتقوى ، وأهل المحبة والذكر ، في كل مكان وزمان يدعوهم أن يكونوا مع الصادقين في الدنيا ، وأن يسعوا في العمل في طاعة الله ورسوله ، ليكونوا معهم في الآخرة.

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾.

وقال أيضاً: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾. [النساء: ٦٩]

عاشراً: حتى إن الشعراء أخذوا يولون الصدق في أشعارهم مكانة عظيمة ؛ لما كان له من الأهمية في الأخلاق والمعاملة مع الناس.

قال أحدهم:

عَوِّد لسانَكَ قَوْلَ الصِّدْقِ تَحْظَ بِهِ ... إنَّ اللِّسانَ لِمَا عَوَّدتَ مُعْتَادُ
مُوَكَّلٌ يتقاضى ما سَنَنْتَ لَهُ ... في الخير والشَّرِّ فَانْظُرْ كيفَ تَرْتَادُ

(موكل: نائب عنك ـ ترتاد: تطلب).

وقال آخر:

عليكَ بالصِّدق ولو أنَّهُ ... أَحْرَقَكَ الصِّدْقُ بنار الوعيدْ
وابغِ رضا المولى فَأَغْبَى الورى ... من أَسْخَطَ المولى وأرضى العَبيدْ

وقال ثالث:

عليكَ بالصِّدقَ في كُلِّ الأمور ولا ... تَكْذِبْ فَأَقْبَحُ ما يُزري بك الكذبُ

(يزري: يعاب).

قال رابعٌ:

ما أَحْسَنَ الصِّدقَ في الدنيا لقائِلِهِ ... وأَقْبَحَ الكذبَ عند اللهِ والناسِ

وقال خامس:

الصِّدقُ في أقوالِنا أَقْوى لنا ... والكَذِبُ في أفعالِنا أفْعَى لنا

النجاة في الصدق:

ـ لا تحصل النجاة في الدنياوالآخرة إلا في الصدق.

أما في الدنيا: فالصدق أنجى من الكذب في كل الأمور، كما ورد عن رسول الله ﷺ: «تحرَّوا الصِّدقَ وإن رأيتُم أن الهَلَكَةَ فيه ؛ فإن فيه النجاة».
[رواه ابن أبي الدنيا]

ـ فقد ذكر أن الحجاج طلب رجلاً ليقتله، فلم يعثر عليه، فلما أعياه طلبه، قال أحدهم للحجاج: إن أردت الرجل فاسأل أباه عنه فهو لا يكذب أبداً، فاستدعى الوالد فسأله: أين ابنك؟ فدَلَّهُ عليه فَأُتي به، فاستغرب

الحجاج وقال للوالد: ما حملك على هذا؟ وأنا أريد قتله؟ فقال: لقد كرهت أن ألقى الله بكذبة. فعفا الحجاج عن الولد. (وذلك ببركة الصدق).

ـ وأما في الآخرة:

ـ فلا ينفع العبد وينجيه من عذاب الله إلا صدقه.

قال تعالى: ﴿ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾. [المائدة: ١١٩]

أثر الصدق

[مسرحية تاريخية واقعية]:

حدثت وقائعها مع الشيخ عبد القادر الجيلاني رضي الله عنه، وهو فتىً حديث السنّ في أثناء سفره.

ـ يفتح الستار عن زعيمٍ لعصابة سرقة. يدخل أحد أفراد العصابة دافعاً أمامه شاباً، ويقترب من زعيمه قائلاً:

اللِّص: سيدي، أثناء تفتيش القافلة عثرنا على هذا الشاب الذي أخذ يسخر منا.

الزعيم: (غاضباً)، وهل يجرؤ أحد على أن يسخر منا...؟. ماذا فعل...؟

اللِّص: سألته ما معك؟ فقال: أربعون ديناراً.

الزعيم: كيف تهزأ برجالي؟ أما تدري أننا أسياد هذه البادية؟ نقتل من نشاء ونسلب مال من نشاء؟. كيف تسخر من رجالي، أيها الطائش، صغير السن؟ وكيف تكذب على رجالي وتستهزىء بهم.

عبد القادر: (ينظر إليهما). أنا لم أكذب على أحد، ولم أستهزئ بأحد.

الزعيم: وكيف ذلك؟ ألم تقل أنك تملك أربعين ديناراً.

عبد القادر : نعم لقد قلت ذلك .

الزعيم : إذن هاتها ، أين هي؟

عبد القادر : هاهي [يُخْرِج من جيبه كيس نقود ويقدمه للزعيم] .

الزعيم : [يأخذ الكيس ويفتحه ، ويضع ما به من نقود بيده ، ويظهر عليه الاستغراب الشديد] . يا للعجب . . . . . نقود والله . . . . . إذن أنت لا تسخر من القوم .

عبد القادر : أبداً . . . أنا لا أسخر من أحد .

الزعيم : وأنت صادق إذن .

عبد القادر : جعلني الله من الصادقين وجمعني مع الصادقين في الدنيا والآخرة إن شاء الله .

الزعيم : ما حملك يا فتىً عليْ الصدق . . . قد كان بإمكانك إخفاء المال والاحتفاظ به .

عبد القادر : نشأت على الصدق منذ نعومة أظافري ، وعندما أردت الخروج من مكة إلى بغداد لطلب العلم ، أعطتني أمي أربعين ديناراً أستعين بها ، وعاهدتني على الصدق وقالت لي :

يا بني اصدق القول ولا تكذب أبداً ، فالله يحفظك وينجّيك بالصدق دائماً وأبداً . فأنا أخاف أن أخون عهدي مع أمي . . . وأخاف أن أُغضب ربي .

الزعيم : (يَذهل . . . ثم يصيح ويمزِّق ثيابه) .

أنت تخاف أن تخون عهد أمك ، وأنا لا أخاف أن أخون عهد الله؟! أنت تخاف أن تغضب ربك . . . وأنا أسرق وأقتل وأنهب كيف أقف أمام ربي ؟! [يُرْجِعُ إليه المال ويقول وهو يبكي وقد أقبل على الفتى متوسلاً] .

ـ أنا تائب إلى الله على يديك .

ـ ما اسمك يا فتى؟

عبد القادر: عبد القادر الجيلاني.

اللِّــص: وأنا تائب معك أيها الزعيم، فأنت كبيرنا في قطع الطريق، وأنت اليوم كبيرنا في التوبة.

عبد القادر: (يبكي ويصيح). الله أكبر... الله أكبر... ما أسرع ثمرات الصدق.

الزعيم: وهل يقبلني الله عز وجل بعدما فعلت كل ما فعلت؟.

عبد القادر: نعم وكيف لا يقبلك وهو القائل: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾. [الشورى: ٢٥]
وهو القائل: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾. [التوبة: ١٠٤]

الزعيم: يا فتى من أين لك هذا العلم وهذه التربية؟

عبد القادر: رباني والديَّ على ذلك مذ كنت صغيراً، ثم دفعا بي إلى مجالس العلماء والصالحين فأخذت عنهم هذا العلم وهذه الأخلاق الحسنة.

الزعيم: بارك الله في والديك اللذين اهتمَّا بجسدك ونفسك وتربيتك، وأرشداك إلى من يعلمك ما ينقصك في دينك ودنياك، وبارك الله في أولئك العلماء والصالحين الذين انتفعت بهم.

(يلتفت إلى اللص قائلاً: بَلِّغ جميع أفراد العصابة بما حدث، وأمرهم أن يَرُدُّوا كل ما أخذوه إلى أصحابه... وقل لهم إن الزعيم تاب إلى الله وسيذهب مع هذا الفتى لطلب العلم، فمن كنت زعيمه فليأتِ معنا، عسى أن يقبلنا الله ويعفو عنا ببركة صدق هذا الفتى.

[يسدل الستار]

* * *

التزام الصدق

ـ مما مرَّ معنا سابقاً نجد أنه لابدَّ للمؤمن من أن يلتزم الصِّدق في جميع أموره. والتزامُ الصِّدق أمرٌ يحتاج إلى إرادة صلبة ، وعزيمة قوية وإيمان وطيد ، واحتمالٍ كبير لتبِعَات الصدق.

ـ لذلك قال بشر بن الحارث : [مَنْ عامل الله بالصدق، استوحش من الناس].

وسئل ذو النون: هل للعبد إلى صلاح أموره سبيل؟ فأجاب قائلاً :

قد بقينا من الذنوب حيارى ... نطلب الصدق ، ما إليه سبيلُ
فدعاوى الهوى تَخفُّ علينا ... وخلاف الهوى علينا يثقلُ

ـ وكأن ذا النون يشير بذلك إلى الجهد الكبير الذي يجب أن يبذله من ذات نفسه من شاء أن يكون متحلياً بفضيلة الصدق ، وإلى أنّ أقوم طريق يوصل إلى الصدق ، هو أن يخالف الإنسان هوى نفسه ، وأن يوافق الحقّ والعدل.

ومن هنا قال ابن القيم: «حملُ الصدق كحمل الجبال الرواسي ، لا يطيقه إلا أصحاب العزائم».

وقال الجنيد: «حقيقة الصدق أن تصدق في موطن لا ينجيِّك منه إلا الكذب».

ـ والمؤمنون الحقيقيون ، هم الذين يحرصون على هذا الصدق ، لأنهم يتذكرون ثوابه الجليل ، الذي أشار إليه القرآن الكريم في سورة المائدة :

قال تعالى : ﴿ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ . [المائدة : ١١٩]

ولأنهم يتذكرون مآل الكذب والكاذبين ، فالقرآن الكريم يقول في سورة الزمر : ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ . [الزمر : ٦٠]

* * *

العبرة والتطبيق :

أيها الناشئة [المؤمن والمؤمنة]:

ـ ممّا سبق ذكره عن الصدق يَجْدُرُ بك أن تعتبر وتطبق ما يلي :

أولاًـ خذ عهداً على نفسك أمام الله ، أن تلتزم الصدق في كل أقوالك وأحوالك وأعمالك .

ثانياًـ إياك والكذب ، فأنت فتى مؤمن تحب الله وتعلم أن الله معك ، وأن الله يعلم كل شيء .

فأنت تخاف الله ولا تخاف غيره ، وتريد الله ولا تريد سواه .

ثالثاً ـ إياك والخوف من الصدق ، ولا تستمع للشيطان ، وهوى النفس فالصدق سينجيك .

رابعاًـ كن مسروراً عندما تصدق ولو وجدت أنه سيفوتك بالصدق شيء ، فسوف يُعَوِّضك الله بأكثر مما تفكر وتريد وترغب .

خامساً ـ كن جريئاً في كل المواقف ، واصدق أمام جميع الناس ، فسوف يُقدِّرك الجميع ويزدادون لك احتراماً ، ويرضى الله عنك .

سادساً ـ كن صادقاً مع الصغير والكبير ، حتى مع الحيوانات في معاملاتهم ونداءاتك لهم .

سابعاً ـ احفظ واعمل بقول سيدنا عمر رضي الله عنه : [لأن يضعني الصدق وقلَّما يفعل أحبُّ إليَّ من أن يرفعني الكذب وقلَّما يفعل].

* * *

آفـات الـلسـان

- بعد أن تحدثنا عن الصدق وعرفنا أنّ للصدق أنواع متعددة ، من أشهرها صدق اللسان والحديث ، لابدَّ لنا من أن نمر على بعض آفات اللسان المتعددة ، وهي آفات سيئة يجب الابتعاد عنها.

- قال الإمام الغزالي رحمه الله تعالى: فإن اللسان من نِعَم الله العظيمة ، ولطائف صنعه الغريبة ، فإنه صغير جِرمه ، عظيم طاعته وجُرمه ، إذ لا يستبين الكفر والإيمان إلا بشهادة اللسان ، وهما غاية الطاعة والعصيان.

- واللسان رحب الميدان ليس له مَرَدٌّ ولا لمجاله منتهى وحد ، له في الخير مجال رحب ، وله في الشر ذيلٌ سحب.

- فمن أطلق عذبة اللسان وأهمله مرض العنان ، سلك به الشيطان في كل ميدان وساقه إلى شفا جرف هار ، إلى أن يضطره إلى البوار ، ولا يكبُّ الناس في النار على مناخيرهم إلا حصائد ألسنتهم ، ولا ينجو من شر اللسان إلا من قيده بلجام الشرع ، فلا يطلقه إلا فيما ينفعه في الدنياوالآخرة.

- وآفات اللسان كثيرة وأمراضه متعددة سنمرُّ على بعضها لنبيِّنَها ونعالج أنفسنا منها إن وجدت فينا ، ونعاهد على أن نبتعد عنها ولا نتخلق بها.

* * *

الآفــة الأولــى:

[الـكـذب]

تعريـف الـكـذب:

هو مجانبة القول للحقيقة:

ـ وهو أول آفات اللسان وأخطرها.

ـ والكذب رذيلة محضة، تنبىء عن تغلغل الفساد في نفس صاحبها وعن سلوك ينشىء الشرإنشاءً، ويندفع إلى الإثم من غير ضرورة مزعجة أو طبيعة قاهرة.

ـ ولو تُمُثِّل الكذب لأظلم معه النهار، فهو يدل على خِسَّةِ الكاذب، وجُبنه وقلة إيمانه...

يكذب لِيَدْفَعَ مَضَرَّة بكذبه بدلاً من دفعها بشجاعته.

ويكذب ليكسب شيئاً بدلاً من كسبه بعمله.

ويكذب رياءً، طلباً للمنزلة عند الناس، ولا منزلة له عند الله، فيسهلُ على الناس كشفُهُ، وحجب الثقة عنه واحتقارُه. والكذبُ سببُ خَرَابِ الأمةِ، ونكد الشعوب، وسوءِ الحياة والضعف والذلة والخصوماتِ وكلِ بلاء.

ـ قال سيدنا علي كرم الله وجهه ورضي الله عنه: [أعظم الخطايا عند الله اللسانُ الكذوب، وشرُّ الندامة ندامة يوم القيامة].

ـ وقال سيدنا عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: «ما كَذَبْتُ كذبة منذ شددت عليَّ إزاري».

ـ قال أعرابي لابن له سمعه يكذب: يا بنيَّ إنَّ الكذَّاب يتعرَّض للعقاب من ربه، وإن قال حقاً لم يُصدَّق، وإنْ أراد خيراً لم يوفَّق، فهو الجاني على نفسه

بفعله ، والدال على فضيحته بمقاله ، فما صحَّ من صِدْقه نُسِبَ إلى غيره ، وما صح من كذب غيره نُسِبَ إليه .

ـ وفي هذا المعنى قال أحد الشعراء :

حَسْبُ الكذوب من البليـ ـة بعض ما يُحكى عليه
فإذا سمعت بكذبة من غيره نسبت إليه

وقال أحد الشعراء :

وما شيءٌ إذا فكرت فيه بأذهب للمروءة والجمالِ
من الكذب الذي لا خير فيه وأبعد بالبهاء من الرجالِ

مآلُ الكذب :

أولاً : الكذب من خصال النفاق والمنافقين :

١ ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «آية المنافق ثلاث : إذا حَدَّثَ كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا عاهد غدر» .

[رواه البخاري ومسلم]

وزاد مسلم في رواية له : وإن صلَّى وصام وزعم أنه مسلم .

٢ ـ عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما : أن النبيَّ ﷺ قال : «أربع من كُنَّ فيه كان منافقاً خالصاً ، ومن كان فيه خصلة مِنهُنَّ كان فيه خصلةٌ من النفاق حتى يدعها : إذا أؤتمن خان ، وإذا حَدَّث كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خَاصَمَ فجر» . [رواه البخاري ومسلم وغيرهما]

٣ ـ عن صفوانَ بن سليمٍ قال : [قيل يا رسول الله : أيكون المؤمن جباناً؟ قال : نعم .

قيل له : أيكون المؤمن بخيلاً؟ قال : نعم .

قيل له : أيكون المؤمن كذّاباً؟ قال : لا] . [رواه مالك مرسلاً]

ثانياً : الكذب يسوق إلى الفجور ، ثم إلى النار ، ويُكْتَب صاحبه عند الله كذاباً .

ـ عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «. . . . إياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإنَّ الفجور يهدي إلى النار، وما يزال العبد يكذب، ويتحرى الكذب حتى يُكْتَب عند الله كذّاباً».

[رواه الشيخان]

ثالثاً: الكذب خيانة كبيرة.

ـ عن سفيان بن أسيد الحضرمي رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كبرت خيانة أن تُحدِّث أخاك حديثاً هو لك مُصَدِّق، وأنت له به كاذب». [رواه أبو داود]

رابعاً: الكذب يُسَوِّد الوجه:

ـ عن أبي بريدة الأسلمي رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ألا إنَّ الكذب يُسَوِّدُ الوجه، والنميمة عذاب القبر».

[رواه أبو يعلى والطبراني وغيرهما]

خامساً ـ الكذب ينقص الرزق:

ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «بر الوالدين يزيد في العمر، والكذب ينقص الرزق، والدعاء يرد القضاء». [رواه الأصبهاني]

سادساً ـ الكذب يبعد المَلَكَ:

عن ابن عمر رضي الله عنهما: عن النبي ﷺ قال: «إذا كذب العبد تَبَاعَدَ المَلَكُ عنه مِيْلاً من نَتَنِ ما جاء به». [رواه الترمذي وقال حديث حسن]

من أنواع الكذب

١ ـ الكذب في الأكل:

عن أسماء بنت يزيد رضي الله عنها قالت: قلت يا رسول الله إن قالت إحدانا لشيء تشتهيه: لا أشتهيه، يُعدُّ ذلك كذباً؟! قال: «إن الكذب يُكتَبُ كذباً حتى تكتب الكُذَيْبة كذيبة». [رواه أحمد وغيره]

٢ ـ الكذب على الصغار :

عن أبي هريرة رضي الله عنه: عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من قال لصبيٍّ تعالَ هاكَ ، ثم لم يعطه ، فهي كذبة». [رواه أحمد وغيره]

هاكَ : أي أَقْبِل خذ.

ـ وعن عبد الله بن عامرَ رضي الله عنه قال: دعتني أمي يوماً ، ورسول الله ﷺ قاعدٌ في بيتنا ، فقالت: ها تعال أُعْطِك ، فقال لها رسول الله ﷺ: وما أردت أن تُعْطيه؟ قالت: أردت أن أعطيه تمراً فقال لها رسول الله ﷺ: «أَمَا إنكِ لو لم تُعْطِهِ شيئاً كُتِبت عليك كَذْبَةٌ».

[رواه أبو داود والبيهقي]

٣ ـ الكذب في المزاح :

عن بَهْز بن حكيم عن أبيه عن جده رضي الله عنهم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «وَيْلٌ للذي يُحدِّثُ بالحديث لِيُضحِكَ به القوم فَيُكذِّبُ ويلٌ له ، ويلٌ له». [رواه أبو داود والترمذي وغيرهما]

ـ وعن أبي أمامة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «أنا زعيمٌ ببيتٍ في وسط الجنّة لمن تركَ الكذبَ ، وإن كان مازحاً».

[رواه البيهقي وأبو داود والترمذي]

٤ ـ الكذب في الرؤيا :

ـ عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «من كَذَبَ في حُلْم ، كُلف يومِ القيامة أن يعقدَ بين شعيرتين وليس بعاقد بينهما أبداً».

[رواه البخاري]

٥ ـ الكذب على الحيوانات :

[ذكر عن الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه ، أنه سمع بوجود حديث عند عالم في دمشق ، فسافر إليه من بغداد ، حتىٰ إذا وصل دمشق مَكَثَ مدة يسأل عن العَالِمْ ، وعن أخلاقه ومعاملته وكلامه . . . . . إلخ .

حتى إذا وثق من صدقه أتاه باكراً بعد أن اغتسل وتطَيَّب ولبس أحسن ثيابه ،

ولما اقترب من بيته وجد العالم خارجاً من بيته يجر حماره (وقد كان حمّالاً يكسب رزقه بعمله) فرفض الحمار أن يسير معه، فحاول أن يَجُرَّهُ أو يسوقه بمختلف الوسائل ويأبىٰ الحمار، فجمع له طَرَفَ جُبَّتِهِ، وقدمه للحمار ليوهمه أن في الجبّةِ شعيراً فتبعه الحمار. فأتىٰ الإمام أحمد إلى الجُبَّةِ، فوجدها خالية ليس فيها شعير فترك الإمام أحمد العالم وحديثه وعاد لبلده، إذِ اعْتبر أن هذا العالم غير صادق ولا مُؤتمنٍ على الحديث الشريف].

٦ ـ أشد الكذب هو الكذب على رسول الله ﷺ، وهو من الكبائر قال رسول الله ﷺ: «من كَذَبَ عَلَيَّ متعمِّداً فَلْيَتَبَوَّأ مقعده من النار». [متفق عليه]

ما رُخِّصَ من الكذب:

ـ الكذب حرام إلا لضرورة بيَّنها الشرع:

ـ قال ميمون بن مهران: الكذب في بعض المواطن خير من الصدق، أرأيت لو أن رجلاً سعى خلف إنسان بالسيف ليقتله فدخل داراً فانتهى إليك: فقال: أرأيت فلاناً؟ ما كنت قائلاً؟
ألست تقول: لم أره؟

وما تصدق به... وهذا الكذب واجب.

ـ والذي يدل على الاستثناء ما روي عن أم كلثوم قالت: ما سمعت رسول الله ﷺ يرخِّص في شيء من الكذب إلا في ثلاث: [الرجل يقول القول يريد به الإصلاح، والرجل يقول القول في الحرب، والرجل يُحدِّث امرأته والمرأة تحدِّثُ زوجها]. [رواه مسلم]

وعن أم كلثوم قالت: قال رسول الله ﷺ: «ليس بكذاب من أصلح بين اثنين فقال خيراً أو أنمى خيراً». [متفق عليه]

ـ وقالت أسماء بنت يزيد: قال رسول الله ﷺ: «كل الكذب يكتب على ابن آدم، إلا رجل كذب بين مسلمين ليصلح بينهما». [رواه أحمد]

* * *

العبرة والتطبيق:

أيها الناشئة [المؤمن والمؤمنة]:

- مما سبق ذكره عن الكذب يجدر بك أن تعتبر وتطبق ما يلي:

أولاً - استغفر الله عز وجل، وتُبْ إليه مما بدر منك من كذب في الأيام الماضية.

ثانياً - خُذ عهداً على نفسك أمام الله أن لا تعود إلى الكذب أبداً، مهما كانت الظروف والمناسبات.

ثالثاً - إذا غفلت وكذبت سهواً، بادر إلى الاستغفار أمام الجميع، واذكر سبب استغفارك أمامهم، حتى يستفيدوا من هذا الأسلوب في الكلام، ثم تب إلى الله مما بدر منك من كذب أثناء غفلتك وسهوك، واعقد العزم أن لا تعود لمثلها أبداً.

رابعاً - لا تكذب على أحد حتى ولو كان صغيراً أو حيواناً.

خامساً - إياك والكذب حتى ولو كنت مازحاً.

سادساً - لا تجالس الكذّابين ولا تستمع إليهم.

سابعاً - انصح مَنْ حولك بقول الصدق وهجر الكذب.

ثامناً - احفظ أحاديث رسول الله ﷺ التي مرّت معك في هذا الموضوع، وحدثّها لمن تستطيع من حولك، عسىٰ أن ينتفع بها من يستمع إليك فتنال ثواب ذلك.

* * *

الآفة الثانية:

[الغـيـبـة]

ـ هذه الآفة من أقبح القبائح ، وأكثرها انتشاراً بين الناس ، حتى إنه لا يسلم منها إلا القليل من الناس ، ممن رحمهم الله سبحانه وتعالى .

معـنـى الـغـيـبة :

ـ الغيبة هي ذكرك الإنسان بما فيه مما يكرهه ، سواء في بدنه كقولك قصير ، أو في دينه كقولك متساهل في النجاسات ، أو دنياه كقولك كثير الكلام ، أو نفسه أو خَلقِهِ أو خُلُقه ، أو ماله ، أو ولده أو والده كقولك ابنه أو أبوه فاسق ، أو زوجه أو خادمه أو مملوكه أو غير ذلك مما يتعلق به ، سواء ذكرته بلفظك أو كتابتك ، أو رمزت أو أشرت إليه بعينك ، أو يدك أو رأسك ، أو نحو ذلك .

ـ وكل ما أفهمت به غيرك نقصان مسلم ، فهو غيبة محرمة ، ومن ذلك المحاكاة ، بأن تمشي متعارجاً أومطأطئاً أو على غير ذلك من الهيئات ، مريداً حكاية هيئة من تنقصه بذلك .

ـ والرسول ﷺ يسأل أصحابه رضي الله عنهم عن الغيبة فيقول: «أتدرون ما الغيبة»؟ .

قالوا : الله ورسولُهُ أعلم ، قال : ذِكْرُكَ أخاك بما يكْرَهُ .

قيل : أفرأيت إن كان في أخي ما أقول .

قال : «إنْ كان فيه ما تقولُ فقد اغتبته، وإنْ لم يكُنْ فيه ما تقول فقد بَهَتَّهُ» . (رواه مسلم وأبو داود والنسائي والترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه)

ـ وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قلت للنبي ﷺ: «حسبك من صَفيَّة كذاوكذا .

قال بعض الرواة: تعني قصيرة...

فقال رسول الله ﷺ: «لَقَدْ قُلْتِ كَلِمَةً لو مُزِجَتْ بماء البَحْر لَمَزَجَتْهُ».

أي: خالطته مخالطةً يتغير بها طعمه أو ريحه لشدة نتنها وقبحها.

[رواه أبو داود والترمذي]

غيبة القلوب:

غيبة القلوب هي سوءُ الظَنِّ بالآخرين، وهي حرام مثل القول، فكما يحرم أن تحدِّث غيرك بمساوىء إنسان، يحرم أن تُحدِّث نفسك بذلك، وتسيء الظن به.

قال الله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ﴾.

[الحجرات: ١٢]

- عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «إيَّاكُم والظَّنَّ، فإنَّ الظَّنَّ أكْذَبُ الحديث». [رواه البخاري ومسلم وغيرهما]

أي: ظن السوء المنهى عنه.

- والمراد بذلك عَقْدُ القلب وحكمه على غيرك بالسوء.

- أما الخواطر، وحديث النفس، إذا لم يستقر ويستمر عليه صاحبه، فمعفو عنه باتفاق العلماء.

- وهذا المراد بالحديث الشريف عن رسول الله ﷺ: «إنَّ اللهَ تعالى تجاوز لأمتي ما حَدَّثَتْ به أنْفُسَهَا، ما لم يَعْمَلُوا به أو يتكلموا».

[رواه البخاري ومسلم وغيره]

حكمها:

- الغيبة محرمة، والمغتاب عاصٍ لربه، وآكل لحم أخيه.

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ ﴾.

[الحجرات: ١٢]

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لما عُرِجَ بي، مَرَرْتُ بِقَوْمٍ لهم أَظْفارٌ من نُحاسٍ يَخمِشُون وجُوهَهُم وَصُدُورَهُم، فَقُلْتُ: مَنْ هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذينَ يأكلون لُحُومَ النَّاسِ، ويقعُون في أعْرَاضِهم».
[رواه أبو داود]

- والغِيبَة تتناول العِرْض، وقد جمع رسول الله ﷺ بينه وبين المال والدم.

- فقد روي عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ: «كلُّ المسلم على المسلم حرام دَمُهُ وماله وعرضُه». [أخرجه مسلم]

- وفي الأثر أوحى الله إلى موسى عليه السلام: من مات تائباً من الغيبة فهو آخر من يدخل الجنة، ومن مات مُصِرّاً عليها، فهو أول من يدخل النار.

سماع الغيبة:

قال الإمام النووي رحمه الله تعالى:

- [اعلم أن الغيبة كما يحرم على المغتاب ذكرُها، يحرم على السامع استماعها وإقرارها].

- فيجب على من سمع إنساناً يبتدىء بغيبة محرَّمة:

أن ينهاه إن لم يخف ضرراً ظاهراً، فإن خافه وجب عليه الإنكار بقلبه، ومفارقة ذلك المجلس إن تمكَّن من مفارقته، فإن قدر على الإنكار بلسانه، أو على قطع الغيبة بكلام آخر، لزمه ذلك، فإن لم يفعل عصى.

- فإن قال بلسانه: اسكت، وهو يشتهي بقلبه استمراره، قال أبو حامد الغزالي رحمه الله تعالى: ذلك نفاق، لا يخرجه عن الإثم، ولا بُدَّ من كراهته بقلبه.

- ومتى اضطرَّ إلى المُقام في ذلك المجلس الذي فيه الغيبة، وعجز عن الإنكار، أو أنكر فلم يقبل منه، ولم يمكنه المفارقة بطريق من الطرق حَرُمَ عليه الاستماع والإصغاء للغيبة.

بل طريقُهُ أن يذكر الله تعالى بلسانه وقلبه، أو بقلبه، أو يفكر في أمر آخر

ليشغل عن استماعها، ولا يضرّه بعد ذلك السماع من غير استماع وإصغاء، فإن تمكّن بعد ذلك من المفارقة وهم مستمرون في الغيبة ونحوها، وجب عليه المفارقة.

ـ قال تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾. [الأنعام: ٦٨]

ـ دُعِيَ السيد الجليل إبراهيم بن أدهم رضي الله عنه إلى وليمة فحضر، فذكروا رجلاً لم يأتهم، فقالوا: إنه ثقيل، فقال إبراهيم: [أنا فعلت هذا بنفسي حيث حضرتُ موضعاً يُغتاب فيه الناس، فخرج ولم يأكل ثلاثة أيام]. رضي الله عنه.

ـ ورحم الله الشاعر القائل:

وَسَمْعَكَ صُنْ عن سَمَاع القبيح ... كَصَونِ اللسان عن النُّطْقِ بِهْ
فإنَّكَ عند سَمَاعِ القَبيح ... شَريكٌ لقائِلِهِ فانْتَبِهْ

ماهي الأسباب الباعثة على الغيبة؟

ـ جاء في كتاب إحياء علوم الدين للإمام الغزالي رحمه الله تعالى، الأسباب الباعثة على الغيبة:

أولاً ـ أن يشفي الغيظ، وذلك إذا جرى سبب غضب به عليه، فإنه إذا هاج غضبه يشتفي بذكر مساويه.

فيسبق اللسان إليه بالطبع إن لم يكن ثَمَّ دين وازع، وقد يمتنع تشفي الغيظ عند الغضب، فيحتقنُ الغضب في الباطن فيصير حقداً ثابتاً، فيكون سبباً دائماً لذكر المساوىء.

فالحقد والغضب من البواعث العظيمة على الغيبة.

ثانياً ـ موافقة الأقران، ومجاملة الرفقاء، ومساعدتهم على الكلام.

ثالثاً ـ أن ينسب إليه شيء، فيريد أن يتبرأ منه فيذكر الذي فعله، وكان من حقه أن يبرىء نفسه، ولا يذكر الذي فعل، فلا ينسب غيره إليه، أو يذكر غيره بأنه كان مشاركاً له في الفعل ليمهد بذلك عذر نفسه في فِعْلِه.

رابعاً ـ إرادة التصنع والمباهاة ، وهو أن يرفع نفسه بتنقيص غيره فيقول فلان جاهل وفهمه ركيك ، وكلامه ضعيف ، وغرضه في الحقيقة أن يثبت لمخاطبيه فضل نفسه وأنه الأعلم أو أنه يريد ألا يُعظَّم كتعظيمه فيقدح فيه لذلك . . .

خامساً ـ الحسد وهو أنه ربَّما يحسد من يثني الناس عليه ويحبونه ويكرمونه فيريد زوال تلك النعمة عنه ، فلا يجد سبيلاً إليه إلا بالقدح فيه .

سادساً ـ اللعب والهزل والمطايبة وتَزْجيةُ الوقت بالضحك ، فيذكر عيوب غيره بما يضحك الناس على سبيل المحاكاة ومنشؤه التكبر والعجب .

سابعاً ـ السخرية والاستهزاء استحقاراً له ، فإن ذلك قد يجري في الحضور ، ويجري أيضاً في الغيبة ومنشؤه التكبر واستصغار المستهزأ به .

ـ قال أحدهم : كنت عند إياس بن معاوية ، فاغتبت إنساناً فقال إياس : هل غزوت هذا العام الترك والروم؟ فقلت لا ، فقال : سَلِمَ منك الترك والروم ، ولم يسلم منك أخوك المسلم .

ـ ما يُبَاح من الغيبة :

ـ قال الإمام النووي رحمه الله تعالى :

اعلم أن الغيبة وإن كانت محرَّمة ، فإنها تباح في أحوال للمصلحة ، والمُجَوِّزُ لها غرض صحيحٌ شرعي لا يمكن الوصول إليه إلا بها ، وهو أحد ستة أسباب :

الأول : التظلم ، فيجوز للمظلوم أن يتظلَّم إلى السلطان والقاضي وغيرهما ممَّن له ولاية ، أو له قدرة على إنصافه من ظالمه ، فيذكر أن فلاناً ظلمني ، وفعل بي كذا ، وأخذ لي كذا ، ونحو ذلك .

قال تعالى : ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ . [النساء ١٤٨]

الثاني : الاستعانة على تغيير المنكر ، وردُّ العاصي إلى الصواب ، فيقول

لمن يرجو قدرته على إزالة المنكر: فلان يعمل كذا فازجره عنه ، ونحو ذلك ، ويكون مقصوده: التوصل إلى إزالة المنكر ، فإن لم يقصد ذلك كان حراماً.

الثالث: الاستفتاء ، بأن يقول للمفتي:

ظلمني أبي أو أخي ، أو فلان بكذا ، فهل له ذلك ، أم لا؟ وماطريقي في الخلاص منه وتحصيل حقي ودفع الظلم عني؟ ونحو ذلك.

الرابع: تحذير المسلمين من الشرّ ونصيحتهم ، وذلك من وجوه منها:

- جرح المجروحين من الرواة للحديث ، والشهود ، وذلك جائز بإجماع المسلمين ، بل واجب للحاجة.

- ومنها: إذا استشارك إنسان في مصاهرته أو مشاركته ، أو إيداعه ، أو الإيداع عنده ، أو معاملته بغير ذلك ، وجب عليك أن تذكُر له ما تعْلَمُهُ عنه على جهة النصيحة ، فإن حصل الغرض بمجرد قولك: لا تصلح لك معاملته ، أو مصاهرته ، أو لا تفعل هذا ، أو نحو ذلك ، لَم تَجُزْ لك الزيادة بذكر المساوىء ، وإن لم يحصل الغرض إلا بالتصريح بعينهِ فاذكره بصريحه.

- ومنها إذا رأيت متفقهاً يتردد إلى مبتدع أو فاسق يأخذ عنه العلم ، وخفت أن يتضرر المُتَفَقِّهُ بذلك ، فعليك نصيحته ببيان حاله ، ويشترط أن يقصد النصيحة.

الخامس: أن يكون مجاهراً بفسقه أو بدعته ، فالمجاهر بشرب الخمر ومصادرة أموال الناس ، يجوز ذكره بما يجاهر به ويحرم ذكره بغيره من العيوب.

السادس: التعريف ، فإن كان معروفاً بلقب كالأعمش والأعرج والأصمّ والأعمىٰ وغيرهم ، جاز تعريفه بذلك بنية التعريف ، ويحرم إطلاقه على جهة التنَقُّص ، ولو أمكن التعريف بغيره كان أولى.

عـلاج الـغيـبة :

قال الإمام النووي رحمه الله تعالى :

ـ اعلم أن هذا الباب له أدلة كثيرة في الكتاب والسنة ، ولكني أقتصر منه على الإشارة إلى أحرف ، فمن كان موفقاً انزجر بها ، ومن لم يكن كذلك فلا ينزجر بمجلدات .

ـ وعمدة الباب :

أن يعرض نفسه على ما ذكرناه من النصوص في تحريم الغيبة ، ثم يفكر في قول الله تعالى : ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ . [ق : ١٨]

وقوله تعالى : ﴿ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴾ . [النور : ١٥]

ـ ثم يفكر في قول الرسول ﷺ ـ «إنَّ أحَدَكُمْ ليتكلَّمُ بالكَلِمةِ من سَخَطِ الله تعالى ما يُلقي لها بالاً يهوي بها في جهنَّم» . [رواه مالك والترمذي وغيرهما]

ـ وقال الإمام الغزالي رحمه الله في علاجها : [هو أن يعلم تعرضه لسخط الله تعالى بغيبته بهذه الأخبار التي رويناها ، وأن يعلم أنها محبطة لحسناته يوم القيامة ، فإنها تنقل حسناته يوم القيامة إلى من اغتابه بدلاً عمَّا استباحه من عرضه ، فإن لم تكن له حسنات نقل إليه من سيئات خصمه] .

ـ وهو مع ذلك متعرض لمقت الله عز وجل ، ومشبَّه عنده بآكل الميتة .

ـ بل العبد يدخل النار بأن ترجح كفة سيئاته على كفة حسناته ، وربما تنتقل إليه سيئة واحدة ممن اغتابه ، فيحصل بها الرجحان ويدخل بها النار .

وإنما أقلّ الدرجات أن تنقص من ثواب أعماله، وذلك بعد المخاصمة والمطالبة والسؤال والجواب والحساب . . . وعن الحسن البصري رحمه الله تعالى : أن رجلاً قال له : [إنك تغتابني ، فقال : مابلغ قَدْرُك عندي أن أُحَكِّمك في حسناتي] .

ـ وروي عنه أيضاً رحمه الله تعالى : أن رجلاً قال له : إن فلاناً قد اغتابك ،

فبعث إليه رُطباً على طبق ، وقال: [قد بلغني أنك أهديت إليَّ من حسناتك ، فأردت أن أكافئك عليها . فاعذرني فإني لا أقدر أن أكافئك على التمام] .

ـ وكان الإمام عبد الله بن المبارك رحمه الله تعالى يقول: [لو كنت مغتاباً أحداً لاغتبت والديَّ ، لأنهما أحق بحسناتي] .

كـفّـارة الغيبـة :

ـ قال الإمام أبو حامد الغزالي رحمه الله تعالى :

[اعلم أن الواجب على المغتاب أن يندم ويتوب ويتأسف على ما فعله ، ليخرج من حق الله سبحانه ، ثم يَسْتَحِلَّ المغتاب ليحله فيخرج من مظلمته وينبغي أن يستحله وهو :

حزين ، متأسف ، نادم على ما فعله ، إذ المرء قد يستحل ليُظهر من نفسه الورع ، وفي الباطن لا يكون نادماً ، فيكون قد قارف معصية أخرى] .

ـ قال الحسن البصري رحمه الله تعالى : يكفيه الاستغفار دون الاستحلال .

ـ وربما استدل في ذلك بما روي عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كفارة من اغْتبْتَهُ أن تستغفر لَهُ» . (أخرجه ابن أبي الدنيا) .

ـ قال مجاهد رحمه الله تعالى: كفَّارَةُ أكلك لحم أخيك ، أن تُثنِيَ عليه ، وتدعو له بخير .

وسُئل عطاء بن أبي رباح رضي الله عنه عن التوبة من الغيبة؟ فقال: [أن تمشي إلى صاحبك فتقول له: كذبتُ فيما قلت ، وظلمتُك وأَسَأْتُ ، فإن أخذت بحقك وإن شئت عفوت] .

ـ وهذا هو الأصح ، فقد ورد في الحديث الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه أنه ﷺ قال: «من كانتْ لأخيه عندهُ مَظْلَمَةٌ ، في عِرْضٍ أَوْ مَالٍ ، فَلْيَسْتَحْلِلْهَا منه من قبل أن يأتي يومٌ ليس هُنَاكَ دينارٌ ولا دِرْهَمَ ، إنما يُؤْخَذُ مِنْ حَسَنَاتِهِ ، فإن لم يكن لَهُ حَسَنَاتٌ أُخِذَ من سيئاتِ صاحبه فَزِيْدَتْ على سيئاتِهِ» .

[متفق عليه]

التوبة من الغيبة:

قال الإمام النووي رحمه الله تعالى:

اعلم أن كل من ارتكب معصية، لزمه المبادرة إلى التوبة منها، والتوبة من حقوق الله تعالى يشترط فيها ثلاثة أشياء:

١ ـ أن يُقلع عن المعصية في الحال.

٢ ـ وأن يندم على فعلها.

٣ ـ وأن يعزم ألا يعود إليها.

ـ والتوبة من حقوق الآدميين يشترط فيها هذه الثلاثة، ورابع وهو:

ردُّ الظُّلامة إلى صاحبها، أو طلبُ عفوه عنها والإبراء منها، فيجب على المغتاب التوبة بهذه الأمور الأربعة، لأن الغيبة حَقٌّ للآدمي، ولابد من استحلاله ممن اغتابه.

ولكي تتم توبة المغتاب، يستحل ممن اغتابه فيقول له: قد اغتبتك بكذا وأُرِيْدُ التوبة فاجعلني في حلٍّ.

المسلم يحبُّ العفو:

ـ ويستحب لصاحب الغيبة أن يبرئه منها، ولا يجب عليه ذلك، لأنه تبرُّعٌ وإسقاط حق، فكان إلى خيرته.

ـ ويستحب له استحباباً مؤكّداً: الإبراء، ليخلِّص أخاه المسلم من وبال هذه المعصية، ويفوز هو بعظيم ثواب الله تعالى في العفو ومحبة الله سبحانه وتعالى.

قال الله تعالى: ﴿وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾. [آل عمران ١٣٤]

ـ وطريقه في تطييب نفسه بالعفو: أن يذكِّرَ نفسه أن هذا الأمر قد وقع، ولا سبيل إلى رفعه، فلا ينبغي أن أُفوِّت ثوابه، وأخلِّص أخي المسلم.

قال الله تعالى: ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾. [الشورى ٤٣]

ـ وأما في السنة النبوية المطهرة:

فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «والله في عون العبد ما كان العبدُ في عون أخيه». [رواه مسلم]

فعفو المؤمن عن أخيه الذي استغابه، عون له على مغفرة الله له، وعندها يكون الله عوناً لمن عفا.

ـ وقال الإمام الشافعي رضي الله عنه: [من استُرضيَ فلم يرضَ فهو شيطان].

ـ ويرحم الله الذي أنشد:

قيل لي: قد أساءَ إليكَ فلانٌ ومقامُ الفتى على الذُّلِّ عارٌ

قلت: قد جاءَنا وأحدث عُذْراً ديةُ الذنب عندنا الاعتذارُ

قال الله تعالى: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾.

[الأعراف: ١٩٩]

ـ فقال النبي ﷺ: «يا جبريل، ما هذا العَفْوُ؟ فقال: إن الله تعالى يأمرُك: أن تعفوَ عمَّن ظلمك، وتَصل من قطعكَ، وتُعْطي من حَرَمَك».

[أخرجه ابن مردويه... من حديث جابر وقيس بن سعد وأنس رضي الله عنهم بأسانيد حسان]

* * *

العبرة والتطبيق:

أيها الناشئة [المؤمن والمؤمنة]:

ـ مما سبق ذكره في موضوع الغيبة ، عليك أن تَعْتَبر وتُطَبِّقَ ما يلي :

١ ـ أن تسرع للتوبة مما بدر منك من غيبة للآخرين فيما سبق ، وتستغفر الله كثيراً ، وتدعو لمن اغتبته ، عسى أن يغفر الله لك .

٢ ـ أن تأخذ العهد على نفسك أمام الله أن لا تغتاب بعد اليوم أحداً .

٣ ـ إذا اضطررت للحديث فيما يباح من الغيبة ، تحدثت بالشكل المطلوب وبالنية المقصودة دون زيادة ، حتى لا تقع في الغيبة المحرمة .

٤ ـ تجنب الجلوس في مكان فيه غيبة ، واعمل بما ورد في ذلك .

٥ ـ إذا بادرت في استغابة أحد ، فأسرع في إيقاف القول بالغيبة ، واستغفر الله أمام الجميع ، واذكر سبب استغفارك ، ثم اعتذر ممن اغتبته ، وتب إلى الله معاهداً أن لا تعود لمثلها .

٦ ـ التزام العزلة عن مجالس الناس العامة بقدر المستطاع ، فأكثرها غيبة والعياذ بالله .

٧ ـ انتبه لإخوتك الصغار ، ولا تدعهم يغتابون أحداً ، وبيِّن لهم سوء الغيبة وحكمها .

٨ ـ انصح الآخرين دائماً عندما يريدون الخوض في غيبة أحد من الناس ، وادْعُهم إلى الابتعاد عن ذلك ، مبيناً لهم الأثر السيِّئ للغيبة .

* * *

الآفة الثالثة:

[النميمة]

تعريف النميمة:

قال الإمام النووي في تعريفها:

هي نقل كلام الناس بعضهم إلى بعض على جهة الإفساد.

- قال الإمام أبو حامد الغزالي رحمه الله تعالى: اعلم أن اسم النميمة إنما يطلق في الأكثر على من ينم قول الغير إلى المقول فيه.

- وحقيقة النميمة: إفشاء السر، وهتك الستر عما يُكره كشفه، بل كل ما رآه الإنسان من أحوال الناس مما يكره، فينبغي أن يسكت عنه إلا ما في حكايته فائدة لمسلم أو دفع لمعصية، كما إذا رأى من يتناول مال غيره، فعليه أن يشهد به، مراعاة لحق المشهود له.

فأما إذا رآه يخفي مالاً لنفسه، فذكره فهو نميمة وإفشاء للسر، فإن كان ما ينم به نقصاً وعيباً في المحكي عنه، كان قد جمع بين الغيبة والنميمة.

حكمها:

محرمة بإجماع علماء المسلمين، وقد تظاهر على تحريمها الدلائل الصريحة من الكتاب والسنة وإجماع الأمة.

قال الله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾. [الهمزة ١]

وقال أيضاً: ﴿هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ﴾. [القلم: ١١]

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ مر بقبرين فقال: «إنَّهما يُعَذَّبان وما يعذَّبان في كبير».

وفي رواية البخاري قال: «بلى إنَّهُ كبير».

أما أحدُهما فكان يمشي بالنميمة ، وأما الآخرُ فكان لا يستترُ من بولهِ».

[رواه البخاري ومسلم]

قال العلماء: معنى «وما يعذبان في كبير».

أي في كبير في زعمهما ، أو كبير تركه عليهما.

وعن حذيفة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لا يدخُلُ الجنة نمّامٌ». [رواه البخاري ومسلم]

آثارها السيئة:

- النميمة تهتك الأستار ، وتفشي الأسرار ، وتورث الضغائن ، وترفع المودة ، وتجدد العداوة ، وتبدد الجماعة ، وتُهَيِّجُ الحقد ، وتزيد الصَّد.

- وعلى المؤمن أن لا يستصغر أمر النميمة ، فإنها قد خربت بيوتاً كانت عامرة.

قال حماد بن سلمة رحمه الله تعالى: «ابتاع رجل من رجل غلاماً له ، وقال: أبرأ إليك من النميمة ، فاشتراه على ذلك.

فجاء إلى مولاته فقال: إن زوجك ليس يُحبُك وهو يتسرَّىٰ عليك ويتزوج ، أفتريدين أن يعطف عليك؟ فقالت: نعم قال: خذي موسىً فاحلقي به شعرات من باطن لحيته وبخريه بها.

وجاء إلى الرجل فقال: إن امرأتك تبغي وتصادق ، وهي قاتلتك ، أفتريد أن يبين لك ذلك؟

قال: نعم ، قال: تناوم لها.

فجاءت بموسً تحلق الشعر ، فظن أنها تريد قتله فأخذها فقتلها ، فأخذه أولياؤها فقتلوه ، ووقع القتال بين القبيلتين».

هذه من آثار النميمة. وكم يحدث مثل هذه القصة في حياتنا ، فيوقع النمام بين الأحبة ، ويحدث بينهم الخصومة والخلافات ، والضرب وأحياناً القتل والأمثلة على ذلك كثيرة:

ـ أوصتْ أعرابية ابناً لها فقالت:

عليك بحفظ السر، وإياك والنميمة، فإنها لا تترك مودة إلا أفسدتها ولا ضغينة إلا أوقدتها.

ماذا يفعل مَنْ وُشِيَ إليه عن أخيه؟

الواجب عليه معاتبته على الهفوة إن كانت، وقبول العذر إذا اعتذر، وترك الإكثار من العتب مع توطين النفس على الشكر عند الحفاظ، وعلى الصبر عند الضياع وعلى المعاتبة عند الإساءة. أنشد منصور بن محمد الكريزي:

كافِ الخليلَ على المودةِ مثلها ... وإذا أساء فكافهِ بعتابهِ
وإذاعتبت على امرئٍ أحببته ... فَتَوَقَّ ظاهِرَ عيبه وسبابه
وَأَلِنْ جناحَكَ ما استلان لِوُدِّه ... وأَجِب أخَاكَ إذا دَعَا بجوابِهِ

سعى رجل بالليث بن سعد رضي الله عنه ـ إلى والي مصر، فبعث إليه فدعاه، فلما دخل عليه قال له: يا أبا الحارث!

إن هذا أبلغني عنك كذا وكذا! فقال له الليث: سله ـ أصلح الله الأمير عما أبلغك، أهو شيء ائتمناه عليه، فخاننا فيه، فما ينبغي لك أن تقبل من خائن، أوشيء كذب علينا فيه، فما ينبغي لك أن تقبل من كاذب؟!

فقال الوالي: صدقت يا أبا الحارث.

ماذا يفعل من حملت إليه نميمة؟

قال الإمام الغزالي في الإحياء:

ـ كل من حملت إليه النميمة وقيل له إن فلاناً قال فيك كذا وكذا أو فعل في حقك كذا أو هو يدبر في إفساد أمرك أو في ممالاة عدوك أو تقبيحَ حالك أو ما يجري مجراه فعليه ستة أمور:

الأول: أن لا يصدقه لأن النمام فاسق وهو مردود الشهادة.

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ﴾. [الحجرات: ٦]

الثاني: أن ينهاه عن ذلك وينصح له ويقبح عليه فعله.

قال الله تعالى: ﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾. [لقمان: ١٧]

الثالث: أن يبغضه في الله تعالى، فإنه بغيض عند الله تعالى، ويجب بغض من يبغضه الله تعالى.

الرابع: أن لا تظن بأخيك الغائب السوء.

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾.

[الحجرات: ١٢]

الخامس: أن لا يحملك ما حكى لك على التجسس والبحث للتحقق، اتباعاً لقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾. [الحجرات: ١٢]

السادس: أن لا ترضى لنفسك ما نهيت النمام عنه، ولا تحكي نميمته، فتقول فلان قد حكى لي كذا وكذا فتكون به نماماً ومغتاباً وتكون قد أتيت ما عنه نهيت.

روي عن عمر بن العزيز رضي الله عنه أنه دخل عليه رجل فذكر له عن رجل شيئاً، فقال له عمر: إن شئت نظرنا في أمرك، فإن كنت كاذباً فأنت من أهل هذه الآية: ﴿إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾.

وإن كنت صادقاً فأنت من أهل هذه الآية: ﴿هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ﴾.

وإن شئت عفونا عنك؟

فقال: العفو يا أمير المؤمنين لا أعود إليه أبداً.

ـ وذكر أن حكيماً من الحكماء زاره بعض إخوانه فأخبره بخبر عن بعض أصدقائه، فقال له الحكيم:

قد أبطأت في الزيارة، وأتيت بثلاث جنايات، بغضت أخي إلي، وشغلت قلبي الفارغ، واتهمت نفسك الأمينة.

ـ روي أن سليمان بن عبد الملك كان جالساً وعنده الزهري، فجاءه رجل

فقال له سليمان: بلغني أنك وقعت فيَّ وقلت كذا وكذا ، فقال الرجل: ما فعلت ولا قلت.

فقال سليمان: إن الذي أخبرني صادق.

فقال له الزهري: لا يكون النمام صادقاً.

فقال سليمان: صدقت ، ثم قال للرجل: اذهب بسلام.

ـ روي عن سيدنا علي رضي الله عنه أن رجلاً سعى إليه برجل فقال له: يا هذا نحن نسأل عما قلت فإن كنت صادقاً مَقتْنَاك ، وإن كنت كاذباً عاقبناك ، وإن شئت أن نقيلك أقلناك ، فقال: أقلني يا أمير المؤمنين.

* * *

العبـرة والتطبيـق:

أيها الناشئة [المؤمن والمؤمنة]:

مما مر معك سابقاً في بحث النميمة عليك أن تأخذ العبرة وتعمل على تطبيق مايلي:

١ - استغفر الله ، وتب عما بدر منك سابقاًمن النميمة.

٢ - خذ العهد على نفسك أمام الله أن لا تعود لمثلها وأنك لن تُنِمَّ على أحد بعد الآن أبداً.

٣ - إذا بدر منك موقف تنم فيه على أحد ، فاقطع النميمة مباشرة ، واستغفر الله ، وأظهر سبب استغفارك ، ولا تعد لمثلها أبداً.

٤ - لا تجالس النمامين ، ولا تسمح لأحد أن ينم أمامك على أحد ، وأوقف حديث من أراد أن يتكلم على أناس تكلموا عليك.

٥ - انصح النمّامين وبين لهم خطورة أعمالهم ومآل نميمتهم وبغض الله لهم.

٦ - عاتب بلطف من بلَّغك أنه تحدث عنك ، وسامحه واعفُ عنه ، وإن اعتذر لك فاقبل عذره ولا تجعل بقلبك حقداً على أحد.

٧ - راقب إخوتك الصغار ولا تسمح لهم باستعمال هذا الأسلوب في النميمة ، وبيّن لهم خطر ذلك وعقوبة الله لهم.

٨ - قمْ بنصح من تستطيع بالابتعاد عن هذا الخلق السيء ، مبيناً لهم خطره وعقوبته.

* * *

الآفة الرابعة:

[فضول الكلام]

معناه:

المقصود بفضول الكلام: الخوض فيما لا يعني، والزيادة فيما يعني على قدرِ الحاجة.

حكمه:

فضول الكلام بنوعيه مذموم ويحاسب عليه الإنسان.

قال تعالى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ۝١٧ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾. [ق: ١٧ ـ ١٨]

وقال سبحانه يتحدث عن صفات المؤمنين: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾. [المؤمنون: ٣]

وقال أيضاً: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ﴾. [القصص: ٥٥]

وقال سبحانه وتعالى: ﴿۞ لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾. [النساء: ١١٤]

وقال ابن مسعود: أُنْذِرُكم فضول كلامكم، حَسْبُ امرىء من الكلام ما بلغ به حاجته.

حقيقة الكلام:

الكلام هو واسطة التعارف بين الناس والتعاون معهم، فلا يستغني المرء عن محادثة غيره في شؤون الحياة ونَظْم الأعمال، ولما كان الكلام هو عنوان درجة الإنسان، ودليل جوهر نفسه بين النفوس، وجب أن يكون صحيحاً مختاراً ذا فائدة، صادراً عن عقل وروية وصدق وحسن طوية، بعيداً عن البطلان والسخرية، قليلاً على قدر الكفاية فإن الكلام الكثير ينسي بعضه

بعضاً ، وتكراره يدعو إلى السآمة والملل . وقلما سلم مكثر من لغو وهذر .

قال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ . [الأحزاب ٧٠ ـ ٧١]

وقال تعالى : ﴿ وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ .

[الحج : ٢٤]

وقال رسول الله ﷺ : «رحم الله عبداً قال خيراً فغنم ، أو سكت فسلم» .

[رواه البيهقي عن أنس وعن الحسن مرسلاً]

والكلام هو أيسر الأعمال وأكثرها أهمية ، فكم من كلمة أتت بخير لا يقدر نفعه ، وكم من كلمة أزالت نعمة عظيمٌ شأنها ، فقد قال رسول الله ﷺ : «إنَّ الرجلَ ليتكلمُ بالكلمةِ من الخير ما يعلمُ مبلغها ، يكتبُ اللهُ له بها رضوانَهُ إلى يومِ يلقاه ، وإنَّ الرجلَ ليتكلمُ بالكلمةِ من الشَّر ما يعلمُ مبلغَها ، يَكْتُبُ اللهُ عليه بها سخَطَهُ إلى يوم يلقاه» . [رواه الترمذي]

فاللسان سلاح جارح ، يجب ألا يستعمل إلا حين لزومه والعاقل لا يتكلم إلا بعد أن يفكر ، والجاهل لا يفكر إلا بعد أن يتكلم ، هذا إن فكر ، لذا قال ﷺ : «من كان يؤمنُ باللهِ واليومِ الآخرِ فليقلْ خيراً أو ليَصْمُتْ» .

[رواه البخاري]

عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : قلت يا رسول الله : أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني عن النار ، قال : «لقد سألْتَ عَنْ عَظِيمٍ وإنَّهُ ليَسيرٌ على من يَسَّرَهُ اللهُ عَلَيْهِ ، تعبدُ اللهَ ولا تشركُ بهِ شيئاً ، وتقيمُ الصَّلاة ، وتُؤتِي الزكاةَ ، وتصومُ رمضانَ ، وتحجُّ البيتَ ، ثمَّ قال : ألا أدلُّك على أبواب الخير؟ قلتُ بَلَى يا رسولَ اللهِ . قالَ : الصَّومُ جُنَّةٌ ، والصدقةُ تطفىءُ الخطيئة كما يطفىءُ الماءُ النارَ ، وصلاةُ الرجُلِ في جوفِ الليل شعارُ الصالِحِين .

ثم تلا قوله :

﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ . [السجدة : ١٦ ـ ١٧]

ثم قال: ألا أخبِرُكَ برأسِ الأمرِ، وعمودِهِ، وذروة سنامِهِ، قلتُ: بلى يا رسولَ الله. قالَ: رأسُ الأمر الإسلامُ، وعمودُهُ الصَّلاةُ، وذِرْوَةُ سُنامِهِ الجهادُ، ثم قالَ: ألا أخبرك بملاكِ ذلكَ كلِّهِ، قلتُ بلى يا رسولَ اللهِ. قالَ: كُفَّ عليكَ هَذَا! وأشارَ إلى لسانِهِ. قلتُ يا نبيَّ اللهِ، وإنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بما نتكلَّمُ بِهِ؟

قال: ثكلَتْكَ أُمكَ، وهَلْ يَكُبُّ الناس في النَّارِ على وجوهِهِم أو قال: على مناخِرِهِم: إلا حصائِدُ ألسنَتِهِمْ. [رواه الترمذي وغيره]

أنواع الكلام

الكلام على أنواع:

١ - الكلام الواجب:

مثل الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وتبيان الحق، والدفاع عنه، والدعوة إلى الله، وإرشاد الضال، والتنبيه للخطر.

كما قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا﴾.

[الأحزاب: ٧٠]

٢ - الكلام النافع:

وهو ما يفيد الإنسان من علم، وعمل، وتعليم، وذكر الله وعبادته فكلما أكثر منه الإنسان ارتفعت منزلته عند ربه، وعند الناس، وكان له فيه أجر.

٣ - الكلام اللغو:

وهو الكلام الذي لا طائل تحته، وفيه إضاعة الوقت وقد كرهه سبحانه وتعالى للمؤمنين، لأن المؤمنين كما قال سبحانه: ﴿عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ﴾.

[المؤمنون: ٣]

وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغۡوَ أَعۡرَضُواْ عَنۡهُ﴾. [القصص: ٥٥]

٤ - الكلام الضار:

كالغيبة والنميمة والبهتان والإفك والكذب وشهادة الزور، وفحش الكلام

والخوض في الباطل ، والكلام في المعاصي ، كالحديث بالفحش ، والفكاهة بالرذيلة وغير ذلك ، ومنه النفاق وهو أن يتكلم المرء كلاماً يخفي ما هو ضده وخصوصاً في أمور الدين.

وهذا الكلام محرم ، ويأثم صاحبه ، ومنه كلمات الكفر بكلِّ أنواعها ، فهي ارتداد عن الدين تستدعي تجديد الإسلام ، وهي تحبط ما عمل قبلها من الصالحات.

فاللسان أفضل أداة لجلب الخير بأقل جهد وتعب ، وأسوأ أداة وأخطرها في جلب المصائب والمشاكل والمخاطر.

أهـميـة الـصمـت:

بعد الذي مر معنا من خطر فضول الكلام نعلم أنه يجب على العاقل أن يتعلم الصمت ، كما يتعلم الكلام.

قال رسول الله ﷺ: «الصمت حكمة ، وقليل فاعلهُ».

[رواه ابن حبان عن أنس]

وقال ﷺ أيضاً: «من صمت نجا».

[أخرجه الترمذي عن حديث عبد الله بن عمرو]

وروى عبد الله بن سفيان عن أبيه قال: قلت يا رسول الله أخبرني عن الإسلام بأمر لا أسأل عنه أحداً بعدك قال: «قل آمنت بالله ثم استقم».

قال: قلت فما أتقي؟ فأوما بيده إلى لسانه. [أخرجه الترمذي وصححه]

وقال عقبة بن عامر: قلتُ يا رسولَ الله ما النَّجاةُ؟

قال: «أمسكْ عَلَيْكَ لسَانَكْ ، ولْيَسَعْكَ بيتُكَ ، وابكِ على خطيئَتِكْ».

(أخرجه الترمذي وقال حديث حسن)

وعن سيدنا أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من كان يؤمن باللهِ واليوم الآخر فليقُلْ خيراً أو ليَسْكُت». [متفق عليه]

وقال ﷺ: «من سره أن يسلم فليلزم الصمت».

[أخرجه ابن أبي الدنيا والبيهقي من حديث أنس]

وروى الترمذي موقوفاً على عمار بن زيد قوله: «إذا أصبح ابن آدم أصبحت الأعضاء كلها تذكر اللسان أي تقول: اتقِ الله فينا فإنك إن استقمت استقمنا وإن اعوججت اعوججنا».

ـ روي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه رأى أبا بكر الصديق رضي الله عنه وهو يمد لسانه بيده فقال له: ما تصنع يا خليفة رسول الله؟ قال: هذا أوردني الموارد.

عن ابن مسعود أنه كان على الصفا يلبي ويقول: يا لسان، قل خيراً تغنم، واسكت عن شر تسلم، من قبل أن تندم. فقيل له يا أبا عبد الرحمن أهذا شيء تقوله أو شيء سمعته؟

فقال: لا بل سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أكثر خطايا ابن آدم في لسانه». [أخرجه الطبراني]

وقال الأوزاعي: كتب إلينا عمر بن عبد العزيز رحمه الله أما بعد: فإنَّ من أكثر ذكر الموت رضي من الدنيا باليسير، ومن عد كلامه من عمله، قلّ كلامه إلا فيما يعنيه.

وقيل لسيدنا عيسى عليه السلام:

دلنا على عمل ندخل به الجنة؟

قال: لا تنطقوا أبداً.

قالوا: لا نستطيع ذلك.

فقال: لا تنطقوا إلا بخير.

وقال سيدنا سليمان بن داود عليهما السلام: «إن كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب».

قال عبد الله بن مسعود: والله الذي لا إله إلا هو ما شيء أحوج من طول سجن من لسان.

ـ قال طاووس: لساني سَبُع إن أرسلتهُ أكلني.

ـ قال وَهْب بن منبه في حكمة آل داود: حق على العاقل أن يكون عارفاً بزمانه ، حافظاً للسانه ، مقبلاً على شأنه.

ـ قيل اجتمع أربعة من الحكماء:

فقال أحدهم: أنا أندم على ما قلت ولا أندم على ما لم أقل.

وقال الآخر: إني إذا تكلمت بكلمة ملكتني ولم أملكها وإذا لم أتكلم بها ملكتها ولم تملكني.

وقال الثالث: عجبت للمتكلم إن رجعت عليه كلمته ضرته ، وإن لم ترجع لم تنفعه.

وقال الرابع: أنا على رد ما لم أقل أقدر مني على رد ما قلت.

مما تقدم نجد أن على المؤمن أن يلتزم الصمت ما استطاع إليه سبيلاً ، إلا فيما مر معنا سابقاً ، وعليه أن لا يتكلم فيما لا يعنيه ، فقد ورد عن النبي ﷺ قوله: «من حسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه».

[أخرجه الترمذي من حديث أبي هريرة]

وفي حديث آخر: أن النبي ﷺ فقد كعباً بن عمرمة فسأل عنه فقالوا: مريض. فخرج يمشي حتى أتاه فلما دخل عليه قال: «أبشر يا كعب» فقالت أمه هنيئاً لك الجنة يا كعب.

فقال النبي ﷺ: من هذه المتألية على الله ؟

قال: هي أمي يا رسول الله !

قال: وما يدريك يا أم كعب لعل كعباً قال ما لا يَعْنِيه أو منع مالا يُغْنيه ؟.

[أخرجه ابن أبي الدنيا]

* * *

العبرة والتطبيق:

أيها الناشئة [المؤمن والمؤمنة]:

بعد كل ما مر معك من عبر حول الكلام والتزام الصمت والبعد عن فضول الكلام ، ما أحراك أن تتمسك بما يلي :

١ ـ استغفر الله عز وجل وتب إليه مما صدر منك من فضول الكلام ، عسى أن يغفر لك ما مضى من ذلك.

٢ ـ خذ العهد على نفسك أمام الله أن لا تتكلم إلا ما فيه فائدة ، وإلا فالصمت أولى.

٣ ـ إذا ما بدر منك كلام وشعرت بأنه من فضول الكلام الذي لا فائدة منه ، اسكت عن متابعة الكلام ثم استغفر الله ، وأشعر الآخرين بسبب استغفارك ، وتب إلى الله سبحانه وتعالى ، واسأله أن يعينك ألا تعود لمثلها.

٤ ـ انصح كل من تستطيع إلى ذلك الخلق وهو الصمت والابتعاد عن فضول الكلام.

٥ ـ لا تستمع إلى من يخوض في فضول الكلام واستفد من الوقت فيما يفيدك.

٦ ـ فكر بما تقول وتدبره فإن كان خيراً تكلم ، وإن كان شراً فاسكت عاملاً بما قيل : «لسان المؤمن من وراء قلبه» أي عقله وتفكيره.

٧ ـ اختصر الكلام بصورة لا تخلُّ بالمعنى ، لأن التطويل يضيع الوقت والفائدة معاً.

٨ ـ قسْ كلامك بمقياس الشرع والمنطق فلا تتعرض لغضب الله أو لمعصيته ، ولا لسخط الآخرين عليك.

٩ ـ لا تحدث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم فيكون عليهم فتنة .

١٠ ـ لا تتكلم أو ترو حديثاً أو خبراً ما لم تتثبت منه ، ولا تحدث بكل ما تسمع لقوله ﷺ : «بحسب امرىء من الكذب أن يحدّث بكل ما سمع» .

[رواه مسلم]

١١ ـ لتكثر من الكلام المفيد للدنيا والآخرة ففي كل كلمة أجر إذا ابتغى بها وجه الله .

* * *

الآفة الخامسة:

[المراء والجدال والمخاصمة]

معناها وحكمها:

وهي آفات تشترك مع بعضها البعض لارتباطها فيما بينها ، وقد نهى الرسول ﷺ عن الآفات وأمرنا بالابتعاد عنها والحذر منها :

والمراء : هو كل اعتراض على كلام الغير ، بإظهار خلل منه ، إما في اللفظ وإما في المعنى وإما في قصد المتكلم .

أما الجدال فعبارة عن قصد إفحام الغير وتعجيزه وتنقيصه بالقدح في كلامه ونسبته إلى القصور والجهل فيه .

والباعث على المراء والجدال : هو الترفع بإظهار العلم والفضل ، والتهجم على الغير بإظهار نقصه ، وهما شهوتان باطنتان للنفس .

والمراء والجدال صفتان مذمومتان مهلكتان نهىٰ النبي ﷺ عنهما :

فقد قال رسول الله ﷺ: «لا تمارِ أخاكَ ولا تُمازِحْهُ ولا تَعِدْهُ موعِداً فَتُخْلِفَهُ» . [أخرجه الترمذي من حديث ابن عباس]

وقال ﷺ : «من تركَ المراءَ وهو محقٌ بُني له بَيْتٌ في أعلى الجنةِ ومن تركَ المراءَ وهو مبطلٌ بُني له بَيْتٌ في رَبَضِ الجنة» .

[أخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث ابن عباس]

وقال أيضاً ﷺ : «ما ضلَّ قومٌ بعد أن هداهُم اللهُ تعالى إلا أوتوا الجدل» .

[أخرجه الترمذي من حديث أبي أمامة وصححه وزاد بعد [هدى كانوا عليه]» .

والخصومة وراء الجدال والمراء ، فهي لجاج في الكلام ليُستوفى به مالٌ أو حقٌ مقصودٌ. قالت عائشة رضي الله عنها، قال رسول الله ﷺ: «إنّ أبغض الرجال إلى الله الألدُّ الخَصِمُ» . [أخرجه البخاري]

الألد : هو شديد الخصومة .

الخصم: هو كثير الخصومة المولع بها حتى تصير الخصومة عادة له.

وقال سيدنا أبو هريرة رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: «من جادل في خصومةٍ بغير علمٍ لم يزلْ في سخطِ اللهِ حتى ينزع».

[أخرجه ابن أبي الدنيا والأصفهاني]

والخصومة توغر الصدر، وتهيج الغضب، وإذا هاج الغضب نسي المتنازع فيه، وبقي الحقد بين المتخاصمين، حتى يفرح كل واحد بمساءة صاحبه، ويحزن بمسرته ويطلق اللسان في عرضه.

فالخصومة مبدأ كل شر، وكذا المراء والجدال، وكل هذه الصفات مذمومةٌ منهيٌّ عنها كما مر معنا.

والمقصود بالخصومة من يخاصم بالباطل أو بغير علم.

أما المظلوم الذي ينصر حجته بطريق الشرع من غير لدد وإسراف وزيادة لجاج على قدر الحاجة، ومن غير قصد عناد وإيذاء، ففعله ليس بحرام، ولكن الأولى تركه ما وجد إليه سبيلاً.

أقوالُ السلف:

١ ـ قال سيدنا عمر رضي الله عنه: لا تتعلم العلم لثلاث ولا تتركه لثلاث: لا تتعلمه لتماري به، ولا لتباهي به، ولا لترائي به، ولا تتركه حياء من طلبه، ولا زهادة فيه، ولا رضا بالجهل منه.

٢ ـ قال سيدنا أبو الدرداء: كفى بك إثماً أن لا تزال ممارياً.

٣ ـ قال مالك بن أنس رحمة الله عليه: ليس هذا الجدال من الدين في شيء. وقال: المراء يقسي القلوب ويورث الضغائن.

٤ ـ وقال لقمان لابنه: يا بني لا تجادل العلماء فيمقتوك.

٥ ـ وقال بلال بن سعد: إذا رأيت الرجل لجوجاً ممارياً معجباً برأيه فقد تمت خسارته.

٦ ـ وقال ابن أبي ليلى: لا أماري صاحبي، فإما أن أكذبه وإما أن أغضبه.

٧ ـ روي أن أبا حنيفة رحمة الله عليه قال لداود الطائي: لِمَ آثرت الانزواء؟ قال: لأجاهد نفسي بترك الجدال، فقال: احضر المجالس واستمع ما يقال ولا تتكلم.

قال: ففعلت ذلك فما رأيت مجاهدة أشد عليّ منها.

٨ ـ وقد قال أحد الصالحين [إياك والخصومة فإنها تمحق الدين].

٩ ـ وقال آخر [ما خاصم ورع قط في الدين].

* * *

الـعبـرة والتطبيـق:

أيها الناشئة [المؤمن والمؤمنة]:

بعد أن تعرَّفت على هذه الصفات المذمومة والمنهي عنها وهي من آفات اللسان ما عليك إلا أن تقوم بما يلي:

١ ـ استغفر الله وتب من كل ما بدر منك سابقاً من هذه الصفات المذمومة.

٢ ـ خذ العهد على نفسك أمام الله أن تترك هذه الصفات ولا تعود إليها أبداً.

٣ ـ إذا وجدت نفسك أثناء الكلام مع الآخرين أنك بدأت تماري أو تجادل أو تخاصم فتوقف عن الكلام واستغفر الله من ذلك وأظهر سبب استغفارك ولا تعد لمثلها أبداً.

٤ ـ لا تجالس أحداً يتصل بهذه الصفات المذمومة.

٥ ـ انصح الآخرين أصحاب هذه الصفات وبين لهم خطورتها ونهي الرسول عنها.

٦ ـ استبدل أسلوب الكلام والنقاش من ذلك إلى أسلوب لين الكلام وأطيبه، الذي يحبه رسول الله ﷺ روي عن أنس رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ في الجنة لغُرَفاً يُرَى ظاهِرُها من باطِنها، وباطِنُها من ظاهِرِها أعدَّها اللهُ تعالى لمنْ أطعم الطعامَ وألانَ الكلامَ». [رواه البخاري]

ـ ورويَ عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قوله: «الكلمةُ الطيبةُ صدقةٌ». [رواه مسلم]

قال سيدنا عمر رضي الله عنه: [البر شيء هين، وجه طليق وكلام لين].

وقال بعض الحكماء: الكلام اللين يغسل الضغائن المستكنة في الجوارح.

* * *

الآفة السادسة

[الفحش والسب وبذاءة اللسان]

أخلاق مذمومة ومنهي عنها ومصدرها الخبث واللؤم ، وهي صفات منتشرة في مجتمعاتنا يجب الابتعاد عنها والتحذير من خطرها .

معاني هذه الصفات :

الفحش : هو التعبير عن الأمور المستقبحة بالعبارات الصريحة .

السبُّ : شتم الآخرين بكلمات الفحش .

بذاءة اللسان : كل ما يجري على اللسان من فحش وسب. والباعث على ذلك كله إما قصد الإيذاء للآخرين وإما الاعتياد الحاصل من مخالطة الفسّاق وأهل الخبث واللؤم ومن تلك عاداتهم .

نهى القرآن الكريم عن ذلك :

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ . [النحل : ٩٠]

الفحشاء : الذنوب المفرطة في القبح (ومنها فُحشُ اللسان) .

وقال سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ . [الأنعام : ١٠٨]

نهيُ الرسول ﷺ عن ذلك :

١ ـ «إياكم والفحش فإنَّ اللهَ تعالى لا يحبُ الفحشَ ولا التفحشَ» .

[رواه النسائي والحاكم من حديث عبد الله بن عمر . ورواه ابن حبان من حديث أبي هريرة]

٢ ـ «نهى رسول الله ﷺ عن أن نَسُبَّ قتلى بدر من المشركين فقال :

«لا تسبوا هؤلاء فإنه لا يخلص إليهم شيء مما تقولون وتؤذون الأحياء ألا إن البذاء لؤم» . [أخرجه ابن أبي الدنيا مرسلاً]

٣ ـ «ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذيء».

[رواه الترمذي من حديث ابن مسعود]

٤ ـ «البذاء والبيان شعبتان من شعب النفاق».

[رواه الترمذي من حديث أبي أمامة]

البيان: كشف ما لا يجوز كشفه.

٥ ـ قال جابر بن سمرة: كنت جالساً عند النبي ﷺ وأبي أمامي فقال ﷺ: «إن الفحش والتفاحش ليسا من الإسلام في شيء وإن أحسن الناس إسلاماً أحاسنهم أخلاقاً». [رواه أحمد وابن أبي الدنيا]

٦ ـ قال أعرابي لرسول الله ﷺ:

أوصني فقال: «عليك بتقوى الله وإن امرؤ عيَّرك بشيء تعلمه فيك فلا تعيره بشيء فيه يكن وباله عليه وأجره لك ولا تسبن شيئاً»، قال: فما سببت شيئاً بعده. [رواه أحمد والطبراني من حديث أبي جرير الهجيمي]

٧ ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «المُسْتبَّان ما قالا فعلى البادىء منْهُما حتَّى يتَعدَّى المظلُومَ». [رواه مسلم وأبو داود والترمذي]

٨ ـ عن ابن مسعود رضي الله عنه قال:

قال رسول الله ﷺ: «سبابُ المُسْلمِ فُسوق، وقتالُهُ كُفْرٌ». [متفق عليه]

٩ ـ عن عائشة رضي الله عنها عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إنَّ شرَّ الناسِ عِنْدَ اللهِ منزلةً يومَ القيامة من تركهُ الناسُ اتقاءَ شرِّه». [رواه البخاري]

١٠ ـ عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجُل والديه قيل يا رسول الله: وكيف يلعنُ الرجل والديه؟ قال: يسب أبا الرجُلِ فيسبُ أباه، ويسبُّ أمَّهُ فيسُبُ أمَّه».

[رواه البخاري وغيره]

ما ورد عن السلف:

١ ـ قال إبراهيم بن ميسرة: يقال يؤتى بالفاحش والمتفحش يوم القيامة في صورة كلب أو في جوف كلب.

٢ ـ وقال الأحنف بن قيس: ألا أخبركم بأدوإ الداء (بأسوئه)؟ اللسان البذي ، والخلق الدني .

٣ ـ قال العلاء بن هارون: كان عمر بن عبد العزيز يتحفظ في منطقه فخرج تحت إبطه خرّاج ، فأتيناه نسأله لنرى ما يقول.

فقلنا من أين خرج؟ فقال: من باطن اليد.

٤ ـ قال عمرو بن عتبة: نزه نفسك عن استماع الخنى (الكلام الفاحش) كما تنزه لسانك عن الكلام به ، فإن السامع شريك القائل ، ولو ردت كلمة الناطق بالأذى في فيه لسعد رادُّها كما شقي قائلها.

٥ ـ قال المهلب: [إذا سمع أحدكم العوراء (الكلمة القبيحة) فليطأطىء لها فتتخطاه].

مما قاله الشعراء:

١ ـ قال أبو الحسين بن الحراث الهاشمي:

تحرَّ من الطُّرُقِ أو ساطَها ... وعد عن الموضع المشتبه
وسمعُك صُن عن قبيح كلام ... كصونِ اللسان عن النطق به
فإنك عند استماعِ القبيحِ ... شريك لقائِله فانتبهِ

٢ ـ وقال الشاعر:

إذا ما بدت من صاحب لكَ زلةٌ ... فكن أنت محتالاً لزلته عُذرا
أحبُّ الفتى ينفي الفواحشَ سمعُهُ ... كأن به عن كل فاحشةٍ وقرا
سليمُ دواعي الصدرِ لا باسطاً أذى ... ولا مانعاً خيراً ولا قائلاً هجرا

الوقر: خفة السمع أو ذهابه كله (الصمم).

٣ ـ وقال ثالث:

وتجنبِ الفحشاءَ لا تنطقْ بها ... ما دُمت في جدِّ الكلام وهزله
واحبسْ لِسانَك عن رديء مقالةٍ ... وتوقَّ من عثر اللسان وزله
كم كلمةٍ جرّت لرأسٍ نقمةً ... كالدهر يرشق نَبلهُ في نُبلِهِ

أي كالدهر يرمي سهامه في الفضيلة.

٤ ـ وقال رابع:

أحــبُّ مكــارمَ الأخــلاقِ جهــدي   وأكــره أن أعيــبَ وأنْ أُعــابــا
وأصفـحُ عـن سبـابِ النـاسِ حلمـا   وشـرُّ النـاسِ مـن يهـوى السِبـابـا

* * *

العبرة والتطبيق:

أيها الناشئة [المؤمن المؤمنة]:

بعد الذي عرفت عن هذه الآفات الخطرة المذمومة المنهي عنها، المتفشية في مجتمعاتنا ما عليك إلا أن تعمل بما يلي:

١ ـ بادر بالاستغفار والتوبة مما كان منك قبل معرفتك هذه.

٢ ـ خذ العهد على نفسك أمام الله أن لا ترتكب أي خطأ من هذه الآفات، فلا يتكلم لسانك بفحش أو سب أو بذاءة.

٣ ـ احذر أن تتكلم بهذه الآفات أو أن يصدر منك شيء منها وإذا ساقك إليها لسانك فاصْمُتْ مباشرة، واستغفر الله، وأظهر سبب استغفارك أمام الآخرين، وتب إلى الله، ولا تعد لمثلها أبداً.

٤ ـ لا تجامل ولا تجالس ولا تستمع إلى من يرتكب مثل هذه الأخطاء ويقع في هذه الآفات ويعتادها.

بل أظهر استياءك من كل من يتكلم بها مهما كانت منزلته وأمره، وأوقفه عن الكلام وابتعد عنه واهجره.

٥ ـ قم بالنصيحة للمرضى بهذه الآفات، وبين لهم أخطارها، ونهيُ الرسول ﷺ عنها.

٦ ـ انتبه لإخوتك الصغار من أن يصدر منهم شيء منها، وعوِّدهم الكلام الحسن وكافئهم عليه، وازجرهم عندما تسمع منهم كلاماً سيئاً.

* * *

الآفة السابعة:

[اللعن]

معناه:

اللعن هو عبارة عن الطرد والإبعاد من الله تعالى ، وقد يكون لإنسان أو لحيوان أو جماد أو غير ذلك .

حكمه:

- اللعن مذموم في الإسلام، وغير جائز إلا على من اتصف بصفة تبعده عن الله عز وجل وهي الكفر والظلم، بأن يقول لعنة الله على الظالمين وعلى الكافرين .

- فإن في اللعن خطراً لأنه حكم على الله عز وجل بأنه قد أبعد الملعون ، وذلك غيب لا يطلع عليه غير الله تعالى ، ويطلع عليه رسول الله ﷺ إذا أطلعه الله عليه .

- ويجوز لعنة كل شخص ثبتت لعنته شرعاً كقولك: الشيطان لعنه الله ، وفرعون لعنه الله ، وأبو جهل لعنه الله ، لأنه قد ثبت أن الشيطان ملعون وأن فرعون وأبا جهل ماتا على الكفر وعرف ذلك شرعاً .

- ولا يجوز لعن شخص معين لم يمت ولو كان كافراً لأنه لا ندري ما يختم له .

- يجوز لعن أصحاب المعاصي غير المعينين والمعروفين كما ورد في قول الله تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾ . [الأحزاب : ٦٤]

وقوله سبحانه : ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ . [هود : ١٨]

وقوله سبحانه : ﴿فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ . [آل عمران : ٦١]

- وقد ثبت في الأحاديث النبوية أن رسول الله ﷺ قال :

١ - «لعن الله الراشي والمرتشي والرائش» . [رواه أحمد عن ابن عمر]

٢ - «لعن الله المخنثين من الرجال والمترجلات من النساء» .

[رواه البخاري عن ابن عباس]

٣ ـ «لعن رسول الله ﷺ آكل الربا وموكله وكاتبه وشاهديه » وقال: هم سواء». [رواه مسلم عن جابر]

ـ ويجوز للآمر بالمعروف والناهي عن المنكر وكل مؤدب أن يقول لمن يخاطبه في ذلك الأمر:

ـ ويلك ، أو يا ضعيف الحال ، أو ياقليل النظر لنفسه ، أو ياظالم نفسه ، وما أشبه ذلك ، بحيث لا يتجاوز إلى الكذب ، ويكون الغرض منه التأديب والزجر ، وليكون الكلام أوقع في النفس.

عن أنس رضي اللهَ عنهُ أنَّ النبيَ ﷺ رأى رجلاً يسوقُ بَدَنَةً ، فقال:

اركبْهَا ، فقال: إنها بدنة ، قال: اركبها ، قال: إنها بدنة ، قال في الثالثة: اركبها ويلك». (متفق عليه).

ـ كما ولا يجوز لعن الحيوان أو الجماد فقد ورد عن رسول الله ﷺ النهي عن لعن الناقة والديك والبرغوث والريح وغير ذلك.

نهى رسول الله ﷺ عن اللعن:

١ ـ عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «لا يكون المؤمِنُ لَعَّاناً». [رواه الترمذي]

٢ ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا ينبغي لصِدِّيْقٍ أن يكُونَ لَعَّاناً». [رواه مسلم وغيره]

٣ ـ عن ثابت بن الضحاك رضي الله عنه وكان من أصحاب الشجرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لَعْنُ المؤمِنِ كَقَتْلِه». [متفق عليه]

٤ ـ عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يكون اللعَّانون شُفَعاءَ ولا شهداء يوم القيامة». [رواه مسلم]

٥ ـ عن سمرة بن جندب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تلاعَنُوا بلَعنَةِ اللهَ ولا بغَضَبه ولا بالنار». [رواه أبو داوود والترمذي]

عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «من لَعَنَ شيئاً ليس له بأهل رجَعَتِ اللعنَةُ عليه». [رواه أبو داوود والترمذي]

٧ ـ عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن العَبْدَ إذا لَعَنَ شيئاً صَعِدَتِ اللعنةُ إلى السمَّاء فَتُغْلَقُ أبوابُ السماء دونَها، ثم تَهْبطُ إلى الأرضِ فَتُغْلَقُ أبوابُها دونها ثم تأخُذُ يَميناً وشِمالاً فإن لم تَجدْ مَسَاغاً رَجَعَتْ إلى الذي لُعِنَ فإن كان أهلاً وإلا رَجَعَت إلى قائِلها». [رواه أبو داود]

٨ ـ عن عمرانَ بن حُصَين رضي اللهَ عنه قال: بينما رسولُ الله ﷺ في بعضِ أسفارِهِ وامرأةٌ من الأنصار على ناقَةٍ فَضَجِرتْ فلعَنَتْها، فسمع ذلك رسول الله ﷺ فقال: «خُذُوا ما عَليهَا ودعُوهَا فإنَّها مَلعُونَة».

قال عمرانُ: فكأني أراها الآن تَمْشي في الناس ما يَعْرِضُ لها أحَدٌ.

[رواه مسلم وغيره]

٩ ـ عن أبي برزة رضي الله عنه قال: بينما جارية على ناقة عليها بعض متاع القوم، إذ بصرت بالنبي ﷺ وتضايق بهم الجبل فقالت: حَلْ اللهم العنها، فقال النبي ﷺ: «لا تُصاحِبْنا ناقَةٌ عليها لَعْنَةٌ». [رواه مسلم]

مما ورد عن السلف:

ـ قال ابن عمر: إن أبغض الناس إلى الله كل طعّان لعّان.

ـ وقال أبو الدرداء: ما لعن أحد الأرض إلا قالت: لعن الله أعصانا.

ـ وقال مكي بن إبراهيم: كنا عند ابن عون فذَكروا بلال بن أبي بردة، فجعلوا يلعنونه ويقعون فيه، وابن عون ساكت، فقالوا: يا ابن عون إنما نذكره لما ارتكب منك، فقال: إنما هما كلمتان تخرجان من صحيفتي يوم القيامة: لا إله إلا الله، ولعن الله فلاناً فلأن يخرج من صحيفتي لا إله إلا الله أحبُ إليّ من أن يخرج منها لعن الله فلاناً.

ـ رضي الله عنهم على هذه الأخلاق العظيمة، اللهم خلقنا بأخلاقهم وارزقنا الفهم عنهم.

* * *

الـعبـرة والتطبيـق:

أيها الناشئة [المؤمن والمؤمنة]:

بعد أن اطلعت على موضوع اللعن وأنه مذموم محرم ، وعلمت كيف كان رسول الله ﷺ يشدد عليه ، ويترك الناقة مجرد أن لعنت ، بعد كل هذا ما عليك إلا أن تفعل ما يلي:

١ ـ تستغفر الله وتتوب إليه إن كان قد صدر منك في السابق لعن للآخرين.

٢ ـ تأخذ العهد على نفسك أمام الله أن لا تلعن أحداً ، إنساناً كان أو حيواناً أو جماداً أو غير ذلك.

٣ ـ عندما تغفل عن الله ويصدر منك لعن ، اسكت عن المتابعة مباشرة ، واستغفر الله من ذنبك ، وأظهر لمن حولك سبب استغفارك حتى يستفيدوا من موعظتك ، وتب إلى الله معاهداً إياه أن لاتعود لمثلها أبداً.

٤ ـ لا تجالس أحداً يلعن الآخرين.

٥ ـ انصح الآخرين بالابتعاد عن اللعن ، وبين لهم سبب ذلك ، ذاكراً لهم أحاديث الرسول ﷺ التي تنهى عنه.

٦ ـ وجِّه إخوتك الصغار للتمسك بأخلاق الإسلام ، والابتعاد عن الأخلاق السيئة ومنها اللعن.

٧ ـ احمد الله عز وجل دائماً وأبداً أن فضَّل عليك بأن جعل أخلاقك أخلاقاً إسلامية.

* * *

الآفة الثامنة:

[السخرية والاستهزاء]

معناها:

معنى السخرية والاستهزاء هو الاستهانةُ والتحقيرُ والتنبيهُ على العيوبِ والنقائصِ على وجه يُضْحَكُ منه ، وقد يكون ذلك بالمحاكاة في الفعل والقول وقد يكون بالإشارةِ والإيماءِ .

حكمها:

السخرية والاستهزاء بالآخرين محرمٌ وخاصةً عندما يتأذى بـه المُسْتَهْزأُ به .

قال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ . [الحجرات : ١١]

ـ عن الحسن رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن المستهزئين بالناسِ يُفْتَحُ لأحدهم بابٌ من الجنةِ فيقال له هَلُمَّ هَلُمَّ ، فَيجيء بكربهِ وغَمّه فإذا جاءَه أُغلِقَ دُونَه ، ثمّ يفتح له بابٌ آخر فيقال هَلُمَّ هَلُمَّ فيجيء بكربه وغمّه فإذا جاءَه أُغلِقَ دُونه ، فما يزالُ كذلِكَ حتى إنَّ أحدَهم ليُفْتَحُ لهُ البابُ من أبوابِ الجنّةِ ، فيقال له هَلُمّ فما يأتيه من الأياس» . [رواه البيهقي مرسلاً]

ـ وعن معاذ بن جبلٍ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من عَيَّرَ أخاهُ بذنبٍ لم يَمُتْ حتى يَعْمَلَهُ» . [رواه الترمذي]

ـ وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «بحسبِ امرِئٍ من الشرِّ أن يحقِّرَ أخاهُ المُسلمَ» . [رواه مسلم]

ـ وقال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ﴾ .

إن الصغيرة التبسم بالاستهزاء بالمؤمن ، والكبيرة القهقهة بذلك .

* * *

العبرة والتطبيق:

أيها الناشئة [المؤمن والمؤمنة]:

الآن وقد فهمت معنى السخرية والاستهزاء بالآخرين وعرفت الحكم ونهي الله ورسوله عن ذلك ، فما أحراك أن تعمل على ما يلي:

١ - استغفر الله وتب من كل ما صدر منك سابقاً من سخرية واستهزاء بالآخرين.

٢ - خذ العهد على نفسك أمام الله أن لا تسخر ولا تستهزىء من أحد أبداً.

٣ - إذا غفلت عن الله ، وبادرت بالسخرية أو الاستهزاء بالآخرين ، فما عليك إلا أن تقف عن فعلك وقولك ، وتستغفر الله أمام الآخرين مشيراً لسبب استغفارك حتى يتعظوا من ذلك ثم تب إلى الله ، واعقد العزم أن لا تعود لمثلها أبداً.

٤ - لا تجالس ولا تضحك ممن يسخر ويستهزىء بالآخرين.

٥ - قم بنصح الآخرين الذين يتصفون بهذه الصفة واهجرهم إن لم يتركوا ذلك.

٦ - راقب إخوتك الصغار وبين لهم سوء هذا الخلق إن أرادوا أن يقوموا به.

* * *

الآفة التاسعة:

[كلام ذي اللسانين والوجهين]

المعنى:

ذو اللسانين والوجهين هو الذي يتردد بين المتعاديين ويكلم كل واحد منهما بكلام يوافقه، وقلما يخلو عنه من يُشاهد تردده بين متعاديين وذلك عين النفاق.

الحكم:

- اتفق السادة العلماء على أن ملاقاة الاثنين بوجهين نفاق، وللنفاق علامات كثيرة وهذه من جملتها.

- قال القرطبي: إنما كان ذو الوجهين شر الناس، لأن حاله حال المنافق، إذ هو متعلق بالباطل وبالكذب، مدخل الفساد بين الناس.

- وقال النووي: هو الذي يأتي كل طائفة بما يرضيها، فيظهر لها أنه منها ومخالف لضدها، وصنيعه نفاق، ومحض كذب وخداع وتحيّلٌ على الاطلاع على أسرار الطائفتين، وهي مداهنة محرمة.

- وقال القسطلاني: ويظهر عند كل منهم أنه منهم يتملق بالباطل ويدخل الفساد بينهم.

- وقد روي أن رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ مات فلم يصل عليه حذيفة فقال عمر:

يموت رجل من أصحاب رسول الله ﷺ ولم تُصلِّ عليه؟.

فقال: ياأمير المؤمنين إنه منهم.

فقال عمر: أنشدك الله أنا منهم أم لا؟

قال: اللهم لا ولا أؤمن منها أحداً بعدك.

ـ وكلام ذي اللسانين شرٌّ من النميمة ، إذ يصير نماماً بأن ينقل من أحد الجانبين فقط ، فإذا نقل من الجانبين فهو شرٌّ من النمام.

ـ وكذلك وإن لم ينقل كلاماً ولكن حَسَّن لكل واحد منهما ما هو عليه من المعاداة مع صاحبه فهذا ذو اللسانين.

ـ وكذلك إذا وعد كل واحد منهما بأن ينصره.

ـ وكذلك إذا أثنى على واحد منهما في معاداته.

ـ وكذلك إذا أثنى على أحدهما ، وكان إذا خرج من عنده يذمه فهو ذو لسانين.

النهي:

١ ـ قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ۝٢٠٤ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ۝٢٠٥ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾. [البقرة٢٠٤ ـ ٢٠٦]

ـ هذا وإن رسول الله ﷺ قد نهى المؤمن أن يكون ذا لسانين أو وجهين في أحاديث كثيرة منها:

١ ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «تجدونَ الناسَ معَادِنَ خيارُهُم في الجاهليةِ خيارُهُم في الإسلامِ إذا فقُهُوا ، وتجدونَ خيار الناسِ في هذا الشأنِ أشَدَّهُمْ لَهُ كَرَاهِيةً ، وتجدونَ شرَّ الناسِ ذا الوجهين الذين يأتي هؤلاء بوجهٍ وهؤلاء بوجه». [متفق عليه]

معادن: أي أصنافاً مختلفة.

٢ ـ عن سعيد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ذُو الوَجْهَينِ في الدنيا يأتي يوم القيامةِ ، ولهُ وجهانِ من نارٍ».

[رواه الطبراني]

٣ ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «تجدُ من شرِّ الناسِ

يوم القيامة ذا الوجهين الذي يأتي هؤلاء بحديث وهؤلاء بحديث» .

[متفق عليه]

وفي لفظ آخر «الذي يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه» .

ما ورد عن السلف :

ـ قال أبو هريرة رضي الله عنه : لا ينبغي لذي الوجهين أن يكون أميناً عند الله .

قال ابن مسعود رضي الله عنه : لا يكونن أحدُكم إمعة .

قالوا : وما الإمعة؟ قال الذي يجري مع كل ريح .

قال مالك بن دينار : قرأت في التوراة : «بطلت الأمانة والرجل مع صاحبه بشفتين مختلفتين ، يهلك الله تعالى يوم القيامة كل شفتين مختلفتين» .

* * *

العبرة والتطبيق:

أيها الناشئة [المؤمن والمؤمنة]:

بعد أن اطلعت على هذه الآفة الخطرة والمنتشرة بين الناس ، واطلعت على معناها وحكمها ونهي الله عز وجل ورسوله الكريم عنها ، ما عليك إلا أن تطبق ما يلي:

١ ـ استغفر الله وتب إليه إن كنت في يوم من الأيام السابقة ذا لسانين أو وجهين.

٢ ـ خذ العهد على نفسك أمام الله أن لا تكون في يوم من الأيام ذا لسانين أو وجهين أبداً.

٣ ـ إذا ما شعرت في موقف معين أنك سرت في اتجاه ذي اللسانين أو الوجهين ، فقف مباشرة عن ذلك ، واستغفر الله أمام الجميع معلناً سبب استغفارك ، وعاهد الله أن لا تعود لمثلها أبداً.

٤ ـ لا تصاحب ولا تجالس ولا تستمع لذي اللسانين والوجهين أبداً.

٥ ـ انصح ما استطعت من تجده على هذه الحالة لعل الله أن يهديه على يديك ، ويعود إلى صوابه.

٦ ـ بين لمن حولك أثر هذا المرض وخطره ، وبين له حكمه ونهي الله ورسوله عنه ، حتى تنتشر الوعي بين المسلمين فيكون لك ثوابٌ بذلك.

٧ ـ راقب إخوتك الصغار حتى لا يقعوا في هذه الآفة فينقلوا الحديث بين الوالدين أو الإخوة فيوقعوا بينهم انصحهم وأرشدهم وبين لهم خطر ذلك.

* * *

الآفة العاشرة:

[المزاح الفاسد]

المنهي عنه :

- وأصله مذموم منهي عنه إلا قدراً يسيراً يستثنى منه .

- والمنهي عنه هو الإفراط فيه أو المداومة عليه .

أما الإفراط فيه فإنه يورث كثرة الضحك ، وكثرة الضحك تميت القلب ، وتورث الضغينة في بعض الأحوال ، وتسقط المهابة والوقار .

أما المداومة فلأنه اشتغال باللعب والهزل فيه .

- واللعب مباح ولكن المواظبة عليه مذمومة .

- وكذلك يذم المزاح الذي يخرج الإنسان به عن موضع الجد والاحترام ، وحد الحشمة والوقار ، فقد عرض نفسه للازدراء والاحتقار ، وبِئِسَتْ حال من لم يعرف لنفسه قدرها ، ولم يحفظ لكرامته مقامها في هذا المجتمع .

وكذلك يذم المزاح الذي يلجأ صاحبه للكذب أو الإيقاع بالآخرين أو الاستهزاء والسخرية بهم .

ما جاء في النهي :

قال الله تعالى مخاطباً لقوم هذا شأنهم :

﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ .

[غافر : ٧٥]

قال رسول الله ﷺ: « إيّاك وكثرة الضحكِ فإنَّهُ يُميتُ القلبَ ويَذهبُ بنورِ الوجهِ» .

[رواه الترمذي وأحمد وابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه]

وقال رسول الله ﷺ: «لا تُمارِ أخاك ولا تُمازِحْهُ» .

[رواه الترمذي من حديث ابن عباس]

وقال رسول الله ﷺ: «إنَّ الرجلَ ليتكلمُ بالكلمةِ يُضْحِكُ بها جُلساءَه يهوي بها أبْعَد منَ الثُّريا». [رواه ابن أبي الدنيا من حديث أبي هريرة]

أقوال السلف فيه:

ـ قال سيدنا عمر رضي الله عنه: من كثر ضحكه قلّت هيبته، ومن مزح استخف به، ومن أكثر من شيء عرف به، ومن كثر كلامه كثر سقطه، ومن كثر سقطه قل حياؤه، ومن قل حياؤه قل ورعه، ومن قل ورعه مات قلبه.

ـ وقال سيدنا عمر رضي الله عنه: أتدرون لم سمي المزاح مزاحاً؟ قالوا لا. قال: لأنه أزاح صاحبه عن الحق.

ـ وقال سعيد بن العاص لابنه: يا بني لا تمازح الشريف فيحقد عليك ولا الدنيء فيجترىءَ عليك.

ـ وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى: اتقوا الله وإياكم والمزاح، فإنه يورث الضغينة، ويجرُّ إلى القبيح، تحدثوا بالقرآن وتجالسوا به، فإن ثقل عليكم فحديث حسن من حديث الرجال.

ـ قال الحجاج بن يوسف: المزاح يوغر صدر الصديق وينفِّر الرفيق ويبدي السرائر، ويظهر المعاير (المعايب)، ويجلب الشتم، ويثير الحقد.

ـ قال أحدهم: على العاقل أن يتقي المزاح، وينزه نفسه عن وصمة مساويه، فإنه مخرج إلى القطيعة، ومذهب للهيبة والبهاء، ومدعاة لتَجَرُّؤ الغوغاءِ والسُّفهاءِ.

ـ وقال غيره: من قل عقله كثر هزله.

ـ وقال آخر: احذر فلتات المزاح فسقطة الاسترسال، لا تقال.

ـ وقيل: المزاح يأكل الهيبة كما تأكل النار الحطب.

ـ أقوال الشعراء فيه:

ـ قال سيدنا علي كرم الله وجهه :

ودع المـزاحَ فـرب لفظـة مـازحٍ　　جلبـت إليـك بـلابـلاً لا تُـدفـع

بلابلاً : هموماً ومصائباً .

ـ قال النيسابوري :

شَـرُّ مـزاحِ المـرءِ لا يُقَـال　　وخيـره يـا صـاح لا يُنـال

وقـد يُقـال كثـرةُ المـزاح　　مـن الفتـى تـدعـو إلـى التـلاحـي

إن المـزاحَ بَـدْؤُهُ حـلاوة　　لكنمـا آخـره عـداوة

يحتـد منـه الـرجـل الشـريـف　　ويجتـري بخفـة السخيـف

التلاحي : الخصام والمنازعة .

ـ وقال ناصح الدين :

لا تجعـل الهـزل دأبـاً فهـو منقصـة　　والجدُّ تعلـو بـه بيـن الـورى القيـم

ولا يغـرنَّـك مـن مَلِـكٍ تَبَسُّمَـهُ　　ما سَحَّت السُّحْبُ إلا حين تبتسم

سحت : أنزلت وأمطرت .

وقال أخر :

واحذر من المزح كم في المزح من خطر　　كم من صديقين بعد المزاح فاختصما

مـا يـباح من المـزاح :

المزاح الذي يكون في حد الظَّرف والكمال مع مراعاة الظروف الخاصة بقصد ترويح النفس ، وتفريج السآمة ليستأنف المرء عمله بالجد والنشاط ، مع التزام الأدب والصدق ، كي يكون محفوظ القدر ، موفور الكرامة .

ـ وأن تمزح ولا تقول إلا حقاً ، ولا تؤذي إنساناً ولا قلباً ولا تفرط فيه ، وتقتصر عليه أحياناً على الندور فلا حرج عليك فيه .

ـ ولكن من الغلط العظيم أن يتخذ الإنسان المزاح حرفة يواظب عليه ، ويفرط فيه ثم يتمسك بفعل الرسول ﷺ .

ـ فقد نقل المزاح عن رسول الله ﷺ وأصحابه ضمن الشروط السابقة .

قال رسول الله ﷺ: «إني لأمزحُ ولا أقولُ إلا حقاً».

[رواه الطبراني عن ابن عمر]

ـ والمزاح بدون تفريط ولا كذب ولا إيذاء لأحد، بقصد ترويح النفس وتفريج السآمة لا بأس به وهو غير مذموم ولا منهي عنه.

من مزاح النبي ﷺ:

١ ـ عن الحسن قال: أتت عجوز إلى النبي ﷺ فقال لها ﷺ: «لا يدخل الجنة عجوز»، فبكت فقال: «إنك لست بعجوز يومئذٍ».

قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءٗ ﴿٣٥﴾ فَجَعَلۡنَٰهُنَّ أَبۡكَارًا﴾.

[الواقعة: ٣٥ ـ ٣٦]. [رواه الترمذي مرسلاً]

٢ ـ قال زيد بن أسلم: إن امرأة يقال لها أم أيمن جاءت إلى النبي ﷺ فقالت: إن زوجي يدعوك، قال: «ومن هو أهو الذي بعينه بياض؟»، قالت والله ما بعينه بياض؟ فقال: «بلى إن بعينه بياضاً»، فقالت: لا والله، فقال ﷺ: «ما من أحد إلا وبعينه بياض» وأراد به البياض المحيط بالحدقة.

[رواه الزبير بن بكار]

٣ ـ جاءت امرأة فقالت: يا رسول الله احملني على بعير فقال: «بل نحملك على ابن البعير»، فقالت: ما أصنع به إنه لا يحملني، فقال ﷺ: «ما من بعير إلا وهو ابن البعير». [رواه أبو داود والترمذي]

من مزاح الصحابة رضي الله عنهم:

١ ـ قال ﷺ مرة لصهيب وبه رمد وهو يأكل تمراً: «أتأكل التمر وأنت رمد؟»، فقال صهيب رضي الله عنه: (إنما آكل بالشق الآخر يا رسول الله)، فتبسم النبي ﷺ. [رواه ابن ماجه والحاكم]

٢ ـ كان نعيمان الأنصاري رجلاً مزاحاً، وكان لا يدخل المدينة رسل ولا طرفة إلا اشترى منها، ثم أتى النبي ﷺ فيقول: يا رسول الله، هذا قد اشتريته لك وأهديته لك. فإذا جاء صاحبها يتقاضاه بالثمن، جاء به إلى النبي ﷺ وقال: يا رسول الله أعطه ثمن متاعه فيقول له ﷺ: «أولم تهده لنا»

فيقول: يا رسول الله إنه لم يكن عندي ثمنه وأحببت أن تأكل منه ، فيضحك النبي ﷺ ويأمر لصاحبه بثمنه. [رواه الزبير بن بكار]

الضحك في الإسلام:

إن المزاح يجلب الضحك ، والضحك في الإسلام تبسمٌ وما زاد عن التبسم كان مذموماً.

- لأن الضحك يدل على الغفلة عن الآخرة.

- قال ﷺ: «لو تعلمون ما أعلم لبكيتم كثيراً ولضحكتم قليلاً».

[متفق عليه من حديث أنس وعائشة]

- والمحمود من الضحك التبسم، الذي ينكشف فيه السن ولا يسمع له صوت.

- وكذلك كان ضحك رسول الله ﷺ ، فقد ورد في الحديث.

[كان ضحكه التبسم].

وروي أنه ﷺ كان كثير التبسم.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: «ما رأيت رسول الله ﷺ مستجمعاً قط ضاحكاً حتى ترى منه لهواته إنما كان يبتسم». [رواه البخاري ومسلم]

- وقال عمر رضي الله عنه: [التبسم أبلغ في الإيناس من الضحك الذي قد يكون استهزاءً وتعجباً].

قال رجل لأخيه:

يا أخي هل أتاك وارد النار؟

قال: نعم ، قال: فهل أتاك أنك خارج منها؟

قال: لا ، قال: ففيم الضحك؟

قيل: فما رؤي ضاحكاً حتى مات.

- وقيل: كثرة الضحك من الرعونة(الحمق)، وضحكة المؤمن غفلة من قبله.

- قال ابن عباس: من أذنب ذنباً وهو يضحك ، دخل النار وهو يبكي.

* * *

العبرة والتطبيق:

أيها الناشئة [المؤمن والمؤمنة]:

بعد أن علمت حكم الإسلام في المزاح والضحك فما عليك إلا أن تعمل على ما يلي:

١ ـ استغفر الله وتب إليه عما بدر منك من مزاح أو ضحك مخالف لآداب الإسلام.

٢ ـ خذ العهد على نفسك أمام الله أن يكون مزاحك وضحكك كما هو في سنة رسول الله ﷺ.

٣ ـ إذا شرعت في مزاح مذموم فلا تتمه واستغفر الله أمام من حولك مشعراً إياهم سبب استغفارك واعزم على ألا تعود لمثلها أبداً.

٤ ـ لا تصاحب ولا تجالس ولا تستمع لمن يمزح مزاحاً مذموماً.

٥ ـ إذا وجدت فرصة مناسبة للمزاح، فلا تكذب فيه، وليكن مزاحك حقاً، وليس فيه سخرية من أحد، كما كان عليه مزاح رسول الله ﷺ.

٦ ـ حاول أن يكون ضحكك دائماً تبسماً، ولا تصدر صوتاً عالياً أثناء قهقهتك.

٧ ـ انصح الآخرين وبين لهم رأي الإسلام في المزاح والضحك.

٨ ـ أدب أخوتك الصغار على ذلك.

* * *

خُلُقُ الحَيَاءِ
٢

تعريف الحياء :

ـ الحياء مشتق من الحياة، وعلى حسب حياة القلب يكون فيه قوة خلق الحياء .

ـ الحياء «كما في القاموس» : (الحشمة) .

ـ والحياء والاستحياء بمعنى واحد .

ـ والحياء تغير وانكسار يعتري الإنسان من خوف ما يعاب به ويذم .

ـ والحياء ظاهرة تعبر عن الخوف من الظهور بمظاهر النقص ، وتعبر عن ترفع النفس عنه ، وعدم الرضى به ، وإن مستها بعض عوارضه .

ـ والحياء هو البعد والكف عن كل ما يستقبحه العقل ، ويمجه الذوق .

ـ والحياء هو استنكار كل ما لا يرضى به الخالق والمخلوق .

فالحياء خلق شريف يمنع المرء عن فعل المحرمات ، وإتيان المنكرات ، ويصونه عن الوقوع في الأوزار والآثام .

ـ والحياء من علو الهمة وعلو النفس ، فحب النفس للحياء حب للكمال ، وحرص منها على أن تتصف بصفاته ، وأن تظهر أمام الناس بالمظاهر التي تدل عليه ، فالإنسان لا يستحيي من الكمال إذا هو ظهر به واتصف بصفاته ، وإنما يستحيي مما فيه نقص ، أو مما يخشى أن يكون فيه نقص .

ـ والحياء من أمارات الخير في الإنسان ، وأقوى باعث له على فعل ما يحمد عليه ، واجتناب ما يذم من أجله .

ـ والحياء أمارة صادقة على طبيعة الإنسان ، فهو يكشف عن قيمة إيمانه ،

ومقدار أدبه ، فعندما ترى الرجل يتحرج عن فعل أو قول ما لا ينبغي ، أو ترى حمرة الخجل تصبغ وجهه إذا بدر منه ما لا يليق ، فاعلم أنه حي الضمير ، نقي المعدن ، زكي العنصر.

ـ والحياء خاص بالإنسان دون الحيوان ، ويظهر عند الأطفال منذ الصغر بالفطرة ، ويبدو واضحاً متى بدأ التمييز عندهم.

ـ فالحياء خلق كريم من مكارم الأخلاق ، يدل على طهارة النفس ، وحياة الضمير ، ويقظة الوازع الديني ، ومراقبة الله عز وجل.

قالت السيدة عائشة رضي الله عنها :

«رأس مكارم الأخلاق الحياء».

خصائص الحياء :

الحياء خلق عظيم ، وله منزلة عالية في الإسلام ، لما له من خصائص متعددة.

ومن أهم خصائصه ما يلي :

أولاً ـ الحياء من صفات الله :

ورد وصف الله جل جلاله بالحياء في السنة ، ومما ورد فيها :

أ ـ «إن الله يستحي أن يعذب شيبة شابت في الإسلام».

[ذكره الغزالي في الدرة الفاخرة]

ب ـ عن يعلى بن أمية رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً يغتسل في الفلاة بلا إزار ، فصعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

«إنَّ اللهَ حَيِيٌّ سِتِّيرٌ يُحبُّ الحياءَ والسَّتر ، فإذا اغتسل أحدُكم فليَستتر».

[رواه أبو داود والنسائي]

ج ـ عن سلمان رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

«إنَّ الله حييٌ كريمٌ ، يستحي إذا رفعَ الرجلُ إليه يديه أن يردهما صفراً خائبتين». [رواه أبو داود والترمذي وغيرهما]

ولكن الحياء في حق الله تعالى لا يجوز بالمعنى البشري ، وهو انقباض النفس لأن ذلك تغيّر يلحق البدن ، وذلك لا يعقل إلا في الجسم ، وهذا مستحيل في حق الله تعالى ، إذ هو منزه عن الاتصاف به ، فإذا جاء وصف الله تعالى بالحياء يكون معناه ترك الفعل القبيح .

ويقول ابن القيم: [وأما حياء الرب تعالى من عبده ، فذلك نوع آخر ، لا تدركه الأفهام ولا تكفيه العقول ، فإنه حياء كرم وبر وَجُود وجلال].

وقد قال العلماء: [كون الله حيياً ستيراً: قد يكون المراد منه أنه يستر عيوب عباده ، ويستر قبائحهم ، ويحب منهم أن يستروا عيوبهم وعوراتهم].

ومن مظاهر هذه الصفة ، ما نشاهده من الأدب الرفيع في القرآن الكريم ، إذ لا يذكر الله فيه ألفاظ الفحش ، وإن دعت الحاجة إلى ذلك لبيان حكم من أحكام الدين يكتفي في ذلك بالكنايات وإشارات الألفاظ البعيدة ، كالملامسة ، والمباشرة ، ونحو ذلك .

ثانياً ـ الحياء من أخلاق القرآن الكريم التي دعا إليها :

١ ـ ذكر الله تبارك وتعالى مادة الحياء صراحة في ثلاثة مواطن :

أ ـ ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ﴾ .

[البقرة: ٢٦]

ب ـ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُواْ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾ .

[الأحزاب: ٥٣]

ج ـ ﴿ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ﴾ . [القصص: ٢٥]

يظهر مما مر معنا سابقاً ، أن الحياء من صفات الله عز وجل ، والحياء يكون من الشيء القبيح ، ولكن الله لا يستحيي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما

فوقها ، لأن ذلك ليس بقبيح ولا بعيب ، والله كذلك لا يستحي أن ينبه المؤمنين إلى الحق ويدلهم عليه .

٢ ـ كذلك ذكر الله تبارك وتعالى آيات ترمز إلى الحياء وتشير نحوه ، وهي الآيات التي تذكّر الإنسان باطلاع الله على كل أحواله وأموره ، فإن استحضار ذلك في نفس المؤمن يجعلها متجملة بالحياء والحشمة ، وهي آيات كثيرة منها :

أ ـ ﴿ وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ . [تبارك : ١٣ ـ ١٤]

ب ـ ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ . [المجادلة : ٧]

ج ـ ﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴾ . [النساء : ١٠٨]

ولقد فسر بعض العلماء قوله تعالى : ﴿ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾ .

[الأعراف : ٢٦]

قالوا الحياء .

ثالثاً ـ الحياء خلقٌ من أخلاق الرسل ، وخاصة رسولنا ﷺ :

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال :

قال رسول الله ﷺ : «إنَّ موسى كان رجلاً حيياً ستيراً ، لا يُرى شيء من جلده استحياء ، فآذاه من آذاه من بني إسرائيل ، فقالوا :

ما تستر هذا التستر إلا من عيب أو أُدْرةٍ ، وإن الله أراد أن يبرئه ، فخلا يوماً وحده ليغتسل ، فوضع ثوبه على حجر ، ففرّ الحجر بثوبه ، فجمَح موسى في إثره يقول :

ثوبي يا حجر ، ثوبي يا حجر .

حتى انتهى إلى ملأ من بني إسرائيل ، فرأوه عريانا أحسن ما خلق الله وقالوا : والله ما بموسى من بأس.

وأخذ ثوبه ، وطفق بالحجر ضرباً ، فو الله إن بالحجر لَنَدْباً من أثر ضربه ثلاثاً أو أربعاً أو خمساً». [رواه البخاري ومسلم]

الأدرة : هي انتفاخ في الخصي بسبب فتق.

أما رسولنا ﷺ ، فقد كان شديد الحياء ، أشد حياءً من العذراء في خدرها.

عن أبي سعيد الخدري قال :

«كان النبي ﷺ ، أشد حياءً من العذراء في خدرها ، فإذا رأى شيئاً يكرهه عرفناه في وجهه». [رواه البخاري ومسلم]

العذراء : الفتاة البكر غير المتزوجة.

خدرها : الموضع الذي تسكن فيه وتستتر.

ومن حيائه ﷺ ، أنه لم يكن فاحشاً ولا متفحشاً ، ولا سخاباً في الأسواق.

عن عائشة رضي الله عنها قالت :

«لم يكن رسول الله ﷺ فاحشاً ولا متفحشاً ، ولا سخاباً في الأسواق ولا يجزي بالسيئة السيئة ، ولكن يعفو ويصفح». [رواه الترمذي]

سخاباً : صياحاً.

رابعاً ـ الحياء هو الدين كله :

وذلك لأنه يجر إلى الكمالات ، ويدعو إلى الفضائل ويبعد عن النقائص والمعاصي.

رويَ عن مُرّة بن إياس رضي الله عنه قال :

«كنا مع النبي ﷺ فذكر عنده الحياء ، فقالوا :

يا رسول الله الحياء من الدين؟

فقال رسول الله ﷺ :

بل هو الدين كله ، ثم قال رسول الله ﷺ:

إن الحياء والعفاف والعيّ: عيَّ اللسان لا عيَّ القلب ، والعفَّة من الإيمان وإنَّهنَّ يزدْن في الآخرة وينْقُصْنَ من الدنيا ، وما يزدن في الآخرة أكثر مما يَنْقُصْنَ من الدنيا.

وإن الشح والعجز والبذاء من النفاق ، وإنَّهنَّ يزدْنَ في الدنيا ، ويَنْقُصن من الآخرة ، وما ينقصن من الآخرة أكثر مما يزدْن من الدنيا».

[رواه الطبراني باختصار وأبو الشيخ في الثواب واللفظ له]

عي اللسان: قلة الكلام وبعده عن الفحش.

يزدن في الآخرة: يكسبن الحسنات.

خامساً ـ الحياء خلق الإسلام:

قال رسول الله ﷺ: «إنَّ لكل دين خلقاً ، وخلق الإسلام الحياء».

[رواه مالك]

فإن كانت الصرامة ملحوظة في تعاليم اليهودية على عهد موسى عليه السلام ، وكانت السماحة أي العفو والصفح ملحوظة في تعاليم المسيحية على عهد عيسى عليه السلام ، فإن الإسلام قد تميز بالحياء والدعوة إليه ، وقد ظهر الحياء مميزاً على نبي الإسلام سيدنا محمد ﷺ ، وصحابته الكرام ومن تبعهم بإحسان في كل عصر وزمان.

سادساً ـ الحياء والإيمان قرناء:

لأهمية خلق الحياء في الإسلام ، جعله الرسول ﷺ مع الإيمان قرناء أي أصحاب.

١ـ عن ابن عمر رضي الله عنهما ، قال: قال رسول الله ﷺ:

«الحياء والإيمان قرناء جميعاً ، فإذا رفع أحدهما رفع الآخر».

[رواه الحاكم]

٢ـ كذلك جعل الرسول ﷺ الحياء من الإيمان ، ويسوق إلى الجنة.

عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ :

«الحياء من الإيمان ، والإيمان في الجنة ، والبذاء من الجفاء ، والجفاء في النار» . [رواه أحمد والترمذي وابن حبان]

البذاء : هو الفحش في الكلام .

٣ـ وعن أبي هريرة رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال :

«الإيمان بضع وسبعون شعبة ، أو بضع وستون شعبة ، فأفضلها قول : لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان» .

[رواه البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجه]

ومن جملة ما يدل عليه هذا الحديث ، أهمية خلق الحياء ، وقيمته الرفيعة ، لأنه خص بالذكر من الشعب الكثيرة للإيمان .

٤ـ وعن ابن عمر رضي الله عنهما :

أن رسول الله ﷺ ، مرّ على رجل من الأنصار ، وهو يعظ أخاه في الحياء .

فقال رسول الله ﷺ :

«دعْهُ فإن الحياء من الإيمان» .

[رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجه]

يعظ أخاه : يعاتبه وينصحه .

دعه : اتركه ، أي للخلق السيء .

فسر بعضهم هذا الحديث :

بأن الرجل كان ينصح أخاه في خلق سيء ، ويذكره بالتزام الحياء « فقال رسول الله ﷺ لأخي الرجل :

دعه « أي الخلق السيء ، وبين له أن الحياء من الإيمان .

وورد الحديث برواية أخرى مفسرة لمعنى الحديث بشكل آخر :

عن ابن عمر :

أن النبي ﷺ ، مرّ على رجل وهو يعاتب أخاه بالحياء يقول: إنك تستحي حتى كأنه يقول: قد أضرّ بك.

فقال رسول الله ﷺ:

«دعه ، فإن الحياء من الإيمان». [رواه البخاري ومسلم]

دعه: هنا أي دع أخاك على ما كان عليه من الحياء ، فإن الحياء من الإيمان.

سابعاً - الحياء خير كله:

عن عمرانَ بن حُصَين رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ:

«الحياء لا يأتي إلا بخير». [متفق عليه]

وفي رواية لمسلم:

«الحياء خير كله».

أو قال:

«الحياء كله خير».

فالحياء يكف عن ارتكاب القبائح ، ودناءة الأخلاق ، ويحث على استعمال مكارم الأخلاق ومعاليها.

والحياء خلة من خلال الخير التي ينسبها الناس لأنفسهم ، ويرون من العار نقصها فيهم ، أو أن يوصفوا بالتجرد منها في معرض الشتم والذم ، ولا غرو فهي جامعة لكثير من الفضائل.

وحسبك شاهداً أنك ترى الحيي ، خفيف الظل ، عذب الحديث ، كريم النفس ، ضعيفاً في موطن الشر ، قوياً في مواطن الخير ، لا يجترىء على سيئة يفعلها ، إلا أن يستغضب فيغضب دفاعاً عن الشرف أو النفس ، وتراه أبعد الناس عن خلال السوء ، وسماع هجو القول وساقطه.

وأكثر أفعال الخير ، والقول الحَسَن ، والإحساس بالشرف ، راجع إلى ما في النفس من الحياء ، وما دام الإنسان يخشى اللوم ، وتتطلع نفسه إلى الحمد ، فهو جميل السيرة ، حميد الأثر جليل الخطر.

فالحياء خير كله ، ولا يأتي إلا بخير ، فنتائجه مضمونة ، وسيرته محمودة ، وأفعاله مشكورة ، وأحوال صاحبه مرموقة .

والحياء خير كله : يصرع الميول الفاسدة ، ويغالب نزغان الشيطان ، ويورد صاحبه آمن الموارد ، ويكسبه الحسنى وزيادة .

عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

«ما كان الفحش في شيء إلا شَانَه ، وما كان الحياء في شيء إلا زانه» . [رواه ابن ماجه والترمذي] .

وقد روي عن عمر رضي الله عنه أنه قال :

«من استحيا اختفى ، ومن اختفى اتقى ، ومن اتقى وُقي» .

وقال أحد العارفين :

«القناعة دليل الأمانة ، والأمانة دليل الشكر ، والشكر دليل الزيادة ، والزيادة دليل بقاء النعمة ، والحياء دليل الخير كله» .

ثامناً ـ الحياء رجل صالح :

لو تجسم الحياء لكان رمز الصلاح والإصلاح ، كما بين ذلك رسول الله ﷺ .

عن عائشة رضي الله عنها قالت :

قال رسول الله ﷺ :

«يا عائشة ، لو كان الحياء رجلاً كان رجلاً صالحاً ، ولو كان الفحش رجلاً لكان رجلَ سوءٍ» . [رواه الطبراني في الصغير والأوسط]

قال الحسن :

«أربع من كنّ فيه كان كاملاً ، ومن تعلق بواحدة منهنّ كان من صالحي قومه : دين يرشده ، وعقل يسدّده ، وحسب يصونه ، وحياء يقوده» .

تاسعاً ـ الحياء خُلق الصحابة والصالحين :

الحياء خلق الإسلام ، يتصف به كل مسلم يتمسك بدينه ، وقد اشتهر به الصحابة والصالحون ، في كل تصرفاتهم ، وأقوالهم ، وأعمالهم .

ولقد كان سيدنا عثمان المثل الأعلى لهذا الخلق .

فقد قال رسول الله ﷺ :

«أرحم أمتي بأمتي أبو بكر ، وأشدهم في أمر الله عمر ، وأصدقهم حياء عثمان» . [رواه الترمذي عن أنس رضي الله عنه]

حدث يوماً أن كان رسول الله ﷺ في بيته مستلقياً ، وقد انكشف عنه إزاره قليلاً ، فاستأذن عليه الصديق رضي الله عنه ، فأذن له وهو على حاله ، ثم استأذن الفاروق رضي الله عنه ، فأذن له وهو أيضاً على حاله ، ثم استأذن عثمان رضي الله عنه ، فأصلح من شأنه ، وأرخى إزاره واعتدل في جلسته ، ثم أذن له .

فسألته عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها مستغربة ومستهجنة تصرفه ، فقال :

«إن عثمان رجل حيي ، ولو أذنت له وأنا مضطجع لاستحيا أن يدخل ، ولرجع دون أن أقضي له الحاجة التي جاء من أجلها ، يا عائشة :

«ألا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة» .

أقسام الحياء :

الحياء على قسمين :

الأول: ما كان خلقاً وجبلة غير مكتسب ، وهو من أجلِّ الأخلاق التي يمنحها الله العبد ، ويجبله عليها بالفطرة .

فنرى هذا الإنسان منذ نعومة أظفاره قد منحه الله خلق الحياء ، واشتهر به كما اشتهر به سيدنا عثمان رضي الله عنه .

وهذا منحة وفضل من الله عزَّ وجلَّ على عبده، عليه أن يشكر الله على ذلك.

عن الأشج العصري قال:

قال لي رسول الله ﷺ: «إنَّ فيك خصلتين يحبهما الله.

قلت: وما هي؟

قال: الحلم والحياء.

قلت: أقديماً كان أم حديثاً؟

قال: بل قديماً.

قلت: الحمد لله الذي جعلني على خليقتين يحبهما الله».

[رواه أحمد والنسائي وغيرهما]

الثاني: ما كان مكتسباً من طريق معرفة الله، ومعرفة عظمته، وقربه من عباده وإطّلاعه عليهم، وعلمه خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

فهذا من أعلى خصال الإيمان، بل هو من أعلى درجات الإحسان.

وعلى المسلم أن يسعى في اكتساب هذا الحياء، وعلى أعلى مستوى.

ومن هذا القسم، ما ورد عن النبي ﷺ من أحاديث تحث المسلمين على التخلق بالحياء.

روى عن أبي أمامة رضي الله عنه: أن النبي ﷺ وصَّى رجلاً فقال له: «استحي من الله استحياءك من رجلين من صالحي عشيرتك».

[رواه ابن عدي]

أنواع الحياء:

للحياء أنواع كثيرة:

أولاً ـ الحياء من الله سبحانه تعالى:

ـ وهذا الحياء أعلى أنواع الحياء، وهو استحياء الإنسان من ربه فلا يعصيه ولا يقصر في طاعته.

ـ وهذا الحياء يكون بفعل ما أمر الله به ، واجتناب ما نهاه عنه ، وبهذا يحرز الإنسان دينه ، ويفوز بسعادة الدنيا والآخرة.

ـ هذا وقد شرح الرسول ﷺ هذا النوع من الحياء:

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«استحيوا من الله حق الحياء. قال: قلنا يا نبي الله ، إنا لنستحي ، والحمد لله. قال: ليس ذلك ، ولكن الاستحياء من الله حق الحياء: أن تحفظ الرأس وما وعى ، وتحفظ البطن وما حوى ، ولتذكر الموت والبلى ، ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا ، فمن فعل ذلك ، فقد استحيا من الله حق الحياء».

[رواه الترمذي]

فالحياء من الله حق الحياء كما في الحديث السابق:

١ ـ أن يحفظ المؤمن رأسه وذلك بأن لا يسجد به لغير الله ، وأن يحفظ ما وعى الرأس ، أي ما جمعه من الحواس الظاهرة ، (كالسمع والبصر والفم ، فلا يستمع ولا ينظر إلى محرم ، ولا يتكلم إلا بما يرضي الله).

والحواس الباطنة ، (كالتفكير والإدراك في عقله) بأن يستخدمها ضمن العقيدة الصحيحة والشريعة السمحة ، وما يحبه الله سبحانه وتعالى.

٢ـ أن يحفظ المؤمن بطنه ، من أن يمس محرماً ، وأن يحفظ ما حوى بطنه ، أي ما جمعه من القلب والفرج والمعدة واليدين والرجلين فإنها لاتصال عروقها بالبطن يقال إن البطن حوتها ، فلا يستعمل منها شيئاً في معصية الله ، فإن الله ناظر إلى عبده في الأحوال كلها.

٣ ـ أن يذكر المؤمن الموت والبلى ، أي نزولهما به ، وهذا تعليم لسبب تحصيل الحياء المتقدم ، لأن من ذكر أن عظامَه تصير بالية ، وأعضاءَه متمزقة ، هان عليه ما فاته من اللذات العاجلة ، وأهمه ما يلزمه من طلب الآجلة وعمل على إجلال الله تعالى وتعظيمه.

وهذا يدعو المؤمن للعمل الصالح ، ويبعده عن معصية الله سبحانه.

٤ ـ أن يسعى المؤمن للآخرة ، أي للفوز بنعيمها ، وذلك بترك زينة الحياة الدنيا ، لأن الآخرة خلقت لحظوظ الأرواح وقرة الأعين ، والدنيا خلقت لموافقة النفوس ، وهما ضرتان إذا أرضيت إحداهما غضبت الأخرى .

وفي الحديث :

«من أحب دنياه أضرَّ بآخرته ، ومن أحبّ آخرته أضرّ بدنياه» .

[رواه أحمد والطبراني والقصاعي وغيرهم]

عن أبي موسى رفعه بزيادة : «فآثروا ما يبقى على ما يفنى» .

فمن فعل ذلك ، أي جمع ما مرَّ ، فقد استحيا من الله تعالى حق الحياء ، أي أورثه ذلك الفعل الاستحياء منه تعالى ، فارتقى إلى مقام المراقبة الموصل إلى درجة المشاهدة .

قال أحد شراح الحديث :

ظهر من هذا أن جبلة الإنسان وخلقته من رأسه إلى قدمه ، ظاهرة وباطنة ، معدن العيب ومكانه ، وأنه تعالى هو العالم بها ، فعلى العبد أن يستحي منه ، ويصونها عما يعاب فيها .

وقال بعضهم :

من استحيا من الله حق الحياء ، ترك الشهوات ، وتحمل المكاره والمشاق ، حتى تصير نفسه مصقولة ، فعندها تظهر محاسن الأخلاق ، وتشرق الأنوار في قلبه ويقوى علمه بالله ، فيعيش غنياً ما عاش .

فإذا ما استحى العبد من الله حق الحياء ، استحق ما ورد في الأثر الإلهي .

يقول الله عز وجل :

«ابن آدم : إنك ما استحييت مني ، أنسيتُ الناسَ عيوبك ، وأنسيتُ الأرض ذنوبك ، ومحوت من أم الكتاب زلاتك ، وإلا ناقشتك الحساب يوم القيامة» .
والحياء في أسمى منازله ، وأكرمها يكون من الله عز وجل ، فنحن نُطعَم من خيره ، ونتنفس في جوه ، وندرج على أرضه ، ونستظل بسمائه .

والإنسان بإزاء النعمة الصغيرة من مثله يستحي أن يقدم إلى صاحبها إساءة، فكيف لا يوجل الناس من الإساءة إلى ربهم، الذي تغمرهم آلاؤه من المهد إلى اللحد، وإلى ما بعد ذلك من خلود طويل؟!.

إنَّ حقَّ الله على عباده عظيم، ولو قدروه حقَّ قدره لسارعوا إلى الخيرات، يفعلونها من تلقاء أنفسهم، ولباعدوا عن السيئات خجلاً من مقابلة الخير المحض، بالجحود والخسة.

إن الإنسان في حضرة الرجال الذين يجلهم، ويحرص على إرضائهم، يضبط سلوكه ضبطاً محكماً، فيتكلم بقدر، ويتصرف بحذر.

والمسلم الذي يعرف من تعاليم دينه أنه لا يغيب عن الله أبداً، لأنه ماثل في حضرته ليلاً ونهاراً، ينبغي أن يكون تهيبه لجلال الله أعظم، وتأدبه بشرائعه أحكم، وذلك معنى الأثر:

«استحي من الله كما تستحي من أولي الهيبة في قومك».

فالحياء من الله سبحانهُ، يقتضي أن لا يكذب العبد أو يسرق أو يغش أو يخون أو يظلم أو يخادع أو يمكر بالناس، لأنه يعلم أن الله يراه وهو يستحي أن يعصيه.

والحياء من الله يقتضي من العبد ألاَّ يعصي الله أبداً ما دام يشعر أن الله معه، يراه وناظر إليه، فهو يستحي منه أن يراه في معصية.

وليس من الحياء ألاَّ نسأل الله ما نريد، بل يحبنا الله أن نكون له مطيعين، وأن نعرف أنه لا ربَّ سواه يعبد ويُقصَد ويلتجأ إليه، وأن نسأله ما نريد حتى في أمورنا الدنيوية البسيطة.

قال موسى عليه السلام:

«يا رب إني لتعرض لي حاجة من الدنيا، فأستحي أن أسألك.

فأوحى الله إليه:

أن سلني حتى ملح عجينك، وعلف دابتك».

أما المؤمن الذي يعصي الله ويرتكب محارمه، وهو غافل عن الله، ثم

يسأل الله أن يحقق له حاجاته ، وكأن شيئاً لم يكن ، ودون أن يستحي أو يتوب مما فعل ، فهذا ليس من الحياء في شيء .

قال أحد الصالحين :

«أنفع الحياء ، أن تستحي من الله أن تسأله ما تحب ، وتأتي ما تكره» .

ولقد ورد في بعض الكتب المنزلة :

يقول سبحانه :

«ما أنصَفني عبدي، يدعوني فأستحي أن أرده، ويعصيني فلا يستحي مني» .

بل من الحياء من الله أن يستحي المؤمن من ربه بعد أن يؤدي ما عليه من عبادات وطاعات من أنه قصَّر فيها أو غفل عن الله في بعضها ، أو لم يؤدها كما أمره الله سبحانه .

قال أحدهم :

ربما أصلي ركعتين لله تعالى فأنصرف ، وأنا بمنزلة من يُصرف عن السرقة ، حياءً من الله سبحانه ، لأني لم أُوَفِّها حقها .

ثانياً : الحياء من الناس :

ـ بأن لا يعمل المسلم عملاً يخالف الشرع ويؤذي الناس ، بما تستقبحه عقولهم وتمجه أذواقهم .

ـ ويكون بكف الأذى واتقاء القبيح من قول وفعل ، وفي هذا ما يرفع من قدره ويقربه من النفوس ، ويحببه إلى القلوب .

ـ قال حذيفة بن اليمان رضي الله عنه :

«لا خير فيمن لا يستحي من الناس» .

وقال الأصمعي : سمعت أعرابياً يقول :

من كساهُ الحياءُ ثوبَه ، لم يرَ الناسُ عيبَه .

ـ ومن هذا الحياء ، أن يعرف لأصحاب الحقوق منازِلهم ، وأن يؤتي كل ذي فضلٍ فضله .

فللغلام من يكبرونه ، وللتلميذ مع من يعلمونه ، وللمسلم مهما كبر سنه وعلا منزله مع من له علاقة معهم ، كل أولئك يوجب الحياء عليهم أن يتخلّقوا بأخلاق الإسلام ويتأدبوا بآدابه المختلفة في جميع الأمور من التقدير والاحترام وخفض الصوت وغير ذلك .

وفي الحديث :

«تواضعوا لمن تعلمون منه» . [رواه الطبراني]

وفي الحديث كذلك :

«اللهم لا يُدْرِكُني زَمَانٌ لا يُتْبَعُ فيه العَليمُ ، ولا يُسْتَحيا فيه مِنَ الحليم» .

[رواه أحمد]

وعن عبد الله بن يسر :

لقد سمعت حديثاً منذ زمان :

«إذا كنت في قوم فتصفحت وجوههم فلم ترَ فيهم رجلاً يهاب في الله عز وجل ، فاعلم أن الأمر قد رقَّ!!» . [رواه أحمد]

ذهب بعض الصالحين للمسجد ، فرأى الناس وقد انصرفوا بعد أداء الصلاة فتوارى خجلاً ، فلامه البعض في هذا .

فقال : من لا يستحي من الناس لا يستحي من الله .

ومواقف الحياء من الله ومن الناس كثيرة منها :

١ ـ أن لا يرتدي المسلم ملابساً ضيقة أو قصيرة تظهر العورات ، أو غير لائقة ، أو مخالفة للعرف والشرع ، وليس فيها حشمة ولا أدب .

٢ ـ أن لا يرفع صوته في الطرقات والشوارع والحافلات العامة صائحاً أو منادياً للآخرين أو أثناء الحديث مع الآخرين .

٣ ـ أن لا يتكلم بالكلام الفاحش البذيء أمام الناس ولو كان مازحاً .

٤ ـ أن لا يلتفت هنا وهناك أثناء سيره ، ولا ينظر من خلال أبواب المنازل المفتوحة أو النوافذ أو الشرفات ، بل يمشي وهو ينظر إلى طريقه كيف يسير.

٥ ـ أن لا يتقدم بالسير على من هم أكبر منه سناً أو قدراً.

٦ ـ أن لا يلعب في الطرقات والشوارع ، وأن لا يقف فيها أو يجلس إلا لحاجة ضرورية.

٧ ـ أن لا يتعرَّض للفتيات ، وأن يعتبر كل فتاة هي أخته ، وليعاملها على هذا الافتراض فهل يرضى لأخته أن يكلمها أحد أو يسير معها.

٨ ـ أن لا يرفع صوته أثناء الحديث مع الآخرين أو يقاطعهم في الكلام وخاصة من هم أكبر منه سناً أو قدراً.

٩ ـ أن لا يمزح مع الآخرين أو يسخر منهم ، وخاصة من هم أكبر منه سناً أو قدراً.

١٠ ـ أن لا يرفع صوت الرائي أوالمذياع أو آلة التسجيل إلا بمقدار سمعه ، وخاصة في ساعات الليل حتىٰ لا يزعج أحداً من جيرانه.

ثالثاً: الحياء من نفسك:

أن يستحي المسلم أن يعمل عملاً فيه معصية لله في السر والخفاء بعيداً عن الناس فهو يعلم أن الله يراه ، فيستحي منه ، ويستحي من نفسه التي بين جنبيه ، فلا يرضى المسلم لنفسه أن يكون صاحب وجهين مختلفين ، وجه مع نفسه ، وآخر مع الناس.

قال أحد الأدباء:

«ليكن استحياؤك من نفسك أكثر من استحيائك من غيرك».

واستحياء الإنسان من نفسه ، يعد من أشرف أنواع الحياء ، لأن المرء إذا استحيا من نفسه فهو من غيره يكون أشدَّ استحياء.

قال أحدهم:

«من عمل في السر عملاً يستحي منه في العلانية ، فليس لنفسه عنده قدر» .

والحياء من نفسك يعني أن لا تكذب على الناس ، فنفسك تعرف حقيقة الأمر وتعرف أنك تكذب ، فإن صدَّق الناس قولك ، فكيف تُرضِي نفسك إن كنت صاحب إيمان وقلب ومراقبة لله؟؟ .

وكذلك الأمر في كل تصرفاتك مع الناس من أقوال وأعمال ، فلا تغش ، أو تسرق ، أو تظلم ، أو تمكر ، أو تخون ، لأنك تخشى الله أولاً ، وتخشى من نفسك أن تفعل ذلك بالناس والله أعلم بحقيقة الأمر وكذلك نفسك .

فإن كنت لا تخشى الله في تصرفاتك لضعف إيمانك ، فكيف ترضي نفسك التي بين جنبيك إن كنت صاحب إحساس وشعور؟؟ .

قال أحد الحكماء :

«من تسربل بسربال الحياء صان اللسان ، وعقل الجوارح عن الشهوات والمعاصي ، ولم ير حيث نهاه الله ، وكان في ميادين الخير سابقاً» .

وقال غيره :

«اجعل الحياء حكماً على أفعالك» .

درجات الحياء :

يرى أهل العلم كما يذكر الإمام الهروي : أن الحياء على ثلاث درجات :

ـ الدرجة الأولى : هي الحياء الذي يتولد من علم العبد بأن الله ناظر إليه ، فيدعوه ذلك إلى الدأب في الطاعة والنفور من المعصية .

ـ والدرجة الثانية : هي الحياء الذي يتولد في العبد عند شعور قلبه بأن الله تعالى معه ، وأنه مع الله ، وأن الله قريب منه بالإجابة والإنابة .

ـ والدرجة الثالثة : هي الحياء الناشيء من انخلاع قلب العابد من التعلق بالكائنات ، وعكوفه على ربِّ البريات ، بحيث لا يرى المرءُ مع الله غيرَه ، ولا يخطر بباله في تلك الحالة سواه .

قال أحدهم:

الحياء رؤية الآلاء (أي النعم) ورؤية التقصير، فيتولد بينهما حالة تسمى الحياء، وحقيقته خلق يبعث على ترك القبائح، ويمنع من التفريط في حق صاحب الحق.

مظاهر الحياء:

يظهر الحياء في مواقف الحياة كلها، وهي كثيرة منها:

١ ـ الحياء في الدعوة:

الداعي إلى الله يستحي من أن يدعو الناس لأمر وهو لا يفعله، ويأمرهم بالمعروف وهو يعمل المنكر. قال الله تعالىٰ معاتباً بني إسرائيل:

﴿ ۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾.

[البقرة: ٤٤]

فالداعي إلى الله قدوة، وهو قدوة حسنة، فهو يعظ نفسه ويؤدبها حتى إذا ما صلحت دعا الناس إلى ما أدب نفسه عليه.

أوحى الله إلى عيسى عليه السلام:

«عظ نفسك فإن اتعظت فعظ الناس، وإلا فاستحي مني أن تعظ الناس».

وهاهو ذا الإمام أبو حنيفة يضرب أروع الأمثلة في ذلك:

ترك درسه في الفقه عند باب العتق، ثم عاد للتدريس بعد سنة، وعندما سئل عن سبب ذلك قال: لأنني لم أعتق عبداً قبل ذلك، لذلك عملت سنة حتى جمعت ثمن عبد وأعتقته، ثم عدت إلى درس العلم لأتكلم عن العتق.

٢ ـ الحياء في الكلام:

وهو على أنواع منها:

أ ـ الاقتصاد في الكلام:

وذلك بأن يقتصد المسلم في تحدثه بالمجالس، فإن بعض الناس

لا يستحون من امتلاك ناصية الحديث في المجالس الجامعة ، فيملؤون الأفئدة بالضجر من طول ما يتحدثون ، وقد كَرِه الإسلام هذا الصنف.

قال رسول الله ﷺ:

«من تعلم صرف الكلام (أي بلاغته) ليستبي به قلوب الرجال ، لم يقبل الله منه يوم القيامة صرفاً ولا عدلاً». [رواه أبو داود]

وقال أيضاً رسول الله ﷺ:

«إِنَّ اللهَ يُبْغِضُ البليغ مِنَ الرِّجَالِ الذي يَتَخَلَّلُ بِلِسَانِهِ كَمَا تَتَخَلَّلُ البَقَرَةُ».

[رواه الترمذي]

وسر هذا البغض أن أخبار هؤلاء لا تخلو من التزيد أو الرياء.

وكذلك جاء في بعض الآثار في ذلك أن العي أفضل من هذا الإفصاح وهو عي اللسان لا عي القلب.

عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«الحياءُ والعي شعبتان من الإيمان ، والبذاءة والبيان شعبتان من النفاق».

[رواه الترمذي]

ب ـ ومن الحياء في الكلام ، أن يستحي المسلم أن يتكلم بأمر يسيء إلى الآخرين من غيبة أو نميمة أو استهزاء أو سخرية ، أو أن يتكلم بفحش أو بذاءة ، ولو كان مازحاً ، فلا يتكلم بفكاهات فاحشة بذيئة ليضحك الآخرين فقد أضحك الناس وأغضب الله سبحانه وتعالى.

٣ ـ الحياء في السمع:

وذلك بأن يحجب المسلم سمعه من أن يسمع ما فيه معصية لله ، من غناء أو فكاهة أو كلام فاحش أو بذيء غيبة أو نميمة أو استهزاء أو سخرية بالآخرين ، وذلك بالبعد والابتعاد عن أصحاب هذه المعاصي وعدم مصاحبتهم أو الاختلاط بهم.

٤ ـ الحياء من الذنب:

وهو الشعور الذي يعتري نفس المذنب، فيخجل من ذنبه ويستحي من الله كيف وقع في هذا الذنب الذي يبعده عن الله عز وجل؟.

كما يستحي من الناس إن شاهدوه على ذنبه، كما يستحي من نفسه كيف غفل عن الله ووقع في هذا الذنب.

٥ ـ الحياء من التقصير:

وهو أن يفعل الإنسان خيراً، ولكنه يراه دون ما ينبغي فيستحي، وهذا دأب الصالحين مهما عملوا من أعمال خيرة شعروا أنهم مقصرون في حق الله عليهم وخجلوا من تقصيرهم ومما قدموه.

٦ ـ حياء الإكبار:

وهو استحياء الصغير من الكبير الجليل.

عن أبي سعيد رضي الله عنه قال:

«لقد كنت على عهد رسول الله ﷺ غلاماً، فكنت احفظ عنه، فما يمنعني من القول إلا أن ههنا رجالاً هم أسن مني». [رواه الشيخان]

٧ ـ حياء الاحتشام:

وهو خجل الإنسان من التبسط في الكلام مع من يهابه، كحياء سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن يسأل رسول الله ﷺ عن المذي لمكان ابنته منه.

قال البراء بن عازب رضي الله عنه:

«لقد كنت أريد أن أسأل رسول الله ﷺ عن الأمر فأؤخره سنتين من هيبته».

وكما حدث مع عبد الله بن عمر:

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ـ وكان دون الحلم ـ أن رسول الله ﷺ قال:

«إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها ، وإنها مثل المسلم » فحدثوني ما هي؟ فوقع الناس في شجر البوادي .

قال عبد الله : ووقع في نفسي أنها النخلة ، فاستحييت .

ثم قالوا : حدثنا ما هي يا رسول الله؟

قال : هي النخلة» .

وفي رواية :

«فأردت أن أقول : (هي النخلة) ، فإذا أنا أصغر القوم» .

وفي رواية :

«ورأيت أبا بكر وعمر لا يتكلمان ، فكرهت أن أتكلم ، فلما قمنا حدثت أبي بما وقع في نفسي ، فقال : لأن تكون قلتَها أحبَّ إليَّ من أن يكون لي حُمر النعم» . [رواه البخاري وغيره]

وهنا نجد أن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، لم يتكلم حياء لصغر سنه ولوجود من هو أكبر منه ، ولكن والده بينَّ أنه كان عليه أن يتكلم لأن الحياء في مجالس العلم لا يمنع من السؤال والجواب .

وقد أشارت إلى ذلك السيدة عائشة رضي الله عنها في قولها :

«رحم اللهُ نساءَ الأنصارِ ، لم يمنعهن الحياءُ أن يسألن عن أمر دينهن» .

٨ ـ حياء الكرم :

وهو استحياء الرجل الكريم إذا أعطى وأحسن بأن ما أعطاه دون ما ينبغي .

كحياء النبي ﷺ من القوم الذين دعاهم إلى وليمة زينب ، وأطالوا الجلوس عنده ، فقام واستحى أن يقول لهم : انصرفوا .

٩ ـ حياء العورة :

ويسمى حياء الستر ، وهو استحياء الإنسان من أن يظهر عورته أمام الآخرين أو أن ينظر إلى عورات الآخرين .

عن يعلى بن أمية رضي الله عنه:

أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً يغتسل في الفلاة بلا إزار، فصعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال:

«إن الله حييٌ ستير يُحبُ الحَياءَ والسَّترَ، فإذا اغتسل أَحدكم فَلْيستَتِر».

[رواه أبو داود والنسائي]

سئل النبي ﷺ عن كشف العورة خالياً، فقال:

«إنَّ الله أحق أن يستحيا منه». [رواه أحمد وأبو داود والترمذي وغيرهم]

وقد قال رسول الله ﷺ:

«إنَّ الله ينهاكم عن التعري فاستحيوا من ملائكة الله تعالى الذين معكم، الكرام الكاتبين الذين لا يفارقونكم إلا عند إحدى ثلاث حالات: الغائط، والجنابة، والغسل، فإذا اغتسل أحدكم بالعراء فليستتر بثوبه، أو بجرم حائط أو ببعيره». [رواه البزاز]

وقد ورد في الحديث الشريف:

«ليستحِ أحدكم من ملكيه اللذين معه، كما يستحي من رجلين صالحين من جيرانه، وهما معه بالليل والنهار».

[رواه البيهقي في شعب الإيمان عن أبي هريرة رضي الله عنه]

وهذا من أهم ما يجب على الوالدين في موضع الحياء أن يعلموه لأولادهم منذ الصغر بأن يعرفوهم معنى العورة وحدودها وضرورة سترها عن الآخرين ولو كانوا صغاراً.

وكيف يكون ارتداء الملابس وخلعها حتى أمام إخوتهم ولو كانوا صغاراً.

وكذلك كيف يحفظون أنفسهم من النظر إلى عورات الآخرين.

١٠ ـ حياء المرأة:

حياء المرأة في الإسلام يظهر أكثر مما هو عند الرجال، وهذا يظهر منذ

الصغر فبالفطرة نجد البنات أكثر حياء من الأولاد الذكور ، وكذلك طبيعة تربيتها وسلوكها تعطيها حياء أشدَّ.

وقد ورد في الحديث :

«الحياءُ عشرةُ أَجزاء ، فتسعةٌ في النساء، وواحدٌ في الرجال» .

[رواه الديلمي في الفردوس عن ابن عمر رضي الله عنهما]

وقد قيل :

«إن كان الخجل مذموماً في الرجال ، فهو محمود في المرأة» .

ومواقف الحياء عند المرأة كثيرة: في كلامها وسمعها ونظراتها وملابسها وحجابها وكل تصرفاتها ومعاملاتها .

ولقد اعتنى القرآن الكريم في تربية الحياء عند المرأة في كثير من المواضع والآيات :

قال تعالى :

﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ . [الأحزاب : ٣٣]

﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ﴾ . [الأحزاب : ٥٣]

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ﴾ . [الأحزاب : ٥٩]

﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ ﴾ .

[النور : ٣١]

وقد وصف القرآن المرأة بنت الأنبياء كيف تربى على الحياء وخاصة في مشيها وحديثها مع الآخرين: ﴿ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ﴾ . [القصص : ٢٥]

١١ ـ من مظاهر الحياء:

أن يخجل الإنسان من أن يؤثر عنه سوء، وأن يحرص على بقاء سمعته نقية من الشوائب، بعيدة عن الإشاعات السيئة كما فعل الرسول ﷺ، عندما رآه بعض أصحابه مع زوجته صفية بنت حيي رضي الله عنها.

عن علي بن الحسين رضي الله عنه قال:

«أن النبي ﷺ أتته صفية بنت حيي، فلما رجعت انطلق معها، فمرَّ به رجلان من الأنصار، فدعاهما فقال: (إنما هي صفية).

قالا سبحان الله!.

قال: إنَّ الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم».

[رواه البخاري]

١٢ ـ ومن مظاهر الحياء:

أنه من لوثته قاذورات المعاصي عليه أن يتوارى عن الأعين، كما أمر رسول الله ﷺ:

«إذا ابتليتم بالمعاصي فاستتروا». [البيهقي]

١٣ ـ ومن مظاهر الحياء:

أن الإنسان إذا فعل القبائح التي سترها الله، عليه أن يتوب، وألاّ يكشف ما ستره الله عنه.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال:

قال رسول الله ﷺ:

«كل أمتي معافى إلا المجاهرين، وإنَّ مِنَ المجاهرة أَنْ يعملَ الرجلُ بالليل عملاً، ثم يصبح وقد سَتَرَهُ الله عليه فيقول أيا فلان عمِلت كذا وكذا، وقد باتَ يستُرُهُ ربُهُ، وهو يُصبحُ يكشفُ ستر اللهِ عليه». [رواه الشيخان]

الفرق بين الحياء والخجل:

ـ يخلط الناس بين الحياء والخجل.

فالحياء كله خير ، والخجل مع أنه العنصر البارز في الحياء ، إلا أنه يقع في الخير والشر ، وقد يجر صاحبه إلى درجات سيئة .

ـ وقد يكون الخجل أحياناً مرضاً فيه خوف وفيه ارتباك ، وفيه ضعف شخصية .

ـ فالمؤمن فيه خجل الحياء ، وليس فيه خجل الضعف والمرض والاستسلام، لذلك قالوا :

الحياء في الصبي خير من الخوف ، لأنَّ الحياء يدل على العقل ، والخوف يدل على الجبن .

ـ أما الحياء ففيه قوة مع كل ما ذكرناه .

ـ فعندما عاب المشركون على الإسلام أنه حقَّر الأصنام وفضح عجزها عن خلق ذبابة نزل قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ . [البقرة : ٢٦]

ـ ومع كل حياء الرسول ﷺ ، والصحابة والصالحين ، لم يمنعهم هذا الحياء من أن يقفوا أمام الباطل بشدة وقوة ، والأمثلة على ذلك كثيرة .

ـ وليس من الحياء أن يضعف المسلم أمام معاملات الناس ، فيجعل من نفسه أضحوكة أو ألعوبة أو مجال استهزاء ، أو يترك لهم المجال ليتلاعبوا عليه في المعاملات والأمور الأخرى .

ـ المسلم في سبيل إحقاق الحق لا يتهيب أحداً ولا يخشى بأساً .

قال الحكماء : «حياء الرجل في غير موضعه ضعف» .

قال أحد الحكماء : «والخجل وإن كان مذموماً في الرجال محمود في المرأة، فإنَّ التي لا تجد رادعاً من حيائها، عما يشينها أو ينقص منزلتها، لا تبالي أن تفعل كل ما تميل إليه نفسها ، وإنك حيث تمر أو تقف لا تجد غير وجوه

سافرة، وزينة بادية، وثياب قصيرة مطرزة وبراقع تشف عن كل شيء إلا الحياء.

مما دل على أن في النساء من لم تحرص على حيائها، ولم تعبأ بأوامر دينها، فلم ترَ بأساً فيما تفعله، وإذا حُدِّثَت في شأنها زعمَت أنها تقفو أثر أختها الغربية، وتترسم خطاها، في الأخذ بأساليب المدنية الحديثة.

وإنها لحال تذيب حياة القلوب، وتتصدع لهاالمرائر، وتذهب النفوس في إثرها حسرة وأسفاً».

فـضائـل الحـياء:

ورد في كتاب الترغيب والترهيب الجزء الثالث خلاصة لفضائل الحياء كما بينها ﷺ، منها:

١ ـ المستحي يدل على شدة إيمانه وكمال دينه وعنوان تقواه: «الحياءُ شعبةٌ مِن الإيمان». [رواه البخاري وغيره]

٢ ـ عاقبة الاستحياء النجاة والنجاح والسلامة من أدران النقائص، ودخول الجنة والبعد عن النار:

«الحياء والعي من الإيمان وهما يقربان من الجنة ويباعدان من النار». [رواه الطبراني].

٣ ـ ثواب الحياء كنوز مدخرة، وأجرها جزيل في الآخرة.

٤ ـ هيئة المستحي جميلة يكسوها الوقار والهيبة وتحفها الزينة والإجلال ولو مُثِّلَ كان (رجلاً صالحاً).

٥ ـ المستحي أعماله صالحة، وهو موفق (إلا زانه).

٦ ـ وحركات المستحي وسكناته كلها في طاعة، فلا يفكر أو يأكل أو يشرب أو يسمع أو يتكلم إلا ما يرضي الله جلَّ وعلا (حَقَّ الحَياء).

قال ابن قيم الجوزية في كتابه مفتاح دار السعادة:

«ثم تأمل هذا الخُلُق الذي خُصَّ به الإنسان دون جميع الحيوان، وهو خلق

الحياء الذي هو من أفضل الأخلاق وأَجلها وأعظمها قدراً ، وأكثرها نفعاً ، بل هو خاصة الإنسانية ، فمن لا حَياء فيه ليس معه من الإنسانية إلا اللحم والدم وصورتهما الظاهرة ، كما أنه ليس معه من الخير شيء ، ولولا هذا الخُلُق لم يقر الضيف ، ولم يُوفَ بالوَعد ولم يؤدَ أمانة ، ولم يقض لأحدٍ حاجة ، ولا تحرى الرجلُ الجميلَ فآثره ، والقبيحَ فتجنبه ، ولا ستر له عورة ، ولا امتنع من فاحشة ، وكثير من الناس لولا الحياء الذي فيه ، لم يؤد شيئاً من الأمور المفترضة عليه ، ولم يرع لمخلوق حقاً ، ولم يصل له رحماً ، ولا برَّ له وَالداً فإن الباعث على هذه الفعال ، إما ديني ، وهو رجاء عاقبتها الحميدة ، وإما دنيوي علوي ، وهو حياء فاعلها من الخلق ، قد تبين أنه لولا الحياء إما من الخالق أومن الخلائق لم يفعلها صاحبها».

ضد الحياء :

السفه والوقاحة والفحش والبذاءة كلها أضداد الحياء .

وهي عدم المبالاة بالأقوال والأفعال التي يشمئز منها العقل والنفس والإحساس السليم ، ويخجل من سماعها أو رؤيتها كل عاقل حكيم ، أو مؤمن رشيد .

ويقوم صاحبها بها دون خوفٍ من الله ، ودون وازعٍ ضمير ولا إيمان .

وهذه الأمراض تشكل أمراضاً خطيرة ، فإذا ما فقد الشخص حياءه وفقد أمانته ، أصبح وحشاً كاسراً شرساً ينطلق معربداً وراء شهواته ، يدوس في سبيلها أزكى العواطف .

ومثل هذا الشخص الشرس ، لن يجد له قلباً يعطف عليه ، بل إنه يغرس الضغائن في القلوب وينميها .

ومَنْ نُزِعَ الحياءُ منه ، كان ذلك دليلَ هلاك ، كما بيَّنَ ذلك رسول الله ﷺ :

روي عن ابن عمر رضي الله عنهما : أنَّ النبي ﷺ قال :

«إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ إذا أرادَ أَنْ يُهلِكَ عبداً نَزَعَ منهُ الحياءَ ، فإذا نَزَعَ مِنهُ الحياءَ

لم تلقه إلا مَقِيتاً ، فإذا لَمْ تَلقَهُ إلا مَقِيتاً نُزِعتْ مِنهُ الأَمانةُ ، فإِذَا نُزِعتْ مِنهُ الأَمانَةُ لم تَلقَهُ إلا خائناً مخوناً ، فإذا لم تَلقه إلا خائناً مخوناً نُزِعتْ منهُ الرَّحمةُ ، فإذا نُزِعتْ مِنهُ الرَّحمةُ لم تَلقه إلا رَجِيماً مُلعَّناً ، فإذا لَمْ تَلقَهُ إلا رَجِيماً مُلعَّناً نُزِعتْ مِنهُ رِبقَةُ الإِسلامِ» . [رواه ابن ماجه]

وتلك الصفات شرٌّ ، والشر لا ترتسم مظاهره إلا على الوجوه السمجة ، ولا تسكن دواعيه إلا قلوب الهمج الرعاع ، الذي عروا من حلل الحياء ، وإذا تخلى الحياء عن إنسان ، سارع إلى الغواية ، وكان هدفاً للمعاصي .

ومن لا حياء فيه ، لا خير فيه ، يجده الناس شتّاماً صخّاباً سبّاباً غادراً مختالاً جريئاً على هتك الحرمات ، مقصراً في حقوق الله ، ظالماً قاسياً .

عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

«ما كانَ الفحشُ في شيءٍ إلا شَانَهُ ، وما كانَ الحياءُ في شيءٍ إلا زَانه» .

[رواه ابن ماجه والترمذي]

وخلق الحياء وثيق الصلة بيقظة الضمير ، ويقظة الضمير وثيقة الصلة بحياة القلب وصفائه .

لذلك يرى ابن القيم أن الحياء من الحياة ، وعلى حسب حياة القلب يكون فيه خلق الحياء ، وأنَّ قلَّةَ الحياء من موت القلب والروح ، فكلما كان القلب أحيى كان الحياء أتم .

ويرى أهل الصلاح : أَنَّ القلبَ إذا حُرِمَ الحياءَ أَصبحَ لا خير فيه .

وعمارةُ القلب بالهيبة والحياء ، فإذا ذهبا من القلب لم يبق فيه خير .

لذلك يقول الإمام الغزالي :

أَحيوا الحياءَ بمجالسةِ مَنْ يُستحيا منهُ .

ومِنَ المشاهد المجرب ، يلاحظ أن خلق الحياء يمنع صاحبه عن ارتكاب النقائص والقبائح والمنكرات ، أما حينما ينعدم خلق الحياء ، فإنه يهون على

الإنسان أن يفعل من النقائص والقبائح والمنكرات ما يشاء ، وإعلاناً عن هذه الحقيقة جاء في الحديث :

عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ :

«إن مما أَدْرَكَ الناسُ من كلامِ النبوةِ الأُولىٰ : إذا لَمْ تَستَحِي فاصنَعْ ما شئت»

[روه البخاري وأحمد وأبو داود وابن ماجه]

قال أبو بكر بن محمد الشاشي في أصول الفقه :

معنى هذا الحديث : «أن من لم يستحي دعاه ترك الحياء إلى أن يعمل ما يشاء ، لا يردعه عنه رادع ، فليستحي المرء فإنَّ الحياءَ يردعه» .

وقال أبو بكر الرازي : أن المعنى فيه :

إذا عُرِضت عَليك أَفعالك التي هممت بفعلها فلم تستحي منها لحسنها وجمالها ، فاصنع ما شئت منها .

فجعلَ الحياءَ حكماً على أفعاله .

قال الفضيل :

خمس من علامات الشقوة :

القسوة في القلب ، وجمود العين ، وقلة الحياء ، والرغبة في الدنيا ، وطول الأمل .

أقوال الشعراء في الحياء :

قال حبيب بن أوس :

إذا لم تخشَ عاقبة الليالي	ولم تستَحِ فاصنع ما تشاء
فلا وأبيك ما في العيش خير	ولا الدنيا إذا ذهب الحياء
يعيش المرء ما استحيا بخير	ويبقى العودُ ما بقيَ اللحاء

وقال أبو دُلَف العجلي :

إذا لم تصن عِرضاً ولم تخشَ خالقاً	ولم ترعَ مخلوقاً فما شئتَ فاصنع

وقال صالح بن جناح:

إذا قلَّ ماءُ الوجه قلَّ حياؤه ... ولا خير في وجهٍ إذا قلَّ ماؤه
حياءَك فاحفظه عليك وإنما ... يدل على فعل الكريم حياؤه

وقال آخر:

إذا رزق الفتى وَجْهاً وقَاحَاً ... تقلب في الأمور كما يشاءُ
وربَّ دنيةٍ ما حال بيني ... وبين ركوبها إلا الحياء
فكان هو الدواء لها ولكن ... إذا ذهب الحياء فلا دواء

وقال غيره:

وإنني لأرى من لا حياءَ له ... ولا أمانة وسط القوم عُريانا

* * *

واجبات الآباء والمربين

قال أحد العلماء:

واجب الآباء والمربين أن يحيوا فضيلة الحياء في نفوس الأطفال ذكوراً وإناثاً، بأن يراقبوهم في أقوالهم وأعمالهم، وينبهوهم إلى ترك ما يخالف الحياء من قول وفعل ويختاروا لهم من الرفقاء والإخوان من عُرِفوا بسمو الآداب، ويجنبوهم معاشرة السفلة، ولئام الناس والخدم ومن في طبقتهم من الرعاع، ويمنعوهم مطالعة الكتب التي تبعث فيهم الجرأة على فعل الشر وما فيه انتقاص الحياء.

وألا يُشهدوهم مناظر الرائي المفسدة للآداب، وما في معناها من التمثيل الهزلي فإنها تفسد الأخلاق وتذهب بالحياء.

وأن يختاروا لهم من المربين ممن اتصفوا بكمال الخلق والحياء، فإن المعلم هو المثل المحتذى والقدوة الصالحة، وعليهم كذلك أن يعالجوا الخجل عند الأحداث بما هدت إليه الخبرة والتجربة.

وقال غيره:

في مستهل حياة الصبي يبرز خلق الحياء، ويأخذ طريقه إلى النمو، وهنا تظهر أهمية المربي في تنميته واستثماره، ليقوى على دفع الصبي إلى الفضيلة وتنفيره من الرذيلة.

والحياء نوعان:

أحدهما: ما كان خلقاً وجبلة غير مكتسب، وهو من أجل الأخلاق التي يمنحها الله للعبد، ويجبله عليها، ولهذا قال ﷺ:

«الحياء لا يأتي إلا بخير».

فإنه يكف عن ارتكاب القبائح ، ودناءة الأخلاق ، ويحث على استعمال مكارم الأخلاق ومعاليها.

فهو من خصال الإيمان بهذا الاعتبار.

النوع الثاني: ما كان مكتسباً من معرفة الله ، ومعرفة عظمته ، وقربه من عباده واطلاعه عليهم وعلمه بخائنة الأعين وما تخفي الصدور.

فهذا من أعلى خصال الإيمان ، بل هو أعلى درجات الإحسان.

والنوع الثاني يدخل في دائرة اختيار الإنسان ، ومن ثم فهو المجال الذي تؤدي فيه التربية الإسلامية دورها ، ويمكن للمربي أن يكون له دور إيجابي في تنميته واستثماره.

يقول الإمام الغزالي في (الإحياء: رياضة الصبيان):

مهما رأى - أي المربي - فيه مخايل التمييز ، فينبغي أن يحسن مراقبته ، وأول ذلك ظهور أوائل الحياء ، فإنه إذا كان يحتشم ويستحي ويترك بعض الأفعال ، فليس ذلك إلا لإشراق نور العقل عليه حتى يرى بعض الأشياء قبيحاً ومخالفاً للبعض.

فصار يستحي من شيء دون شيء.

وهذه هدية من الله تعالى إليه ، وإشارة تدل على اعتدال الأخلاق وصفاء القلب ، وهو مبشر بكمال العقل عند البلوغ.

فالصبي المستحي لا ينبغي أن يهمل - بل يستعان على تأديبه بحيائه وتميزه.

ويقول ابن مسكويه:

إنّ أول ما ينبغي أن يتغرس في الصبي ويستدل على عقله: الحياء» ، فإنه يدل على أنه قد أحسّ بالقبيح ، ومع إحساسه هو يحذره ، ويخاف أن يظهر عنه أو فيه.

فإذا نظرت إلى الصبي فوجدته مستحياً ، مطرقاً بطرفه إلى الأرض ، غير وقاح الوجه ، ولا محدق إليك ، فهو أول دليل نجابته ، والشاهد لك على أن نفسه قد أحست بالجميل والقبيح ، وأن حياءه هو انحصار نفسه خوفاً من قبيح يظهر منه ، وهذا شيء من إيثار الجميل ، والهرب من القبيح ، بالتمييز والعقل ، وهذه النفس مستعدة للتأديب ، صالحة للعناية ، يجب ألاَّ تهمل ولا تترك .

وهنا لا بد أن نذكر خطأً كبيراً يقع فيه كثير من الوالدين ، وهو عندما يكون الطفل صغيراً ويختلط بالناس ، يشجعه والده على محادثة الآخرين ولو بالشتم أو الكلمات الفاحشة ، ويبدأ الجميع بالضحك معربين عن سرورهم .

وهذا خطأ فاحش يجر الطفل إلى أخلاق سيئة في المستقبل ، فإنَّ ذلك يهدم خُلق الحياء الذي ينشأ عليه الطفل بالفطرة ، بل كان من الواجب على الوالدين إن بدر من الطفل شيء فيه قلة حياء ، أو شجعه الآخرون على ذلك ، أن ينبِّهَا الطفل ويُبيِّنا له الخلقَ السليم .

وخلاصة هذه الواجبات :

١ ـ إحياء فضيلة الحياء في نفوس الأطفال ذكوراً وإناثاً ، بأن يراقبوهم في أقوالهم وأعمالهم ، ويشجعونهم على خلق الحياء ومظاهره .

٢ ـ تنبيه الأطفال إلى ترك ما يخالف الحياء من قول وفعل .

٣ ـ اختيار الرفقاء والأصدقاء لهم ممن عرفوا بسمو الآداب وعلو الأخلاق ، حتى يكتسبوا منهم ويتعلموا سلوكهم .

٤ ـ تجنيب الأطفال معاشرة السفلة ولئام الناس وأهل الفحش والبذاءة وقرناء السوء ومن لا أخلاق لهم ، حتى لا يتعلموا منهم سوء الأخلاق ويكتسبوا منهم عدم الحياء .

٥ ـ تشجيعهم على مطالعة الكتب والقصص التي تنمي فيهم الأخلاق والآداب الإسلامية .

٦ ـ منعهم من مطالعة الكتب والقصص التي تبعث فيهم الجرأة على فعل الشر وما فيه انتقاص للحياء.

٧ ـ أن لا يشهدوهم مناظر الرائي التي لا تناسبهم.

٨ ـ أن يختاروا لهم المربين ممن اتصفوا بكمال الأخلاق والحياء.

٩ ـ معالجة الخجل المَرَضِي عند الأحداث عند ظهوره بما هدت إليه الخبرة والتجربة.

١٠ ـ أن يدعوَ الآباء والمربون الله عزَّ وجلَّ أولا وأخيراً أن يوفق أولادهم سلوك الطريق المستقيم، طريق الله عزّ وجلّ، طريق رسول الله ﷺ، طريق الإسلام، طريق السعادة في الدنيا والآخرة، وأن يبعدهم عن طريق الشر والشهوات والشياطين والفسوق والفجور والمجون والنفاق والكفر.

* * *

العبرة والتطبيق:

أيها الناشئة [المؤمن والمؤمنة]:

بعد اطلاعك على كل ما يتعلق بخلق الحياء عليك أن تأخذ العبرة من ذلك وتقوم بتطبيق ما يلي:

١ ـ حاسب نفسك ولاحظ أخلاقك بما يتعلق بموضوع الحياء ومقدار تمسكك بهذا الخلق العظيم.

٢ ـ احمدِ اللهَ عزَّ وجلَّ على ما منَّ عليك من اتصافك بخلق الحياء.

٣ ـ تُبْ إلى الله واستغفره من كل ما مرَّ معكَ من تصرفات، في أقوالك وأفعالك، كانت تنافي خلق الحياء.

٤ ـ عَاهِدِ اللهَ عزَّ وجلَّ على الإقلاع عن كل أمر ـ من قولٍ أو فعلٍ ـ ينافي خلق الحياء.

٥ ـ ادعُ اللهَ أنْ يساعدك على التخلق بخلق الحياء في أعلى مستواه، في كل تصرفاتك من أقوالك وأفعالك.

٦ ـ رَاقبْ نفسك دائماً في كل أمورك أن تكون ضمن خلق الحياء، والبعد عن كل أمر بعيد عن هذا الخلق.

٧ ـ عَود نفسك أنه إذا ما أخطأت وارتكبت أمراً فيه مساءة وبعدٌ عن خلق الحياء، وأنت في حالة غفلة عن الله، أن تبادر مباشرة للاعتراف بالذنب والتوبة والاستغفار وعقد العزم على أن لا تعود لمثل ذلك الذنب.

٨ ـ اخِتر لنفسك الأصدقاء الذين عُرِفوا بسمو الأخلاق والآداب لتنتفع منهم.

٩ ـ تجنب معاشرة قرناء السوء، وأهل الفحش والبذاءة، حتى لا تتأثر بهم.

١٠ ـ تَجنب الجلوس إلى الرائي، عندما يُعرَض برامج وأفلام لا تناسبك في سنك وأخلاقك وإيمانك.

١١ ـ اِنصَحْ إخوتك وأقرباءك وأصدقاءك عندما يبدر منهم قول أو عمل منافٍ لخلق الحياء، انصحهم بترك هذا الخلق السيء وبين لهم أضراره وعلمهم التمسك بخلق الحياء في مثل هذا التصرف.

١٢ ـ ادع من تستطيع إلى هذا الخلق العظيم، وعلم من تستطيع فضيلة هذا الخلق والتمسك به، حتى تكثر الفضيلة ويعم الخير، وتقل الرذيلة، وحتى يضاف إلى أعمالك الحسنة مثلُ ثواب من دعوته إلى الخير والأخلاق الحميدة.

* * *

خُلُقُ الأَمَانَةِ

٣

تـعـريف الأمانـة :

الأمانة كل ما يؤتمن عليه المرء ، من أمر أو نهي في شؤون الدين والدنيا .

والأمانة هي رعاية المرء لحقوق الله وحقوق عباده ، وحقوق نفسه :

أما رعاية حقوق الله تعالى ، فهي تأدية الفرائضِ والواجبات وترك المحرمات ، وأما رعاية حقوق عباده ، فهي أن لا يطمع المرء في وديعة اؤتمن عليها ، ولا ينكر مالاً وُكِل إليه أمر حراسته ، ولا يستعمل الغش ولا التطفيف في وزن أو كيل ، ولا يتتبع العورات أو يفشيها ، ولا يفتي بغير علم إذا كان مسؤولاً ، وأن يرشد إن كان عالماً ، ويقول الحق إن كان شاهداً ، ويوصل الرسالة على وجهها بلا زيادة ولا نقصان إن كان مبلغاً إلى غير ذلك .

وأما رعاية حقوق نفسه فيختار لها الأصلح في دنياها وآخرتها ويمنعها عن متابعة الشهوات والإفراط في المباح منها .

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا ﴾ . [النساء : ٥٨]

وقال تعالى واصفاً للمؤمنين : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴾ . [المؤمنون : ٨]

والأمانة مصدر أمنة يأمنه أمانة ، أي وثق به واطمأن إليه ولم يخفه ، والأمين هو الثقة المؤتمن قال أحد العلماء :

«تشتمل الأمانة على ثلاثة عناصر :

الأول : عفة الأمين عما ليس له به حق .

الثاني : تأدية الأمين ما يجب عليه من حق لغيره .

الثالث: اهتمام الأمين بحفظ ما استؤمن عليه من حقوق غيره، وعدم التفريط بها والتهاون بشأنها.».

والأمانة: خلق إيجابي، لا يستحق أن يوصف بها إلا من سنحت له فرصة الخيانة من غير ضرر يلحق به، فأظهر المناعة، وقوة الإرادة، المبنية على السمو في النفس والروح.

فلو أن إنساناً اعتزل الناس، ولم يزاول عملاً لما جاز أن يسمى أميناً بالنسبة إلى الأموال ونحوها.

لأن الأمين من فتح له باب إلى الخيانة قليلها أو كثيرها فأمن.

والأمانة: من الأخلاق التامة التي لا تصلح للتجزئة، فكما لا يجوز أن يكون المرء نصف صادق، ولا نصف عفيف، لا يجوز أن يكون نصف أمين، فنصف الأمين خائن، والأمين بقليل دون الكثير خائن، والأمين بحال دون أخرى خائن.

والأمانة: خلق وجداني، توجده وتزكيه التربية الروحية السامية، فمن كان أميناً برقابة القانون، أو برقابة الناس، أو بخوف من عاقبة سيئة فليس بأمين.

فالأمانة تفيض من النفس الزكية الطاهرة فيضاً، لا تضطر إليها اضطراراً بقوة السلطان، ومن كانت أمانته بقوة السلطان فأمانته مجلوبة بالرياء والخوف، إذا انكشفت عنه رقابتهما ارتد إلى الخيانة مسرعاً.

أثر الأمانة وفائدتها:

قال أحد العلماء:

«الأمانة من أعظم الكنوز، وأحسنها عائدة على صاحبها، فإذا وثق الناس بأمانة إنسان كانت له هذه الثقة ذخراً في الدنيا قبل الآخرة.

وما حرص الناس على شيء حرصهم على الرجل الأمين، حتى إذا وجدوه تجاذبوه من كل مكان، فرفعوا ذكره، ووضعوا وزره، وأفاد غنى طيباً، ورزقاً غير محسود عليه.

وما ادخر سيدنا محمد ﷺ لتبليغ دعوته ، ونشر رسالته ، شيئاً أثمن من الأمانة ، فقد اختبره قومه ـ عن غير قصد ـ صغيراً وشاباً وكهلاً ثم توجوه بلقب (الأمين) ، قبل أن يكون نبياً مرسلاً ، فلما جاءته الرسالة لم يجرؤ أحد ـ وإن كان ألد الخصام ـ أن يتهمه بالخيانة ، أو التضليل ، فاستسلم لدعوته من تجرد عن هواه ، وابتغى الخير والحق ، وأعرض عنه من غلبت عليه الشقاوة وأسلم أمره لشيطانه وهواه».

قال أحد العلماء يتحدث عن أثر الأمانة في إعلاء شأن الأفراد والأمم ما يلي :

«الأمانة هي ينبوع السعادة ومصدر الفلاح ، بها يثق الناس بالمرء ، فيمنحونه أموالهم يتجر بها ، وأعمالهم يتصرف فيها ، فيفيد ويستفيد ، ويجد المعونة على الشدائد في كل وقت ، ولم ترقَ الأمم ولم تحظ بالغنى إلا بها ، فما ربحت تجارة بدونها ، ولا راجت صناعة بغيرها ، ولا أفلحت شركة بسواها .

اعتصم بها من اعتصم ففازوا ، واستضاؤوا فاهتدوا ، وترددوا في سوقها فكسبوا وجمعوا بها الأموال ، وألفوا عليها الشركات فأقاموا ببلادهم الأعمال الجليلة ، وأوجدوا المستحدثات النافعة حتى صيروها جنة الدنيا وبهجة الناظرين» .

ضخامة الأمانة :

إنَّ الأمانة فضيلة ضخمة ، لا يستطيع حملها الرجال المهازيل .

وقد ضرب الله المثل لضخامتها ، فأبان أنها تثقل كاهل الوجود كله فلا ينبغي للإنسان أن يستهين بها ، أو يفرط في حقها .

قال تعالى : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ . [الأحزاب : ٧٢]

الأمانة كل ما يؤتمن عليه المرء من أمر ونهي في شؤون الدين والدنيا ،

والمراد بها هنا التكاليف الدينية ، وسميت أمانة من قبل أنها حقوق أوجبها الله على المكلفين واتتمنهم عليها ، وأوجب عليهم تلقيها بالطاعة والانقياد ، وأمرهم بالمحافظة عليها وأدائها بدون الإخلال بشيء منها .

والأمانة بما تحمله من أهمية كبيرة ، عرضت على هذه الكائنات الشديدة القوية الضخمة الهائلة ، فأبين أن يحملنها وأشفقن منها ، لأنها أدركت بما وضع الله فيها من إدراك فطري ، أن مسؤولية الأمانة عظيمة جداً ، ورأت هذه المخلوقات الضخمة أنها ـ على ضخامتها وشدتها ـ عاجزة عن حمل الأمانة .

فالله عزَّ وجلَّ لم يخلق السموات والأرض والجبال (ـ على عظم أجرامها وقوة خلقها ـ) مستعدة لحمل التكاليف بتلقي الأوامر والنواهي والتبصر في شؤون الدين والدنيا ، ولكن الله عز وجل خلق الإنسان ـ على ضعف خلقه وصغر حجمه ـ مستعداً لتلقيها والقيام بأعبائها بما امتاز عن تلك المخلوقات بخصائص التفكير والعقل والإرادة الحرة .

وهو مع ذلك قد غلبت عليه الانفعالات النفسية ، الداعية إلى الغضب ، فكان ظلوماً لغيره ، وركب فيه حب الشهوات والميل إلى عدم التدبر في عواقب الأمور ، فكان جهولاً بمتقضيات الأمور ، ومن ثم كلفه الله بتلك التكاليف لتكسر سطوة تلك القوى ، وتخفف من سلطانها عليه ، وتكبت من جماحها حتى لا توقعه في مواقع الردى .

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال :

قال رسول الله ﷺ :

«قال الله تعالى لآدم :

يا آدم إني عرضت الأمانة على السموات والأرض والجبال فلم تطقها ، فهل أنت حاملها بما فيها؟

فقال : وما فيها يا رب؟

قال : إنْ حملتها أجرت ، وإن ضيعتها عذبت .

فاحتملها بما فيها ، فلم يلبث في الجنة إلا قدر ما بين صلاة الأولى إلى العصر حتى أخرجه الشيطان منها». [رواه الترمذي]

وإباء هذه المخلوقات يختلف عن إباء إبليس :

فإباء السموات والأرض والجبال كان إباء عجز وضعف .

وإباء إبليس كان إباء تمرد وتكبر .

والعرض على هذه المخلوقات الضخمة كان عرض تخيير لا إلزام .

والعرض على إبليس كان عرض إلزام لا تخيير .

مكانة الأمانة في الإسلام :

للأمانة مكانة عظيمة ومنزلة عالية في الإسلام نتبينها فيما يلي :

أولاً ـ الأمانة خلق إسلامي حثَّ القرآن الكريم عليه :

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى هذا الخلق في آيات متعددة :

فقد أمرنا الله أن نؤدي الأمانات إلى أهلها :

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا ﴾ . [النساء : ٥٨]

وقال سبحانه في آية أخرى : ﴿ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ ﴾ . [البقرة : ٢٨٣]

كما نهانا الله عز وجل أن نخون الأمانة :

فقال سبحانه وتعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ . [الأنفال : ٢٧]

ثانياً ـ الأمانة صفة من صفات الملائكة :

ومما يدل على جلال مكانة الأمانة ، أن القرآن الكريم وصف سفير الرحمن جبريل عليه السلام بأنه أمين .

قال الله تعالى : ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴾ . [الشعراء : ١٩٣]

أي المؤتمن على وحي الله ، لا يزيد فيه ولا ينقص منه .

وكذلك قال الله سبحانه وتعالى عن جبريل: ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ ﴾. [التكوير: ١٩ ـ ٢١]

ثالثاً ـ الأمانة صفة من صفات الرسل:

لا بد لكل رسول أرسله الله سبحانه وتعالى من صفات يتصف بها، ومن هذه الصفات الأمانة، التي تجعل كل رسول يبلغ رسالته كاملة كما يريدها الله عز وجل دون زيادة أو نقصان.

وأشار القرآن الكريم أكثر من مرة، أن رسل الله عليهم الصلاة والسلام يتصفون بصفة الأمانة.

فقد قال نوح لقومه: ﴿ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ﴾. [الشعراء: ١٠٧]

أي أني رسول من الله إليكم، أمين فيما بعثني به، أبلغكم رسالات ربي، ولا أزيد فيها ولا أنقص منها، ونوح هو أول رسول أرسله الله تعالى إلى أهل الأرض بعدما عبد الناس الأصنام.

وكذلك قال كل من هود وصالح ولوط وشعيب عليهم السلام: ﴿ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ﴾. كما نرى في سورة الشعراء [١٢٥ ـ ١٤٣ ـ ١٦٢ ـ ١٧٨].

وأشار القرآن إلى أمانة موسى منذ شبابه، فجاء في سورة القصص على لسان ابنة شعيب: ﴿ قَالَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ ﴾. [القصص: ٢٦]

وقولها «القوي» لأنه كان ـ فيما يروى ـ يحمل الصخرة لا يطيق حملها جمع من الرجال، وقولها «الأمين» لأنه كان ذا أمانة، فقد رووا أن ابنة شعيب حينما سارت أمامه لتبلغ به مكان أبيها، وصف الريح جسمها، فأنف موسى من ذلك، وطلب إليها أن تمشي خلفه، وتدله الطريق، حتى لا يتطلع إلى جسمها والريح تلعب بثوبها حوله.

قال عمر وابن عباس وغيرهما:

لما قالت ذلك (أي القوي الأمين) قال لها أبوها: وما علمك بهذا؟ فقالت: إنه رفع صخرة لا يطيق رفعها إلا عشرة، وأنه لما جئت معه تقدمت أمامه،

فقال: كوني من ورائي ، فإذا اختلف الطريق فاحذفي لي بحصاة أعلم بها كيف الطريق.

قال المفسرون:

وذلك أن الرعاء كانوا إذا فرغوا من وردهم ، وضعوا على فم البئر صخرة عظيمة ، فتجيء هاتان المرأتان فيشرعان غنمهما في فضل أغنام الناس ، فلما كان ذلك اليوم ، جاء موسى فرفع تلك الصخرة وحده ، ثم استقى لهما وسقى غنمهما ، ثم رد الحجر كما كان.

قال أمير المؤمنين عمر: وكان لا يرفعه إلا عشرة.

وأشار القرآن إلى أمانة يوسف ، حيث جاء فيه على لسان العزيز ليوسف: ﴿ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾. [يوسف: ٥٤]

ولقد كان سيدنا محمد ﷺ مثلاً أعلى في فضيلة الأمانة ، حتى لقبه الناس منذ فتوته بلقب (الصادق الأمين) ، ومن الأدلة على ذلك أنهم جعلوه حكماً بينهم عند النزاع على وضع الحجر الأسود ، وقالوا عندما رأوه: هذا هو الأمين ، لقد رضيناه حكماً بيننا.

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال:

لما فتح رسول الله ﷺ مكة ، دعا عثمان بن طلحة ، فلما أتاه قال:

أرني المفتاح (مفتاح الكعبة). فلما بسط يده إليه قام العباس فقال:

يا رسول الله بأبي أنت وأمي اجمعه لي مع السقاية. فكف عثمان يده.

فقال رسول الله ﷺ: هات المفتاح يا عثمان.

فقال: هاك أمانة الله.

فقام ففتح الكعبة ، ثم خرج فطاف بالبيت ثم نزل عليه جبريل برد المفتاح.

فدعا عثمان بن طلحة فأعطاه المفتاح ثم قال: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا ﴾. [النساء: ٥٨]

حتى فرغ من الآية.

قال عمر بن الخطاب :

لما خرج رسول الله ﷺ من الكعبة ، وهو يتلو الآية ، فداه أبي وأمي ما سمعته يتلوها قبل ذلك .

وظاهر هذا كما قال السيوطي رحمه الله : أنها نزلت في جوف الكعبة . وهذا يشير إلى أهمية الأمانة ، فقد رد النبي ﷺ المفتاح إلى عثمان ، على الرغم من طلب أهل بيته له ، وطمعهم أن يجمعوا بين السقاية والحجابة ، ليكون هو ﷺ القدوة العليا ، والأسوة الحسنة في مكارم الأخلاق وحفظ الأمانة وردها إلى أهلها .

ومما تجدر الإشارة إليه في هذا الموقف ، أن عثمان هذا كان مسيئاً إلى النبي ﷺ في شأن هذا المفتاح على الخصوص .

ذكر ابن سعد في الطبقات عن عثمان بن طلحة قال :

«كنا نفتح الكعبة في الجاهلية يوم الإثنين والخميس ، فأقبل رسول الله ﷺ يوماً يريد أن يدخل الكعبة مع الناس ، فأغلظت له ، ونلت منه فحَلِم عليَّ ، ثم قال :

يا عثمان لعلك سترى هذا المفتاح بيدي يوماً ، أضعه حيث شئت .

فقلت : لقد هلكت قريش يومئذ وذلَّت .

فقال : بل عمَّرت وعزت يومئذ .

ودخل الكعبة .

فوقعت كلمته مني موقعاً ، ظننت يومئذ أن الأمر سيصير إلى ما قال .

فلما كان يوم الفتح ، قال : يا عثمان ائتني بالمفتاح ، فأتيته به ، فأخذه مني ، ثم دفعه إلي وقال : خذوها خالدة تالدة لا ينزعها منكم إلا ظالم ، يا عثمان إنَّ الله استأمنك على بيته ، فكلوا مما يصل إليكم من هذا البيت بالمعروف .

قال : فلما وليت ناداني ، فرجعت إليه ، فقال : ألم يكن الذي قلت لك؟

قال: فذكرت قوله لي بمكة قبل الهجرة، حيث قال: لعلك سترى هذا المفتاح بيدي أضعه حيث شئت.

قلت: بلى أشهد أنك رسول الله».

رابعاً ـ أقسم الله سبحانه وتعالى بمكة (البلد الأمين):

قال الله تعالى: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾. [التين: ١ ـ ٣]

أي أنه بلد يحفظ من دخله، كما يحفظ الأمين ما يؤتمن عليه، أو أن أهله آمنون.

خامساً ـ الأمانة صفة وصف الله تبارك وتعالى المؤمنين بها:

قال سبحانه وتعالى فيما وصف به المؤمنين: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾. [المؤمنون: ٨]

أي إذا اؤتمنوا لم يخونوا الأمانة، بل أدوها إلى أهلها مهما كانت، كما أنهم يحفظون أمانتهم في دينهم واعتقادهم وقولهم وعملهم وسلوكهم مع الناس.

وقد تحلى بهذه الصفة الصحابة الكرام والمسلمون الأوائل ومن تبعهم بإحسان، والتاريخ مليء بقصصهم التي تتحدث عن أمانتهم وحسن أخلاقهم.

سادساً ـ الأمانة خلق دعت إليه السنة المطهَّرة:

لقد جاءت السنة النبوية المطهرة من وراء القرآن المجيد، فعنيت بفضيلة الأمانة، ورفعت من شأنها، وزكَّت من حديثها.

وقد ورد عن رسول الله ﷺ أحاديث كثيرة في الحث على الأمانة منها:

عن أنس بن مالك رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال:

«تقبلوا لي ستاً أتقبل لكم الجنة، إذا حدث أحدكم فلا يكذب، وإذا وعد فلا يخلف، وإذا اؤتمن فلا يخن». [رواه أبو يعلى والحاكم والبيهقي]

عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال:

«اضمنوا لي ستاً أضمن لكم الجنة ، اصدقوا إذا حدثتم ، وأوفوا إذا وعدتم ، وأدوًّا إذا اؤتمنتم» . [رواه أحمد وابن حبان والحاكم والبيهقي]

سابعاً ـ الأمانة من الإيمان وتركها من النفاق :

عن ابن عمر رضي الله عنهما ، قال :

قال رسول الله ﷺ :

«لا إيمان لمن لا أمانة له ، ولا صلاة لمن لا طهور له» . [رواه الطبراني]

عن أبي هريرة رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال :

آية المنافق ثلاث : إذا حدَّث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا اؤتمن خان» .

[رواه البخاري]

ورواه مسلم أيضاً وزاد فيه : «وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم» .

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما ، أن النبي ﷺ قال :

«أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً ، ومن كان فيه خصلة منهنَّ كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها : إذا اؤتمن خان ، وإذا حدث كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر» . [رواه البخاري ومسلم]

عن أنس رضي الله عنه قال :

ما خطبنا رسول الله ﷺ إلا قال :

«لا إيمان لمن لا أمانة له ، ولا دين لمن لا عهد له» .

[رواه أبو يعلى والبيهقي]

ثامناً ـ الأمانة أشد شيء في الدين ، ولا دين لمن لا أمانة له :

عن علي رضي الله عنه قال :

«كنا جلوساً عند رسول الله ﷺ ، فطلع علينا رجل من أهل العالية فقال : يا رسول الله أخبرني بأشد شيء في هذا الدين وألينه .

فقال : ألينه أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وأشده

ـ يا أخا العالية ـ الأمانة ، إنه لا دين لمن لا أمانة له ، ولا صلاة له ولا زكاة له» . [رواه البزاز]

تاسعاً ـ الأمانة سيحاسب عنها المسلم يوم القيامة ولو مات شهيداً في سبيل الله :

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال :

«القتل في سبيل الله يكفر الذنوب كلها إلا الأمانة ، قال : يؤتى بالعبد يوم القيامة ـ وإن قتل في سبيل الله ـ فيقال : أدِّ أمانتك .

فيقول أي ربِّ . كيف وقد ذهبت الدنيا؟! فيقال : انطلقوا به إلى الهاوية ، وتمثل أمانته كهيئتها يوم دفعت إليه ، فيراها فيعرفها ، فيهوي في أثرها حتى يدركها ، فيحملها على منكبيه ، حتى إذا ظهر أنه خارج زلت عن منكبيه ، فيهوي في أثرها أبد الآبدين .

ثم قال : الصلاة أمانة والوضوء أمانة ، والوزن أمانة ، والكيل أمانة ، وأشياء عددها ، وأشد ذلك الودائع» . [رواه أحمد والبيهقي موقوفاً]

عاشراً ـ الأمانة من أحسن الأعمال للتقرب إلى الله والالتجاء إليه عند الشدائد :

فقد ورد في حديث الغار الذي رواه عبد الله بن عمر رضي الله عنهما :

عن رسول الله ﷺ قال :

قال النبي ﷺ : «وقال الثالث : اللهم استأجرت أجراء ، وأعطيتهم أجرهم ، غير رجل واحد ترك الذي له وذهب ، فثمَّرت أجره حتى كثرت منه الأموال ، فجاءني بعد حين » فقال : يا عبد الله أدِّ إليَّ أجري .

فقلت : كل ما ترى من أجرك ، من الإبل والبقر والغنم والرقيق .

فقال : يا عبد الله لا تستهزىء بي .

فقلت : إني لا أستهزىء بك فأخذه كله ، فاستاقه فلم يترك منه شيئاً .

اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاءَ وجهك فافرج عنا ما نحن فيه .

فانفرجت الصخرة ، فخرجوا يمشون» .

[أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود]

حادي عشر ـ الأمانة عز وغنى وهي تجلب الرزق وتبعد الفقر :

فقد ورد في أحاديث الرسول ﷺ قوله :

«الأمانة عزّ» . [رواه الديلمي عن ثوبان رضي الله عنه]

«الأمانة غنى» [رواه القضاعي عن أنس رضي الله عنه]

«الأمانة تجلب الرزق ، والخيانة تجلب الفقر» .

[رواه الديلمي في مسند الفردوس عن جابر رضي الله عنه]

فالأمانة سبب الغنى ، لأن الإنسان إذا عرفه الناس بالأمانة أقبلوا على معاملته ، وأحبوه ، فيصير ذلك سبب غناه واشتهاره بين الناس .

ثاني عشر ـ الأمانة خلق اهتم به وذكره الرسول ﷺ عن الأقوام السابقة :

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال :

قال رسول الله ﷺ :

«اشترى رجل ممن كان قبلكم عقاراً من رجل ، فوجد الذي اشترى العقار في عقاره جرة فيها ذهب ، فقال له الذي اشترى العقار : خذ ذهبك عني ، إنما اشتريت العقار ولم أبتع منك الذهب .

فقال بائع الأرض : إنما بعتك الأرض وما فيها ، فتحاكما إلى رجل ، فقال الذي تحاكما إليه : ألكما ولد؟

فقال أحدهما لي غلام ، وقال الآخر لي جارية .

فقال انكحوا الغلام الجارية ، وأنفقوا عليهما منه ، وتصدقوا» .

[رواه البخاري]

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أيضاً :

أن رسول الله ﷺ ذكر رجلاً من بني إسرائيل ، سأل بعض بني إسرائيل أن يسلفه ألف دينار .

فقال: ائتني بالشهداء أشهدهم.

فقال: كفى بالله شهيداً.

قال: ائتني بالكفيل.

قال: كفى بالله كفيلاً.

قال: صدقت.

فدفعها إليه إلى أجلٍ مسمى، فخرج في البحر، فقضى حاجته، ثم التمس مركباً يركبه يقدم عليه للأجل الذي أجله، فلم يجد مركباً، فاتخذ خشبة فنقرها، فأدخل فيها ألف دينار، وصحيفة منه إلى صاحبه، ثم زجَّج موضعها (أي سوى وضع النقر وأصلحه)، ثم أتى بها البحر فقال:

اللهم إنك تعلم أني تسلفت فلاناً ألف دينار، فسألني كفيلاً، فقلت: كفى بالله كفيلاً، فرضي بك، وسألني شهيداً، فقلت كفى بالله شهيداً، فرضي بك، وإني جهدت أن أجد مركباً أبعث إليه الذي له فلم أقدر، وإني استودَعتُكها.

فرمى بها في البحر، حتى ولجت فيه، ثم انصرف، وهو في ذلك يلتمس مركباً يخرج إلى بلده.

فخرج الرجل الذي كان أسلفه ينظر لعل مركباً قد جاء بما له، فإذا بالخشبة التي فيها المال، فأخذها لأهله حطباً، فلما نشرها وجد المال والصحيفة، ثم قدم الذي كان أسلفه، وأتى بألف دينار.

فقال: والله ما زلت جاهداً في طلب مركب لآتيك بمالك فما وجدت مركباً قبل الذي جئتك به.

قال: فإنَّ الله قد أدى عنك الذي بعثته في الخشبة، فانصرف بالألف دينار راشداً». [رواه البخاري]

ولئن ذكر الرسول ﷺ هذه القصة، فلا يعني ذلك أن كل نبي إسرائيل قد اتصفوا بالأمانة، فإنَّ أكثرهم كانوا يخونون الأمانة كما وصفهم الله سبحانه

وتعالى بذلك في قرآنه الكريم: ﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ﴾.

[آل عمران: ٧٥]

قال أحد العلماء:

«ومن مزاعم اليهود الباطلة في هذا الموضوع، أنهم يجعلون الأمانة فقط بين اليهودي واليهودي، أما غيرهم وهم الذين يسمونهم (الأميين) ويعنون بهم العرب، وهم على الحقيقة يعنون كل من سوى اليهود، فلا حرج على اليهودي في أكل أموالهم، وغشهم، وخداعهم، والتدليس عليهم، واستغلالهم، وسلب أموالهم بأي وسيلة ولو كانت خسيسة وذميمة.

ويزعمون أن إلههم ودينهم يأمرهم بذلك، وهم يعلمون أن هذا كذب، وأن الله لا يأمر بالفحشاء، ولا يبيح لجماعة من الناس أن يأكلوا جماعة من الناس سحتاً وبهتاناً.

لذلك فنّد الله تعالى أعمالهم وافتراءاتهم هذه بقوله: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾. [آل عمران: ٧٥]

ثم يقرر القرآن الكريم القاعدة الخلقية الواحدة مع الناس جميعاً بقوله عز وجل: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾. [آل عمران: ٧٦ ـ ٧٧]

هذه هي نظرة الإسلام الأخلاقية بصفة عامة، في أداء الأمانة والوفاء بالعهد وفي سواها من الأخلاق.

ولقد وصف الله اليهود إلا قليلاً منهم بأنهم أهل خيانة.

قال الله تعالى لرسوله: ﴿ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ﴾.

[المائدة: ١٣]

فهذه الآية تدل على أن الخيانة من الصفات التي تبرز في اليهود بين حين وآخر، فالخيانة شأنهم وديدنهم، وطريقتهم في معاملة الناس.

فمن خياناتهم محاولة اغتيال الرسول ﷺ ، وقد كان بينه وبينهم عهد أمان.

ومن خياناتهم تواطؤهم مع الأحزاب ، وقد كان بينهم وبين الرسول عهد أمان.

ومن خياناتهم ما نراه منهم على مر العصور والأزمان في فلسطين من مواثيق وعهود خيانة ، لا أمان فيها ولا اطمئنان ، ولا صدق فيها ولا سلام ، بل مكر وخداع وكذب وخيانة وطغيان.

أقسـام الأمانـة:

خلق الأمانة على قسمين: فطري ومكتسب.

١ ـ خلق الأمانة الفطري:

عن حذيفة بن اليمان قال:

«حدثنا رسول الله ﷺ أن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال ، ثم نزل القرآن فعلموا من القرآن وعلموا من السنة». [رواه البخاري ومسلم]

من هذا الحديث نجد أن الأمانة خلق من الأخلاق الفطرية في الإنسان ، فهي: جذور قلوب الرجال ، ولا تكون بهذا العمق في كيان الإنسان ، ما لم تكن ذات جذور فطرية.

كما أن التعبير بكلمة (نزلت) يشعر أنها أمر فطري من عند خالق القلوب ، ويؤيد هذا قول الرسول ﷺ بعد ذلك:

«ثم نزل القرآن فعلموا من القرآن وعلموا من السنة».

ففي هذا القول دلالة على أن الإرشاد القرآني إلى الأمانة والإرشاد النبوي إليها ، قد جاء بعد تغلغل الأمانة في جذر قلوب الرجال ، ولا يكون هذا السبق إلا سبقاً فطرياً.

فمن وجد أن الأمانة في فطرته فليحمد الله على ذلك وليعمقها بالأمانة المكتسبة.

٢ ـ خلق الأمانة المكتسب:

وهو ما يجب على المسلم اكتسابه والتخلق به ، وذلك بالخوف من الله واتباع أوامره واجتناب نواهيه ، وأداء الأمانة إلى أصحابها ، ويساعد على ذلك مجالسة العلماء والصالحين ، والانتفاع بهم في علمهم وقدوتهم ومخافتهم لله ، وأداء الحقوق والواجبات للآخرين.

وهذا رسول الله ﷺ يشجع على اكتساب خلق الأمانة:

عن أنس بن مالك رضي الله عنه:

عن النبي ﷺ قال:

«تقبلوا لي ستاً أتقبل لكم الجنة ، إذا حدث أحدكم فلا يكذب ، وإذا وعد فلا يخلف وإذا اؤتمن فلا يخن». [رواه أبو يعلى والحاكم والبيهقي]

عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه:

أن النبي ﷺ قال:

«اضمنوا لي ستاً أضمن لكم الجنة: اصدقوا إذا حدثتم ، وأوفوا إذا وعدتم ، وأدوا إذا اؤتمنتم». [رواه أحمد وابن حبان والحاكم والبيهقي]

قال الشاعر:

واعمل بمفروض الأمانة والتقى ... وانْهَ عن المنكر الفظيع وفعله

وقال آخر:

وإذا اؤتمنت على الأمانة فارعَها ... إنَّ الكريم على الأمانة راع

أنواع الأمانة:

العوام يقصرون الأمانة في أضيق معانيها ، وهو حفظ الودائع ، مع أن حقيقتها في دين الله أضخم وأثقل.

وإنها الفريضة التي يتواصى المسلمون برعايتها ، ويستعينون بالله على حفظها ، حتى أنه عندما يكون أحدهم على أهبة سفر ، يقول له أخوه:

«أستودع الله دينك وأمانتك وخواتيم عملك». [رواه الترمذي]

والأمانة في نظر الشارع واسعة الدلالة: وهي ترمز إلى معان شتى ، مناطها

جميعاً شعور المرء بتبعيته في كل أمر يوكل إليه ، وإدراكه الجازم بأنه مسؤول عنه أمام ربه على النحو الذي فصله الحديث الكريم :

«كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته ، فالإمام راعٍ ومسؤول عن رعيته ، والرجل راعٍ في أهله وهو مسؤول عن رعيته ، والمرأةَ في بيت زوجها راعية وهي مسؤولَة عن رعيتها ، والخادم في مال سيده راعٍ وهو مسؤول عن رعيته» .

[رواه البخاري]

قال ابن عمر ـ راوي الحديث ـ سمعت هؤلاء من النبي ﷺ ، وأحسبه قال :

«الرجل في مال أبيه راعٍ وهو مسؤول عن رعيته» .

فكل إنسان مؤتمن وهو مسؤول عن الأمانة الموكل بها ، وكل على حسبه .

وعندما يقول الله عز وجل : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا ﴾ .

[النساء : ٥٨]

فيه إشارة إلى أن الأمانة متعددة الأنواع ، ويجب أن تؤدّىٰ كل أمانة إلى أهلها .

ومن أنواع الأمانة الكثيرة ، أذكر عشرة أنواع على سبيل الذكرى لا الحصر :

١ ـ أمانة التكاليف الدينية :

وهي الأمانة الكبرى التي أناط الله تعالى بها فطرة الإنسان ، أمانة الهداية والمعرفة والإيمان بالله الخالق العظيم والاهتداء إليه ، ومعرفته بآثاره ، وبديع صنعه ، وعجيب مخلوقاته ، التي تقتضي محبة الله وطاعته ، والعمل بأوامره واجتناب نواهيه ، أي القيام بكل التكاليف الدينية التي كلفه الله عز وجل من أمر ونهي .

وهذه أمانة حملها الإنسان ، وعليه أن يؤديها أول ما يؤدي من الأمانات .

وقد سميت أمانة من قبل أنها حقوق أوجبها الله على المكلفين ، وائتمنهم

عليها ، وأوجب عليهم تلقِّيها بالطاعة والانقياد ، وأمرهم بالمحافظة عليها وأدائها دون الإخلال بشيء منها.

والتكاليف الدينية على أنواع منها:

أولاً ـ العبادات: قال الله تعالى:

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾. [الذاريات: ٥٦]

وجميع العبادات التي أمرنا الله عز وجل بأدائها ، كالصلاة والصيام والزكاة والحج وغيرها ، هي أمانات يجب أداؤها كما أمرنا الله عز وجل ، وكما بينها رسول الله ﷺ ، دون إهمال أو إغفال أو تغيير أو تبديل أو زيادة أو نقصان.

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال:

«الصلاة أمانة ، والوضوء أمانة». [رواه أحمد والبيهقي موقوفاً]

وورد في الأثر:

«الأمانة الصلاة ، إن شئت قلت صليت ، وإن شئت قلت لم أصلِّ وكذلك الصيام وغسل الجنابة».

قال أبو الدرداء: غسل الجنابة أمانة.

ثانياً ـ الأوامر الإلهيـة:

كل ما أمرنا الله عز وجل بفعله أمانات وضعها الله بين أيدينا ، يجب أن نقوم بأدائها لنصل إلى محبته وننال رضاه سبحانه وتعالى.

ثالثاً ـ النواهي الإلهيـة:

وكل ما نهى الله عز وجل عن فعله أمانات يجب أن ننتهي عنها حتى لا نقع في سخط الله وغضبه.

٢ ـ أمانـة النِّعـم:

التي أنعمها الله على عباده وهي كثيرةٌ لا تعد ولا تحصى ، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾. [إبراهيم: ٣٤]

فهذه النعم منحة وعطاء وفضل من الله سبحانه وتعالى لعباده ، فهي أمانة بين أيديهم يجب استعمالها فيما خلقها الله عز وجل له، دون معصية لله سبحانه وتعالى.

ومن هذه النعم الكثيرة:

أولاً ـ نعمة الحواس والأعضاء: كالعقل والقلب والبطن والبصر والسمع واللسان واليدين والرجلين وغيرها ، كلها نعم أنعمها الله على عباده ، وهي أمانات بين أيديهم ، ملكهم الله إياها ، فيجب الحفاظ على هذه الأمانات ، باستعمالها لما خلقت له وضمن طاعة الله وما يرضيه ، وبالابتعاد عن معصية الله وما يسخطه قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ . [الإسراء: ٣٦]

وورد في الأثر:

«الفرج أمانة ، والأذن أمانة ، والعين أمانة ، واللسان أمانة ، والبطن أمانة ، واليد أمانة ، والرجل أمانة ، ولا إيمان لمن لا أمانة له».

ثانياً ـ نعمة المواهب: من شباب وقوة وصحة وفراغ ومال وعلم وغير ذلك ، وهي نعم كثيرة أيضاً منحها الله لعباده ، وهي أمانات بين أيديهم سيسألون عنها يوم القيامة وسيحاسبون عليها.

أَسْتُخْدِمَت فيما أراده الله لها وضمن طاعة الله عز وجل ورضوانه أم استخدمت في معصية الله وسخطه؟

وهناك السؤال وهناك الحساب وهناك الجزاء.

قال الله عز وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ .

[الأنفال: ٢٧ ـ ٢٨]

قال رسول الله ﷺ:

«لا تزول قدما عبد حتى يسأل عن عمره فيم أفناه ، وعن علمه فيم فعل فيه ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه ، وعن جسمه فيم أبلاه؟».

[رواه الترمذي عن أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه]

وفي رواية البيهقي عن معاذ بن جبل:

«ما تزال قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع: عن عمره فيم أفناه، وعن شبابه فيم أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وعن علمه ماذا عمل به؟».

ثالثاً ـ نعمة الأولاد: الأولاد نعمة من الله عز وجل يهبها لمن يشاء.

والأولاد أمانة عند الوالدين ويجب الحفاظ على هذه الأمانة كما أراد الله عز وجل.

وقد بين الرسول ﷺ هذه الأمانة في قوله:

«والرجل راع في أهله وهو مسؤول عن رعيته، والمرأة في بيت زوجها راعية وهي مسؤولة عن رعيتها». [رواه البخاري]

فيجب على الوالدين أن يحسنا تربية أولادهما التربية الحسنة الصالحة وأن ينشئانهم النشأة الإسلامية المتكاملة.

وأن يختارا لهم الأصدقاء الصالحين والمربين المختصين.

٣ ـ أمانة الرعاية:

وهي التي ذكرها رسول الله ﷺ في حديثه ومنها:

«والرجل راع في أهله وهو مسؤول عن رعيته، والمرأة في بيت زوجها راعية وهي مسؤولة عن رعيتها». [رواه البخاري]

وأهم هذه الرعاية رعاية الأولاد.

فالأب مسؤول عن رعاية زوجته وأولاده.

وكذلك الأم مسؤولة عن رعاية زوجها وأولادها.

والمعلم والمربي مسؤول عمن وكل بأمر رعايتهم وتربيتهم.

والداعي إلى الله مسؤول عن رعاية من هدى الله على يديه، وتعليمهم ما يجب أن يتعلموه منه.

وكل مؤمن مسؤول عن رعاية من وكل برعايتهم وحفظهم.

وكل راع مسؤول عمن استرعاه الله عليهم، وبالشكل الذي أمره الله ورسوله.

وكل راع سيحصد في الدنيا نتائج رعاية مسؤوليته أو إهمالها.

وكل راع سيحاسب عن رعاية مسؤوليته يوم القيامة.

هل أداها كما أمره الله؟ أم أنه أهمل تحملها على الشكل الصحيح؟ وهناك الحساب وهناك الجزاء أو العقاب.

٤ ـ أمانة الأموال:

أمانة الأموال هي العفة عما ليس للإنسان به حق من المال، وتأدية ما عليه من حق لذويه، وتأدية ما تحت يده منه لأصحاب الحق فيه.

وتدخل في البيوع والديون والمواريث والودائع والرهون والعواري والوصايا وأنواع الولايات الكبرى والصغرى وغير ذلك.

قال الله تعالى في الدَّيْن: ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَـٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ﴾. [البقرة: ٢٨٣]

فأمانة الأموال متعددة ولكن أهمها:

أمانة الودائع: والوديعة مال أو متاع أو غير ذلك، هي أمانة يودعك إياها صاحبها، وكأنه بذلك قد توثق بينكما عهد على حفظها ثم ردها في حينها موفرة، فأصبح من الواجب عليك الوفاء بهذا العهد، وأن تكون أميناً على الوديعة لا تخونها، ومن هنا سميت (الوديعة) نفسها أمانة.

وقد أمرنا الرسول ﷺ بأداء هذه الأمانة إلى أصحابها وأن لا نخون أحداً ولو خاننا.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال:

قال رسول الله ﷺ:

«أدِّ الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك». [رواه الترمذي]

وقد استخلف الرسول ﷺ عند هجرته ابن عمه علي بن أبي طالب رضي الله عنه ليسلِّم المشركين الودائع التي استحفظها، مع أن هؤلاء المشركين كانوا بعض الأمة التي استفزته من الأرض، واضطرته إلى ترك وطنه في سبيل عقيدته قال ميمون بن مِهران:

«ثلاثة يؤدَّين إلى البَر والفاجر: الأمانة والعهد وصلة الرحم».

وعدم أداء الودائع إلى أصحابها سرقة فاجرة.

والمؤمن لو رأى كنوز الدنيا بين يديه لن يخطر بباله أن يمد إليها يده، ولو كان محتاجاً لأنها ليست له، فكيف أن يمد يده إلى مال اؤتمن عليه ووضع عنده وديعة؟؟

٥ ـ أمانـة المعاملـة: ومنها:

أ ـ أمانـة البيـع والشـراء:

وتكون بالنصيحة والصدق والمعاملة الحسنة والنية الصادقة، في البيع والشراء، وعدم الغش أو الغبن أو الخديعة، فمن فعل ذلك كانت منزلته عظيمة يوم القيامة.

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: عن النبي ﷺ قال:

«التاجر الصدوق الأمين مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين».

[رواه الترمذي]

ومن لم يحفظ هذه الأمانة فقد غش المسلمين وخدعهم، وهذا ليس من صفات المسلمين.

وقد كان رسول الله ﷺ يجوب الأسواق، ويفتش الأرزاق، ويعلِّم الصواب في البيع والشراء.

عن أبي هريرة رضي الله عنه:

أن رسول الله ﷺ مرَّ على صَبْرَة طعام ، فأدخل يده فيها ، فنالت أصابعه بللاً ، فقال :

«ما هذا يا صاحب الطعام؟

قال : أصابته السماء يا رسول الله .

قال : أفلا جعلته فوق الطعام حتى يراه الناس؟! ، من غشنا فليس منا» .

[رواه مسلم وغيره]

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال :

مرَّ رسول الله ﷺ بطعام وقد حسَّنه صاحبه ، فأدخل يده فيه ، فإذا طعام رديء .

فقال : بع هذا على حِدَه وهذا على حِدَه ، فمنْ غشنا فليس منا .

[رواه أحمد وغيره]

وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه : عن النبي ﷺ :

«المسلم أخو المسلم ولا يحلُّ لمسلم إذا باعَ من أخيه بيعاً فيه عيب أن لا يُبيِّنه» . [رواه أحمد والحاكم]

روي عن محمد بن المنكدر أنه كان له شقق ، (قطع من القماش) بعضها بخمسة وبعضها بعشرة ، فباع غلامه في غيبته شقة من الخمسيات بعشرة ، فلما عرف لم يزل يطلب ذلك الأعرابي المشتري طول النهار حتى وجده ، فقال له :

إن الغلام قد غلط فباعك ما يساوي خمسة بعشرة ، فقال : يا هذا! قد رضيت .

فقال : وإن رضيت فإنا لا نرضى لك ما نرضاه لأنفسنا ، فاختر إحدى ثلاث خصال : إما أن نأخذ شقة من العشريات بدراهمك ، وإما أن نرد عليك خمسة ، وإما أن تردّ شقتنا وتأخذ دراهمك .

فقال : أعطني خمسة ، فرد عليه خمسة ، وانصرف الأعرابي يسأل ويقول :

من هذا الشيخ؟ فقيل له : هذا محمد بن المنكدر .

فقال: لا إله إلا الله ، هذا الذي نستسقي به في البوادي إذا قحطنا .

هذا وإن من أمانة البيع والشراء ما يلي :

١ ـ أن لا يثني على السلعة بما ليس فيها .

٢ ـ أن لا يكتم من عيوبها وخفايا صفاتها شيئاً أصلاً .

٣ ـ أن لا يكتم من وزنها ومقدارها شيئاً .

٤ ـ أن لا يكتم من سعرها ما لو عرفه المعامل لامتنع عنه .

ومن أمانة البيع والشراء أيضاً عدم الاحتكار ، وقد ورد في ذلك أحاديث كثيرة منها :

قال رسول الله ﷺ :

«بئس العبد المحتكر : إن أرخص الله الأسعار حزن ، وإن أغلاها فرح» .

[رواه الطبراني والبيهقي]

وقال أيضاً :

«الجالب مرزوق والمحتكر ملعون» . [رواه ابن ماجه والحاكم]

وقال ﷺ :

«لا يحتكر إلا خاطىء» . [رواه أحمد وأبو داود والترمذي]

ب ـ أمانة الكيل والميزان :

تتحقق بالضبط والعدل والابتعاد عن الإنقاص أو الزيادة ، وبذلك ينجو الإنسان من تهديد القرآن الشديد حين يقول : ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ . [المطففين: ١ ـ ٦]

وقال الله عز وجل أيضاً: ﴿أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ۝١٨١ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۝١٨٢ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ .

[الشعراء: ١٨١ ـ ١٨٣]

جـ - أمانة الشركة :

وذلك بالتعامل بالأمانة فيما بينهم ومحبة بعضهم بعضاً وإيثارهم لبعض ، وعدم ظهور الغش والخيانة والتلاعب من أحدهم .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال :

قال رسول الله ﷺ :

«يقول الله تعالى :

أنا ثالث الشريكين ما لم يخن أحدهما صاحبه ، فإذا خانه خرجت من بينهما» . [رواه أبو داود]

٦ - أمانة المشورة :

المشورة هي استطلاع المرء آراء من عركوا (خبروا وعرفوا) الدهر وعركهم ، من ذوي الأفكار الصائبة والعقول الراجحة في مسائل الحياة قبل الشروع فيها ، حتى لا يصيبه منها ضرر ، ولا يمسه فيها زلل .

وقد ورد في الأثر :

«ما خاب من استخار ولا ندم من استشار» .

وإذا عزم المرء على المشاورة وجب عليه أن يرتاد لها من أهلها من استكملت فيه خمس خصال :

١ - عقل كامل مع تجربة سالفة .

٢ - أن يكون ذا دين وتقى .

٣ - أن يكون ناصحاً ودوداً .

٤ - أن يكون سليم الفكر ، من همّ قاطع وغمّ شاغل .

٥ - أن لا يكون له في الأمر المستشار غرض يتابعه ولا هوى يساعده .

أما أمانة المشورة فهي أن ينصح المستشار من استشاره ، وأن يحفظ عليه ما استشاره ، دون أن يذكر ما استشاره به للآخرين .

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال:

قال رسول الله ﷺ: «المستشار مؤتمن». [رواه أحمد]

أي مؤتمن في المشورة من حيث النصح لمن استشاره، وثانياً في حفظ سره ومشورته.

وقد ورد في الأثر في حقوق المسلم:

«إن من حق المسلم على المسلم إذا استنصحه أن ينصحه».

٧ ـ أمانة القضاء:

أمانة القضاء تكون بإصدار الأحكام وفق أحكام العدل، التي استؤمن القاضي عليها وفوض الأمر فيها إليه، وهي مسؤولية كبرى:

ومما قال الله عز وجل في القضاء:

﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾. [المائدة: ٤٩]

﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ﴾. [المائدة: ٤٢]

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾.

[النساء: ١٠٥]

٨ ـ أمانة الشهادة:

أمانة الشهادة تكون بتحملها بحسب ما هي عليه في الواقع، وبأدائها دون تحريف أو تغيير أو زيادة أو نقصان.

ومما قاله سبحانه وتعالى في الشهادة:

﴿وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُوا۟﴾. [البقرة: ٢٨٢]

﴿وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾. [البقرة: ٢٨٣]

﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ﴾. [الطلاق: ٢]

٩ ـ أمانة الوظيفة والعمل:

العمل والوظيفة في أي مجال في عرف الإسلام إنما هي خدمة للمجتمع

الإسلامي ، وهذه الخدمة أمانة في عنق أصحابها ، يجب أن يقوم كل من الموظف والعامل والأجير والصانع بهذه الأمانة على أحسن وجه.

ومن هذه الأمانة:

أولاً ـ أن لا يتقدم المسلم إلى طلب أي عمل أو وظيفة إلا إن وجد في نفسه الكفاءة اللازمة لهذا العمل أو الوظيفة.

فهذا سيدنا يوسف طلب الوظيفة لنفسه من عزيز مصر لأنه رأى في نفسه القدرة والأمانة على هذه الوظيفة: ﴿ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ﴾.
[يوسف: ٥٥]

فقد أراد أن يستفيد من سلطانه في الحكم ، في إقامة حكم الله ونشر دينه.

ثانياً ـ يجب على سلطة التولية والتعيين والعمل أن تختار الإنسان الكفء للعمل الذي سيوكل إليه.

وهذا مما أشار إليه القرآن الكريم في قصة سيدنا موسى عليه السلام حينما سقى لابنة شعيب ورأت من الأمانة والقدرة ما قالت لأبيها من أجله: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ﴾. [القصص: ٢٦]

وهكذا كان أسلوب الرسول ﷺ في التولية والتعيين ، فقد كان رسول الله ﷺ يرد الضعيف عن أدائها.

عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله ألا تستعملني؟

فضرب بيده على منكبي ، ثم قال:

«يا أبا ذر إنك ضعيف ، وإنها أمانة ، وإنها يوم القيامة خزي وندامة ، إلا من أخذها بحقها وأدى الذي عليه فيها». [رواه مسلم]

كما أن رسول الله ﷺ أعطى درساً في التولية والتعيين والعمل في الوظائف لمن جاء بعده ، وذلك بأن تصطفي للأعمال أحسن الناس قياماً بها.

قال رسول الله ﷺ:

«من استعمل رجلاً على عصابة (أي جماعة) وفيهم من هو أرضى لله منه فقد خان الله ورسوله والمؤمنين». [رواه الحاكم]

فبيَّن الرسول ﷺ في هذا الحديث أن سلطة التولية والتعيين أمانة، بدليل أن تأديتها إلى غير أهلها خيانة.

ثالثاً ـ على الموظف أو العامل أو الأجير أو الصانع أن يحرص على أداء واجبه كاملاً في العمل الذي يناط به، وأن يستنفذ جهده في أن يبلغ به تمام الإحسان، وأن يخلص لشغله وعمله ويعتني بإجادته، وأن لا يضيع وقت عمله بغير ما يفيد عمله الموكل إليه، ولا يتأخر عن عمله أو يتهرب منه.

وأن يسهر على حقوق الناس التي وضعت بين يديه، وأن لا يماطل المراجعين أو يسوفهم، أو يطلب منهم رشوة، أو يضيع عليهم الوقت والجهد والمال.

فإن استهان بما كلف به، فذلك خيانة وغدر بالناس.

قال رسول الله ﷺ:

«إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة، يرفع لكل غادر لواء يعرف به، فيقال: هذه غدرة فلان». [رواه البخاري]

وفي رواية لمسلم:

«لكل غادر لواء عند اسْتِهِ [1]، يرفع له بقدر غدرته، ألا ولا غادر أعظم من أمير عامة».

أي ليس أعظم خيانة ولا أسوأ عاقبة من رجل تولى أمراً من أمور الناس فنام عنه حتى أضاعه.

ومن هذه الأمانة أن لا يستغل الموظف منصبه الذي عين فيه لجر منفعة إلى شخصه أو أقربائه.

عن يزيد بن أبي سفيان قال:

«قال لي أبو بكر الصديق حين بعثني إلى الشام:

---

(١) الاست: الدُّبُر.

يا يزيد إن لك قرابة عسيت أن تؤثرهم بالإمارة ، وذلك أكثر ما أخاف عليك بعدما قال رسول الله : من ولي من أمر المسلمين شيئاً فأمر عليهم أجيراً محاباة ، فعليه لعنة الله ، لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً حتى يدخله جهنم» .

[رواه الحاكم]

قال رسول الله ﷺ:

«من استعملناه على عمل فرزقناه رزقاً فما أخذ بعد ذلك فهو غلول» .

[رواه أبو داود]

الغلول: الخيانة والأخذ من مال ليس له ، لأن أخذه بعد رزقه اختلاس وسرقة من مال الجماعة ، الذي ينفق في حقوق الضعفاء والفقراء ، ويرصد للمصالح الكبرى .

قال الله عز وجل: ﴿ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ . [آل عمران: ١٦١]

هذا وقد حضّ الإسلام على ضرورة التعفف ، فأمر برفض الهدايا التي تقدم للموظفين كرشوة في سبيل قضاء مصلحة من أهدى .

يدل على هذا ما وقع للرسول ﷺ نفسه مع أحد عماله ، فقد حدث أن استعمل رجلاً يقال له ابن اللتبيّة على الصدقة ، فلما قدم بها قال: هذا لكم وهذا أهدي إليّ ، قال راوي الحديث: فقام رسول الله ﷺ فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

«أما بعد فإني أستعمل الرجل منكم على العمل بما ولاه الله ، فيأتي فيقول: هذا لكم ، وهذا هدية أهديت إليّ ، أفلا جلس في بيت أبيه وأمه حتى تأتيه هديته إن كان صادقاً؟!

والله لا يأخذ أحد منكم شيئاً بغير حقه ، إلا لقي الله يحمله يوم القيامة ، فلا أعرفن أحداً منكم لقي الله ، يحمل بعيراً له رغاء ، أو بقرة لها خوار ، أو شاة تَيْعَر ، ثم رفع يديه حتى رُئي بياض إبطيه ، يقول: اللهم هل بلغت» .

[رواه مسلم]

أما الذي يلتزم حدود الله في وظيفته ، ويأنف من خيانة الواجب الذي طوّقه ، فهو عند الله من المجاهدين لنصرة دينه وإعلاء كلمته .

قال رسول الله ﷺ:

«العامل إذا استعمل فأخذ الحق وأعطى الحق لم يزل كالمجاهد في سبيل الله حتى يرجع إلى بيته». [رواه الطبراني]

وقد شدد الإسلام في ضرورة التعفف عن استغلال النفوذ ، وشدد في رفض المكاسب المشوبة .

عن عدي بن عميرة قال :

سمعت رسول الله ﷺ يقول :

«من استعملناه منكم على عمل فكتمنا مخيطاً فما فوق ، كان غلولاً يأتي به يوم القيامة ، فقام إليه رجل أسود من الأنصار ـ كأني أنظر إليه ـ فقال: يا رسول الله اقبل عني عملك! قال: وما لك؟؟ قال: سمعتك تقول كذا وكذا .

قال: وأنا أقوله الآن ، من استعملناه منكم على عمل فليجىء بقليله وكثيره ، فما أوتي منه أخذ وما نهي انتهى». [رواه مسلم]

١٠ ـ أمانة المجالس:

يجلس الناس إلى بعضهم ويتناولون أحاديث مختلفة يكون من بينها سرٌ يجب عدم البوح به لأحد .

وقد أبان الرسول ﷺ أن الرجل إذا حدث الحديث ثم انصرف فقد أودع عند من حدثه أمانة ، لذلك فعلى المستأمن أن يحفظ الأمانة التي عنده ، فلا يخون صاحبه بها .

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه :

أن النبي ﷺ قال :

«إذا حدَّث الرجل الحديث ثم التفت فهي أمانة» .

[رواه الترمذي وأبو داود]

ولكن حفظ أسرار الناس مشروط بأن لا يؤثر على حق الله أو حق المسلمين ، فإن كان مؤثراً على شيء من ذلك ، كان من الخيانة لحق الله أو لحق المسلمين التستر على ما فيه إضرار بهما أو بأحدهما ، وليس من حفظ الأمانة هذا التستر.

يدل على هذه الحقيقة ما روي عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال:

قال رسول الله ﷺ:

«المجالس بالأمانة ، إلا ثلاثة مجالس! سفك دم حرام ، أو فرج حرام ، أو اقتطاع مال بغير حق». [رواه أبو داود]

أي مجلس سفك فيه دم حرام ، أو مجلس كان فيه اعتداء على عرض حرام ، أو مجلس اعتدي فيه على مال بغير حق، فهذه المجالس لا حرمة لها ولا أمانة لها.

ولقد كان للتربية الإسلامية المحمدية أثر كبير في نفوس الناس رجالهم وأطفالهم ، قولاً وعملاً وتطبيقاً في كل مجالات التربية ، وفي هذا المجال يمكن أن نذكر ما يلي:

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين تأيمت ابنته حفصة (أي توفي زوجها وصارت بلا زوج) قال عمر:

لقيت عثمان بن عفان فعرضت عليه حفصة ، فقلت: إن شئت أنكحتك حفصة بنت عمر ، قال: سأنظر في أمري ، فلبثت ليالي ، ثم لقيني فقال: قد بدا لي أن لا أتزوج يومي هذا.

فلقيت أبا بكر الصديق فقلت: إن شئت أنكحتك حفصة بنت عمر ، فصمت أبو بكر فلم يرجع إليَّ شيئاً ، فكنت عليه أوجد (أي أكثر غضباً وتألماً) مني على عثمان.

فلبثت ليالي ثم خطبها النبي ﷺ فأنكحتها إياه.

فلقيني أبو بكر فقال: لعلك وجدت عليَّ حين عرضت عليَّ حفصة فلم أرجع إليك شيئاً؟ فقلت: نعم ، قال: فإنه لم يمنعني أن أرجع إليك فيما

عرضت عليَّ إلا أني كنت علمت أن النبي ﷺ ذكرها ، فلم أكن لأفشي سرَّ رسول الله ﷺ ولو تركها النبي ﷺ لقبِلْتها». [رواه البخاري]

وعن ثابت عن أنس رضي الله عنهما قال:

أتى عليَّ رسول الله ﷺ وأنا ألعب مع الغلمان ، فسلم علينا ، فبعثني في حاجة ، فابطأت عن أمي ، فلما جئت قالت: ما حبسك؟ قلت: بعثني رسول الله ﷺ لحاجة ، قالت: ما حاجته؟ قلت: إنها سرّ.

قالت: لا تخبرن بسرّ رسول الله ﷺ أحداً.

قال أنس: والله لو حدثت به أحداً لحدثتك به يا ثابت. [رواه مسلم]

هذا وقد كان حذيفة بن اليمان رضي الله عنه أمين سرّ رسول الله ﷺ في المنافقين.

وأمانة المجالس تعد سراً يجب كتمانه لأنه قد يكون في إفشائه إضرار بصاحبه أو بغيره.

قال الشاعر:

لا يحفـظ الســر إلا كـل ذي كـرم والسـرّ عنـد لئـام النـاس مبـذول

لذلك يرى أهل العلم أنه من الأفضل للسر أن يكون في صدر صاحبه ولا يفشيه لأحد مخافة أن لا يستطيع هذا الإنسان الحفاظ على هذه الأمانة وهذا السر فيفشيه فينتج عن ذلك إساءة لصاحبه.

قال أحد الصالحين:

«إن الذي يفشي سره لغيره يحكمه في نفسه ويجعل زمامه بيده ، فإن يرفق به يحتفظ بسره ولا يفشه ، وإن يرد إعناته أفشاه فأضرّ به وعطّل مصالحه».

قال عمرو بن العاص:

«ما استودعت رجلاً سراً فأفشاه فلمته ، لأني كنت أضيق به صدراً حين استودعته إياه».

وإلى هذا ذهب القائل حيث قال:

إذا ضاق صدر المرء عن سرّ نفسه فصدر الذي يستودع السرَّ أضيق

وقد قال آخر:

إذا أنت لم تحفظ لنفسك سرَّها فسرّك عند الناس أفشى وأضيع

عن معاذ بن جبل قال: قال رسول الله ﷺ:

«استعينوا على إنجاح حوائجكم بالكتمان، فإن كل ذي نعمة محسود».

[رواه الطبراني وأبو نعيم]

ومن كلامٰ الحكماء:

كتمان السر يوجب السلامة، وإفشاؤه يعقب الندامة.

وقال سيدنا علي كرَّم الله وجهه:

سرك أسيرك فإذا فضحته صرت أسيره.

لذلك يجب على العاقل أن يكون صدره أوسع لسره من صدر غيره، بأن لا يفشيه، ومن كتم سره كانت الخيرة في يده، ومن أنبأ الناس بأسراره، هان عليهم وأذاعوها، ومن لم يكتم السر استحق الندم، ومن استحق الندم صار ناقص العقل، ومن دام على هذا رجع إلى الجهل، فتحصين السر للعاقل أولى به من التلهف بالندم بعد خروجه منه.

ضد الأمانة:

الخيانة ضد الأمانة:

والخيانة هي الإخلال بحقوق ما استأمننا الله ورسوله والناس عليه.

وخيانة حقوق خلق الله هي خيانة لهم، وخيانة لله تعالى أيضاً، وذلك لأن من حق الله علينا أن لا نخون أحداً من خلقه.

وقد نهانا الله عن خيانة الأمانات كلها.

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾. [الأنفال: ٢٧]

فالخيانة تقسم إلى ثلاثة أقسام:

١ ـ خيانة العبد لله عز وجل وهي أعظم خيانة ، وهي جحده ، والكفر أو الشرك به ، وإنكار وجوده وتكذيب رسله.

ومن خيانة الله عز وجل تعطيل فرائضه التي أوجبها علينا وعدم امتثال أوامره واجتناب نواهيه.

٢ ـ خيانة العبد للرسول ﷺ ، فأكبر هذه الخيانة إثماً ، وأعظمها وزراً ، تكذيب الرسول ﷺ وإنكار رسالته.

ومن خيانة العبد للرسول الانصراف عما شرع لنا عن ربه ، إلى ما شرع غيره من خلق الله.

٣ ـ خيانة بعضنا بعضاً المعبر عنه بقوله تعالى: ﴿وَتَخُونُوٓاْ أَمَـٰنَـٰتِكُمْ﴾.

فقد جمعت هذه الجملة الصغيرة كل ما يتعلق بالأمانات فيما بيننا ، ومن هذه الخيانة إنكار الودائع والغش والسرقة وإفشاء السر وهتك الأعراض وغير ذلك.

وقد بين الله تبارك وتعالى أنه لا يحب الخائنين.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ﴾. [الأنفال: ٥٨]

كما بين الله عز وجل أنّه بسبب الخيانة وفقدان الأمانة قذف بامرأتين من نساء الأنبياء والمرسلين في النار.

قال الله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَـٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾. [التحريم: ١٠]

قال بعض الحكماء:

«من خان مان (كذب) ومن مان هان وتبرأ من الإحسان».

وقيل في منثور الحكم: من يخن يهن ، ومن الكرم الوفاء بالذمم.

وقيل أيضاً: من ضيع الأمانة ورضي بالخيانة فقد برىء من الديانة.

قال ابن عباس رضي الله عنهما:

«كلب أمين خير من صاحب خؤون».

قال: وكان للحارث بن صعصعة ندماء لا يفارقهم، وكان شديد المحبة لهم: فخرج في بعض منتزهاته ومعه ندماؤه، فتخلف منهم واحد فدخل على زوجته، فأكلا وشربا ثم اضطجعا، فوثب الكلب عليهما فقتلهما.

فلما رجع الحارث إلى منزله وجدهما قتيلين عرف كل شيء، وأنشأ يقول:

وما زال يرعى ذمتي ويحوطني ... ويحفظ عرسي والخليل يخون
فيا عجباً للخل يهتك حرمتي ... ويا عجباً للكلب كيف يصون

عرسي: زوجتي.

شكك بعضهم في حد السرقة الذي تقطع اليد به، عندما تسرق ربع دينار وتساءل معترضاً منكراً:

يد بخمس مئين عسجدٍ وديَتْ ... ما بالها قطعت بربع دينار

يريد بهذا أن يقول: إن هذه اليد إذا اعتدى عليها إنسان آخر وقطعها، فإن ديتها خمس مئة دينار، نصف دية كاملة، فكيف تقطع بسرقة ربع دينار؟؟

فأجابه القاضي عبد الوهاب المالكي رحمه الله تعالى بقوله:

عزُّ الأمانة أغلاها وأرخصها ... ذلُّ الخيانة فافهم حكمة الباري

وأجاب ابن الجوزي رحمه الله لما سئل عن ذلك أيضاً بقوله:

«لما كانت أمينة كانت ثمينة، ولما خانت هانت».

من قصص الخيانة قصة جرت في عهد الرسول ﷺ، فكشفها الله وأنزل فيها قرآناً، وخلاصة هذه القصة ما يلي:

كان طعمة بن بشير بن أبيرق من مسلمة الأنصار، وكان بشير أبو طعمة هذا من المعروفين بالنفاق، قالوا:

فنقب طعمة جداراً لرفاعة بن زيد وسرق له درعين ودقيقاً، وكان في جراب الدقيق خرق فجعل ينتثر منه الدقيق، وكان أثر ذلك مادياً دل على اللصوص.

وعرف رفاعة بن زيد وأهله أن بني أبيرق هم الذين سرقوا الدرعين والدقيق ، فجاء قتادة بن النعمان ابن أخي رفاعة بن زيد إلى رسول الله ﷺ فشكا إليه بني أبيرق وما كان منهم من سرقة ، وشاع أمر بني أبيرق في المدينة فأرسلوا إلى رسول الله ﷺ أسيد بن عروة بن أبيرق .

فقال يا رسول الله : إن هؤلاء قد عمدوا إلى أهل بيت هم أهل صلاح ودين فاتهموهم بالسرقة ، ورموهم بها من غير بينة ، وأخذ يجادل عن ذويه . فتنكر الرسول ﷺ لقتادة بن النعمان ورفاعة بن زيد ، لأنهم قد اتهموا بني أبيرق دون بينة ، فأنزل الله عليه ما بين له فيه خيانة اللصوص ، ونهاه عن أن يدافع عنهم ، أو يجادل لتبرئتهم فهم مدينون بالخيانة ، لاسيما وأمارتها تشير إليهم .

ثم لم يقتصر بأمر بني أبريق على إنكار ما كان منهم من خيانة ، وإنما رموا بها بريئاً فألصقوا به التهمة ، وهذا البريء هو لبيد بن سهل ، إذ قال بنو أبيرق : لسنا السارقين ، ولكن السارق لبيد بن سهل ، فلمَّا أنزل الله ما أنزل ، وبرأ لبيداً من التهمة ، هرب السارق من بني أبيرق إلى مكة ، ثم هرب إلى خيبر ، ثم إنه نقب بيتاً ذات ليلة ليسرق ، فسقط الحائط عليه فمات .

أما الآيات التي نزلت بصدد هذه الحادثة ، فهي قول الله تعالى لرسوله في سورة النساء : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ

﴿أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ .
[١٠٥ - ١١٣]

رفـع الأمـانـة :

في أحاديث رسول الله ﷺ دلالة على رفع الأمانة من قلوب الناس بالتدريج حتى إذا ضيعت الأمانة قامت الساعة .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال :

بينما كان النبي ﷺ يحدث ، إذ جاء أعرابي فقال :

متى الساعة؟

قال : «إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة» . [رواه البخاري]

وعن حذيفة بن اليمان قال :

حدثنا رسول الله ﷺ عن رفع الأمانة فقال :

«ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه ، فيظل أثرها مثل الوَكْت ، ثم ينام النومة فتقبض الأمانة من قلبه ، فيظل أثرها مثل المَجْل ، كجَمْر دحرجته على رجلك فنَفِط ، فتراه مُنتَبِراً وليس فيه شيء» .

ثم أخذ الرسول ﷺ حصى ، فدحرجه على رجله ، ثم قال :

«فيصبح الناس يتبايعون ، فلا يكاد أحد يؤدي الأمانة ، حتى يقال : إن في بني فلان رجلاً أميناً ، حتى يقال للرجل : ما أجلده ، ما أظرفه ، ما أعقله ، ومافي قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان» . [رواه البخاري ومسلم]

الوَكْت : هو الأثر اليسير للشيء .

المَجْل : تَنفُّطُ اليد من العمل وغيره (ظهور انتفاخ يحوي ماء) .

منتبراً : أي مرتفعاً .

في هذا الحديث تصوير نبوي للواقع الذي سيحدث قبل قيام الساعة من رفع الأمانة ، وفيه من الإبداع البلاغي المقدار العظيم .

فهو يصور بقايا الأمانة في القلوب عند حالات التغير المفاجىء ، بتأثير التيارات الاجتماعية ، والضلالات الفكرية ، والانحرافات السلوكية .

كما يصور مرحلة من مراحل الانهيار الخلقي ، وذلك بأن تصبح الأمانة اسماً لا مسمى له في القلوب ، ولا أثر له في السلوك ، ويصبح الحديث عنها كلاماً فقط ، ليس فيه حقيقة في الواقع ، فإذا نظرت إلى مظهر الكلام عنها والدعاوى حولها ، وجدتها منتفخة كبيرة ، ثم إذا غمزتها في واقع تطبيقي عملي وجدتها فارغة خواء ، كالنفطات التي تنتبر على الجلد من الحروق أعاذنا الله من شرور ذلك الزمان .

رويَ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

«بادروا بالأعمال فتناً كقطع الليل المظلم ، يصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافراً ، أو يمسي مؤمناً ويصبح كافراً ، يبيع دينه بعرض من الدنيا» .

[رواه مسلم]

* * *

مسرحية في موضوع خلق الأمانة

«فأين الله»

يفتح الستار عن منظر صحراء يجلس في إحدى زوايا المسرح راع بملابس بدوية رثة ، ثم يظهر من الجانب الآخر رجلان يسيران ، يبدو عليهما التعب الشديد من أثر سفر طويل في هذه الصحراء.

عبد الله : يا أخي عبد الرحمن ما أشد حاجتنا إلى شربة ماء تروي غليلنا ، وتذهب عنا ما ألمّ بنا من هذا الظمأ المهلك.

عبد الرحمن : أجل والله يا أخي يا عبد الله بن عمر ، إني لا أكاد أطيق عليه صبراً.

عبد الله : (ينظر إلى بعيد فيرى راعي غنم).

فيصيح : انظر هناك راع للغنم ، لقد نجونا فلنسرع نحوه.

(يسرعان باتجاهه).

عبد الله وعبد الرحمن : السلام عليكم.

الراعي : وعليكما السلام ورحمة الله وبركاته.

أراكما تعبان ، اجلسا حتى احضر لكما شيئاً تشربانه.

(يذهب الراعي خارج المسرح ثم يعود وبيده وعاء فيه اللبن).

الراعي : هاكما شربة من اللبن عساها تخفف عنكما ما أنتما فيه.

عبد الرحمن: يتقدم فيأخذ الوعاء، ثم يقدمه إلى عبد الله قائلاً (اشرب يا أخي).

عبد الله: بل اشرب أنت أولاً.

عبد الرحمن: (يشرب ثم يقدم الإناء إلى عبد الله فشرب، ثم يحمدا الله على ذلك).

(يبقى في الإناء قليل من اللبن يقدمه عبد الله إلى الراعي).

عبد الله: شكراً لك يا أخا العرب، لقد حلبت لنا من غنمك أضعاف ما يستطيع أن يشربه رجلان، فهلا أخذت فضلة هذا الإناء فشربتها.

الراعي: (يأخذ الإناء ويضعه جانباً).

عبد الله: هلا شربت ما بقي في الإناء قبل أن يفسده الحرّ.

الراعي: لا، لا أريد.

عبد الله: ولَم؟؟

الراعي: إنني صائم.

عبد الله: صائم؟؟!!

الراعي أجل إنني صائم.

عبد الرحمن: ولكن الشهر ليس شهر رمضان.

الراعي: أعلم، وإنني أصوم النفل.

عبد الله: أوَتصوم في حر هذه الصحراء في أشهر الصيف الحارة؟

الراعي: إنني أصوم في حرّ هذا اليوم اتقاء حرّ ذلك اليوم الذي سنقف فيه أمام الله سبحانه ليحاسبنا على أعمالنا.

(يندهش عبد الله، ويسكت، ويتنحى إلى جانب المسرح، ويتبعه عبد الرحمن مستفسراً).

عبد الرحمن: مالك يا بن عمر؟ هل من أمر يزعجك؟

عبد الله : لا يا أخي ، ولكني أفكر في أمر هذا الفتى .

عبد الرحمن: وما الذي استرعاك من أمره؟

عبد الله : هذا الإيمان ، هذه التقوى ، وأريد أن أمتحنه لأرى ذلك فيه أعن علم ويقين أم عن عاطفة عابرة؟

عبد الرحمن: وكيف تمتحنه؟؟

عبد الله : بالمعاملة ، بالأمانة.

عبد الرحمن: وكيف؟؟

عبد الله : سترى وتسمع (يتقدم إلى الراعي).

عبد الله : يا أخانا إنّا بمسيس الحاجة إلى طعام ، لقد مضى علينا في سفرنا هذا ثلاثة أيام لم نذق خلالها طعاماً .

الراعي: إني في أشد الأسف فليس لدي ما أقدمه لكما ، وليس لدي زوادة ، إذن لآثرتكما بها ، ورضيت مختاراً أن أبيت على الطوى .

عبد الله : إذن اذبح لنا شاة وهيء لنا منها طعاماً .

الراعي: إن الشياه ليست لي ، فأنا عبد مملوك ، والغنم ملك لسيدي ، وقد أذن لي أن أسقي عابر السبيل من لبنها ، غير أنه لم يأذن لي بذبح شيء منها .

عبد الرحمن: أين أنت من سيدك الآن؟

الراعي: هو بعيد عنا مسيرة ثلاث ليال .

عبد الله : إذن ما دام سيدك بعيداً عنك ، لا يراك ، فاذبح لنا شاة ، وأنا أعطيك ثمنها .

الراعي: وإذا لم يرض سيدي بذلك؟

عبد الرحمن: وهل من الضروري أن تخبره؟

الراعي: وماذا أفعل بثمنها؟

عبد الله : تأخذه لك يبقى المال كله لك .

الراعي : وسيدي والغنمة؟

عبد الله : تقول له أكلها الذئب .

الراعي : (يحملق بالرجلين ويهز عصاه غضباً) ثم يصيح :

ماذا تقول يا رجل؟! أذبح الغنمة وآخذ ثمنها! وأقول لسيدي أكلها الذئب! .

عبد الرحمن : أجل هوِّن عليك ولن أخبر سيدك بشيء .

الراعي : وهل نستطيع أن نستر الأمر عن العليم الخبير؟ الذي يسمع دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء الملساء .

إذا لم تخبرا سيدي!

إذن فأين الله؟ فأين الله؟ فأين الله؟؟ (ينظر عبد الله وعبد الرحمن إلى حالة الراعي ، ثم ينظران إلى بعضهما ثم يصيحان) .

فأين الله؟ فأين الله؟ فأين الله؟

«ويسدل الستار»

* * *

واجبات الآباء والمربين تجاه أبنائهم وبناتهم

واجبات الآباء والمربين تجاه أبنائهم وبناتهم كثيرة، وخاصة في ميادين التربية والتقويم والتهذيب وهي ضرورية ويجب الاستمرار فيها، فهي أهم شيء يقدمه الآباء والمربون لأبنائهم وبناتهم ليكونوا خيرخلف لخير سلف.

ونذكر هنا بعض الواجبات في موضوع التخلق بخلق الأمانة:

الواجبات في موضوع التخلق بخلق الأمانة:

١ ـ توضيح خلق الأمانة وعظمته لهم والتشجيع عليه وحثهم على التزامه.

٢ ـ غرس خلق الأمانة في نفوس الأبناء من ذكور وإناث في مجالات كثيرة، عن طريق المراقبة والتوجيه والتشجيع والمناقشة.

٣ ـ مكافأة الأبناء في مواقف متعددة يظهر فيهم هذا الخلق، مع إبراز هذه المواقف أمام الآخرين، ليكون ذلك سبباً في تشجيعهم وتشجيع الآخرين للمحافظة على هذا الخلق القويم.

٤ ـ شرح وإيضاح لأنواع الأمانة ومطالبتهم بتطبيق الأمانة في كل هذه الأنواع.

٥ ـ مراقبة الأبناء في تصرفاتهم، ومعالجة أخطائهم إن وجدت بشكل تربوي، يبعدهم عن ارتكاب الأخطاء، ويساعدهم على التخلق بأخلاق الإسلام كاملة، بالكلمة الطيبة والمعاملة الحسنة والقدوة الصالحة.

* * *

العبرة والتطبيق:

أيها الناشئة [المؤمن والمؤمنة]:

بعد أن علمت عن خلق الأمانة كل ما يتعلق بهذا الخلق الكريم ، قررت في نفسك ما يلي:

١ ـ المبادرة السريعة إلى رد كل أمانة بين يديك وتأخرت في أدائها لأي سبب كان سابقاً ، مع الاعتذار من أصحابها وطلب السماح منهم.

٢ ـ الاستغفار والتوبة النصوح عن كل ما مضى منك من أخطاء تتعلق بهذا الخلق.

٣ ـ معاهدة الله سبحانه وتعالى على التخلق بهذا الخلق كاملاً وعدم الوقوع في الخيانة وما يتعلق بها.

٤ ـ النظر في أعمالك ومعاملاتك وما يتعلق بها من أنواع الأمانات وأدائها إلى أهلها بما تأمره الشريعة وبما فيه رضاء الله سبحانه وتعالى.

٥ ـ حفظ الأمانات التي توكل إليك بكل أنواعها على أفضل ما يكون ، أداء لحق الله ، وحق الناس ، وحباً في هذا الخلق مع الإخلاص لله سبحانه وقدوة للآخرين في ضرورة التمسك به.

٦ ـ حث إخوتك على التخلق بخلق الأمانة ومراقبتهم على ذلك ، مع ذكر قصص الأمانة ، ومواقف الأمانة المتعددة ، وبيان عظمتها ومكانتها وتنميتها في نفوسهم ، مع مكافأتهم عند ظهور الأمانة منهم في المواقف المتعددة.

٧ ـ دعوة الآخرين من أصدقائك وجيرانك وغيرهم إلى هذا الخلق ، مع تبيان ضرورة وأهمية التمسك به ، ليعلو شأن المجتمع ويعمَّ الخير فيه.

٨ ـ إظهار سرورك وتقديرك في مواقف يظهر منها خلق الأمانة عند الآخرين ، وإبراز هذا الخلق وأهميته والمكافأة عليه إن أمكن ذلك .

٩ ـ الابتعاد عن الخيانة في كل أنواعها وما يتعلق بها مطالباً نفسك بذلك وإخوتك وأصدقاءك وكلاً من تستطيع نصحه ودعوته ، لما في الخيانة من ظلم وفحش ومعصية لله وبعدٍ عن الله عز وجل ورضاه .

١٠ ـ دعاء الله سبحانه وتعالى أن يثبتك في كل أمور حياتك على أداء الأمانات « بكل أنواعها ، وفي جميع ظروف حياتك » وعلى أفضل مستوى » والبعد عن الخيانة بكل أشكالها وألوانها إنه قريب مجيب ، مع الشكر والحمد لله عز وجل عند ظهور خلق الأمانة منك أن ألهمك وهداك إلى الصراط المستقيم وإلى ما يحبه ويرضاه .

* * *

خُلُقُ الوَفَاءِ

٤

تعريف الوفاء:

الوفاء في اللغة:

مادة (وفي) تدل على الإكمال والإتمام.

وجاءت من المادة كلمة (الوفاء) بمعنى إتمام العهد وإكمال الشرط.

ويقال: أوفيتك الشيء ، إذا قضيتك إياه وافياً.

كما يقال: استوفيتك حقي ، أو توفيتك حقي أي أخذته كاملاً.

وفي الحديث:

«أوفى الله ذمتك» أي أتمها.

وكل شيء بلغ تمام الكمال فقد وفى وتمّ ، والوفيُّ ـ بوزن الغني ـ هو الذي يعطي الحق.

وسمي الموت وفاة ، لاستيفاء الميت مدته التي وفِّيت له.

ومنه قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾. [الزمر: ٤٢]

أي يستوفي مدد آجالهم ، أو يستوفي تمام عددهم إلى يوم القيامة.

الوفاء في الأخلاق:

الوفاء هو الالتزام بما عاهد عليه الإنسان ربّه أو غيره من الناس.

وهو أيضاً ملازمة طريق المواساة ، والمحافظة على عهود الخلطاء ، ومنه

ما قاله الغزالي يصف وفاء الأخ لأخيه بأنه الثبات على حبه حتى الموت ، وبعد الموت مع أولاده وأصدقائه.

والوفاء أيضاً هو حسن العهد مع الله والناس بالشكر والثناء وعدم نسيان الجميل ، فمن الوفاء أنه من أحسن إليك بقليل أو كثير في أي وقت وحين ، ألاّ تنسى هذا الإحسان أبداً وأن تسعى في ردّ الجميل إليه بأشكال شتى.

أهمية الوفاء:

للوفاء أهمية كبرى في الإسلام ، فقد روي عن أنس رضي الله عنه قال:

قال رسول الله ﷺ:

«لا دين لمن لا عهد له» [رواه أبو يعلى والبيهقي].

فالوفاء هو القوام لمكارم الأخلاق ، به تستقيم الحياة ، وهو ميزان المروءة ، ومقياس الفضل في الأفراد والأمم ، ولو دان به الناس لوجدوا السعادة كاملة.

يحدث الوفاء في نفس الوفي من الغبطة ما لا حدّ له ، وفي نفس الموفّى له ، الرغبة في البر والمروءة ، واصطناع المعروف عند الناس.

والأمم الوفية تبتغي صداقتها ، ويرغب في معاهدتها ويوفّى لها بذمتها.

وانظر إلى العالم المضطرب الذي نعيش فيه ، أليس عدم الوفاء قوام هذا الاضطراب؟ إذا كان الحليف لا يأمن عهد حليفه ، فأنى لأحدهما أن يستقرّ إلى ضمان من هذا العهد يقيه مظنة السوء ، ويكفيه شرّ الخوف ، ويوفر عليه نفقات الاستعداد ليوم الغدر؟

لو أن العهود والمواثيق كان لها من الحرمة ما أراد لها رسول الله ﷺ ، لما هبط العالم إلى حياة الدس والكيد ، والذمم المخفورة ، والجوار المنتهك.

ولو سار المسلمون على النهج الذي نهجه النبي ﷺ ، واقتدى بهم غيرهم ، لوضعت العلاقات الدولية على أثبت القواعد التي تكفل السلم ، وتضمن الإنصاف وتستبقي الكرامة للناس جميعاً.

فما أحوج الناس اليوم إلى التمسك بخلق الوفاء ، فالوفاء ما تحلَّى به إنسان إلا كان زينة له ورفعة من شأنه .

وما تجرد منه إنسان إلا عرّى من الفضائل كلها ، وهوى إلى أحط المستويات .

وكما قيل : الوفاء من شيم النفوس الشريفة ، والأخلاق الكريمة ، والخلال الحميدة ، يعظم صاحبه في العيون ، وتصدق فيه خطرات الظنون .

يقول ابن أبي الحديد في (شرح نهج البلاغة) :

«الوفي محفوظ من الله ، مشكور بين الناس» .

فالوفاء مقياس يعرف به الطيب من الخبيث ، والفاضل من السفيه ، والمؤمن من المنافق .

فمن وفى وعده ، والتزم شرطه ، وصان عهده ، كان رجلاً مؤمناً فاضلاً يستحق التقدير والاحترام .

ومن غشَّ وغدر وخان ، كان نذلاً جباناً ، منافقاً ، حقير النفس ، مائع الخلق ، خسيس الطبع .

لمن يكون الوفاء :

أولاً ـ لله سبحانه وتعالى ، ويكون الوفاء لله بالإيمان به ، والخضوع له واتباع أوامره ، واجتناب نواهيه ، والتحقق بكمال العبودية له ، والدعوة إلى دينه والثبات على شرعه ، والوفاء بما تعاهده عليه من توبة صادقة وعهود ووعود مختلفة ونذور تنذرها .

ثانياً ـ للرسول ﷺ ، ويكون الوفاء للرسول ﷺ باتباع سنته ، والاهتداء بهديه ، والاقتداء بشمائله وأخلاقه ، وتصرفه بالقول والفعل ، والصلاة والسلام عليه عند ذكره ، وتذكره .

ثالثاً ـ للناس ويكون الوفاء مع الناس بحسن العهد معهم ، وبالوفاء لهم

بالعهود والعقود والكيل والقروض ، وكل أنواع الوفاء المختلفة وعلى أتم وجه.

مكانـة الـوفـاء في الإسـلام:

لخلق الوفاء في الإسلام مكانة كبيرة نتعرف عليها من خلال ما يلي:

أولاً ـ الوفاء صفة من صفات الله سبحانه وتعالـى:

إن أشرف مكانة للوفاء هي أن يصف الله تبارك وتعالى ذاته القدسية بالوفاء في القرآن الكريم في عدد من السور والآيات.

قال الله عزَّ وجلَّ:

١ ـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾. [التوبة: ١١١]

ومعنى قوله: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾ أنه لا أحد أوفى بعهده، ولا أصدق في إنجاز وعده من الله جل جلاله، فهو القادر المتمكن من الوفاء، وهو أصدق الواعدين، وأوفى المعاهدين.

وقال أيضاً:

٢ ـ ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾. [آل عمران: ٥٧]

٣ ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾. [فاطر: ٢٩ ـ ٣٠]

والله سبحانه وتعالى يوفي كل إنسان حقه، سواء أكان مستقيماً أم منحرفاً، صالحاً كان أم طالحاً، فكل واحد منهم وما يستحقه ويليق به.

قال الله تعالى:

٤ ـ ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ . [البقرة: ٢٨١]

٥ ـ ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ .

[آل عمران: ١٨٥]

٦ ـ ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ . [الزمر: ٧٠]

٧ ـ ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ . [الأحقاف: ١٩]

٨ ـ ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ﴾ . [النجم: ٣٩ ـ ٤١]

ثانياً ـ الوفاء خلق إسلامي أمر القرآن الكريم به وحث عليه :

قال الله عزّ وجلّ :

١ ـ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ . [المائدة: ١]

٢ ـ ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾ . [النحل: ٩١]

٣ ـ ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ . [الإسراء: ٣٤]

ثالثاً ـ الوفاء صفة من صفات الرسل عليهم السلام :

لقد نوّه القرآن الكريم بسمو فضيلة الوفاء حين جعلها صفة للأنبياء عليهم السلام قال الله تعالى : ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ﴾ . [النجم: ٣٧]

وقد وفّى سيدنا إبراهيم بكلمات الله المشار إليها في قوله تعالى : ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ . [البقرة: ١٢٤]

فقد بذل سيدنا إبراهيم غاية جهده في كل ما طولب به من ربه ، فبذل ماله في طاعة الله ، وقدم ولده إسماعيل قرباناً لله ، حتى فداه الله ، وقاوم الوثنية والإشراك ، وفضّل حق ربه على حق أبيه ، واحتمل ابتلاء الإحراق بالنار في سبيل الله ، إلى غير ذلك من ألوان الوفاء .

وقال الله تعالى في الحديث عن سيدنا إسماعيل :

٢ ـ ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ . [مريم: ٥٤]

وإنما خصَّ الله سيدنا إسماعيل بذكر صفة الوفاء هنا ، وصدقه في الوعد ، لأنه كان مشهوراً بذلك؟ وكانت له في هذا الباب أشياء لم تعهد من غيره.

وحسبنا أنه وعد بالصبر على الذبح ، وقال لأبيه: ﴿ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾. [الصافات: ١٠٢]

ووفى بعهده وصدق في وعده فكان من المخلصين.

رابعاً ـ الوفاء صفة من أهم صفات نبينا المصطفى ﷺ:

وخلق الوفاء عند النبي ﷺ كان قبل البعثة وبعدها ، يتصف به ويدعو إليه ، والأمثلة على ذلك كثيرةٌ جداً ، نذكر منها:

١ ـ فقد روى عبد الله أبو الحمساء رضي الله عنه قال:

بايعت النبي ﷺ ببيع قبل أن يبعث ، وبقيت له بقية (أي من ثمن البيع) فوعدته أن آتيه بها في مكانه ، فنسيت ، ثم ذكرت بعد ثلاث ، فجئت فإذا هو في مكانه ، فقال:

«يا فتى: لقد شققت عليّ أنا هاهنا منذ ثلاث أنتظرك».

٢ ـ روى الإمام مسلم في صحيحه ، أن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه كان في مكة عقب هجرة النبي ﷺ إلى المدينة ، ثم أراد حذيفة أن يهاجر مع أبيه إلى المدينة ، فقبض عليهما المشركون وقالوا لهما:

إنكما تريدان محمداً.

فقالا: ما نريد إلا المدينة.

ثم أخذ المشركون عليهما العهود والمواثيق حتى لا يقاتلا مع النبي ﷺ ، وأعطى حذيفة ووالده على ذلك عهد الله وميثاقه ، ثم هاجرا.

وجاءت غزوة بدر ، فأرادا أن يشاركا فيها ، وأخبرا النبي بما أعطياه للمشركين من عهد وميثاق ، فقال النبي ﷺ لهما:

«انصرفا ، نفي لهما بعهدهم ، ونستعين الله عليهم».

٣ ـ اضطر المسلمون أمام ظروف قاهرة ، واستجابة لنظرة عميقة بعيدة أدركها رسول الله ﷺ ، أن يقبلوا عهد الحديبية بينهم وبين المشركين ، وكان من شروطه شرطٌ أملاه سهيل بن عمرو ممثل المشركين ، ووافق عليه النبي ﷺ :

«من أتى محمداً من قرش بغير إذن وليه رده عليهم ، ومن جاء قريشاً ممن مع محمد لم يرد عليه» .

واشتد هذا الشرط على المسلمين ولكن الرسول عليه الصلاة والسلام ، قال لأصحابه :

«إنه من ذهب منا إليهم فأبعده الله ، ومن جاءنا منهم فرددناه فسيجعل الله له فرجاً ومخرجاً» .

وازداد ضيقهم لما أقبل أبو جندل (ابن سهيل بن عمرو) فارّاً من المشركين يرسف في الحديد ، فقام إليه أبوه آخذاً بتلابيبه وهو يقول :

«يا محمد : قد لجت القضية بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا» .

قال رسول الله ﷺ : صدقت .

فجعل سهيل ينتر ويجر ولده ليرده إلى قريش ، وأبو جندل يصرخ بأعلى صوته : يا معشر المسلمين ، أُردُّ إلى المشركين يفتنوني في ديني؟؟

فقال رسول الله ﷺ :

«يا أبا جندل : اصبر واحتسب فإنَّ الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً ، إنَّا أعطينا القوم عهوداً ، وإنَّا لا نغدر بهم» .

٤ ـ لقد جاء إلى النبي ﷺ بعد ذهابه إلى المدينة رجل آخر قد أسلم من قريش اسمه «أبو بصير» ، فأرسلوا في طلبه رجلين من المشركين ليستردوه فسلمه الرسول ﷺ إليهما ، فخرجا به حتى بلغا ذا الحليفة ، فغافل أبو بصير أحد حارسيه وأخذ منه سيف فقتله ، ففرّ الآخر ، ثم عاد أبو بصير إلى رسول الله ﷺ فقال له :

«يا نبي الله: قد والله أوفى الله ذمتك، قد رددتني إليهم فأنجاني الله منهم».

ثم إنه خرج حتى أتى سيف البحر، وتفلت أبو جندل فلحق به هناك، وأصبح ذلك المكان مثابة للمسلمين من أهل مكة، فلا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبي بصير وإخوانه فما كانوا يسمعون بعير لقريش خرجت إلى الشام، إلا اعترضوا لها فقتلوا المشركين، وأخذوا أموالهم، فأرسلت قريش إلى رسول الله ﷺ تناشده الله والرحم أن يقبلهم عنده ويضمهم إليه، فجاؤوا إلى المدينة. [رواه البخاري]

خامساً ـ الوفاء من أهم صفات الصحابة الكرام رضي الله عنهم:

تحدثنا السيرة العطرة وقصص الصحابة بأن الوفاء كان زينة الشخصيات المؤمنة التي تآلفت على عهد الرسول ﷺ، وفي صدر الإسلام، حتى قال التنزيل الحميد: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾. [الأحزاب: ٢٣]

وقد روي في سبب نزول هذه الآية الكريمة أن الصحابي الجليل أنس بن النضر لم يستطع أن يشهد غزوة بدر، فحزن لذلك، وقال للنبي:

يا رسول الله: غبت عن أول قتال قاتلت فيه المشركين، لئن أشهدني الله مع النبي قتال المشركين ليرينّ ما أصنع.

وجاء يوم الوفاء، جاء يوم أحد، وانكسر المسلمون في القتال وثبت أنس، وهتف يقول: اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء (يعني أصحابه)، وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء (يعني المشركين)، ثم انطلق يدافع ويجاهد، وقابله سعد بن معاذ، فقال له أنس محرضاً على الجهاد حتى النصر أو الشهادة:

يا سعد بن معاذ، الجنة وربّ النضر، إني لأجد ريحها من دون أحد.

ثم انطلق أنس يكافح ويجاهد ويؤدي واجب الوفاء والفداء حتى نال الشهادة في سبيل الله بلا تردد ولا تقهقر، بعد أن أصابه بضعة وثمانون جرحاً، ما بين ضربة بالسيف، أو طعنة بالرمح، أو رمية بالسهم، ومثّل بجثته

المشركون الطغاة ، حتى خفيت معرفته على قومه ، فلم يعرفه إلا أخته بعلامة كانت فيه ، عليه رضوان الله تبارك وتعالى.

هذا ولقد كان رسول الله ﷺ يتلو هذه الآية عندما ما يرى أحداً من أصحابه الكرام يستشهد في سبيل الله ، كما فعل ﷺ عندما كان هو وأصحابه يتفقدون أرض المعركة بعد أحد ، ويودعون شهداءها ، وعند جثمان مصعب سالت دموع وفية غزيرة.

يقول خباب بن الأرتّ:

«هاجرنا مع رسول الله ﷺ في سبيل الله ، نبتغي وجه الله ، فوجب أجرنا على الله ، فمنا من قضى ، ولم يأكل من أجره في دنياه شيئاً ، منهم مصعب بن عمير قتل يوم أحد ، فلم يوجد له شيء يكفن به إلا نمرة ، كنا إذا وضعناها على رأسه تعرت رجلاه ، وإذا وضعناها على رجليه برزت رأسه فقال لنا رسول الله ﷺ:

«اجعلوها مما يلي رأسه ، واجعلوا على رجليه من نبات الإذخر».

وقف الرسول ﷺ عند مصعب بن عمير ثم قال وعيناه تلفانه بضيائهما وحنانهما ووفائهما:

«من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً».

ثم ألقى في أسى نظرة على بردته التي كفن بها وقال:

«لقد رأيتك بمكة ، وما بها أرقّ حُلةً ولا أحسن لمةً منك ، ثم ها أنت ذا شَعِثُ الرأس في بُرْدَة»...؟!

وإلى جانب هذه المواقف الإسلامية للصحابة الكرام التي تدل على خلق الوفاء الذي التزموه عملاً ، كان لهم أقوالٌ عظيمة في موضوع الوفاء.

فهذا أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكرّم الله وجهه ، يقول في الوفاء:

«إنَّ الوفاءَ تَوْأمُ الصدق ـ أي أن الصدق والوفاء قرينان ـ ولا أعلم جُنَّة ـ وقاية ـ أوفى منه ، ولا يغدر من عَلِمَ كيف المرجع ـ من علم أن رجوعه إلى الله لا يقبل الغدر ، ولا يفعل الخيانة ـ ولقد أصبحنا في زمان قد اتخذ أكثر أهله الغدر كَيساً ـ أي يعدونه من باب التعقل وحسن الحيلة ـ ، وينسبهم أهل الجهل إلى حسن الحيلة ، ما لهم قاتلهم الله؟؟ .

قد يرى الحُوّل القُلَّب ـ البصير بتحويل الأمور وتقليبها ـ وجه الحيلة ، ودونه مانع من أمر الله ونهيه ، فيدعها رأي عين بعد القدرة عليها ، وينتهز فرصتها من لا حريجة له في الدين» .

سادساً ـ الوفاء من أهم صفات المؤمنين الأخيار الأبرار الأتقياء :

وقد بين ذلك سبحانه وتعالى في العديد من الآيات ، منها قوله سبحانه :

١ ـ ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ . [آل عمران : ٧٦]

٢ ـ ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴾ .

[الرعد : ١٩ ـ ٢٠]

٣ ـ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ . [الفتح : ١٠]

فقد ذكر الله سبحانه في الآية الأولى بأن الأوفياء يستحقون محبة الله عزّ وجلّ ، وفي الآية الثانية وصف الله الأوفياء بأنهم أولو الألباب والعقول .

وفي الآية الثالثة ذكر الله عزّ وجلّ الأجر العظيم الذي سيؤتيه للأوفياء .

سابعاً ـ الوفاء صفة جعلها الله جزاءً لمكارم الأعمال والخصال :

قال الله تعالى :

١ ـ ﴿ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ ﴾ . [البقرة : ٢٧٢]

٢ ـ ﴿ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ ﴾ . [الأنفال : ٦٠]

٣ ـ ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ . [الزمر : ١٠]

ثامناً ـ الوفاء صفة اهتم بـها العرب منذ القديـم :

لقد كان العرب في الجاهلية يقدرون خلق الوفاء ، ويرفعون من شأن من اشتهر به حتى كانوا يضربون بهم الأمثال ، ويلهجون بذكرهم في الأندية والمجتمعات ، ويترنمون بمدحهم وحسن الثناء عليهم .

وممن اشتهر بينهم بالوفاء كثيرون ، أذكر منهم الطائي صاحب النعمان بن المنذر الذي جعل يومين : يوم بؤس : من صادفه فيه قتله وأَرْداه ، ويوم نعيم : من لقيه فيه أحسن إليه وأغناه .

وكان رجل طائي قد رماه حادث دهره بسهام فاقته وفقره ، وأبلاه القدر من عسره بما أنساه جميل صبره ، وأغراه بشكوى ضره هذا إلى أطفال وعيال أنهكهم السقام لضيق ذات يده ، فخرج يرتاد نعجة لصغاره ، ويحاول مجادب دروج شبعة يخمد بها من الجوع شعلة ناره .

فبينما هو في اضطراب تطوافه وقد أصاب شيئاً من القوت حمله في جرابه ، إذ أوقعه القدر في شرك النعمان في يوم بؤسه ، فلما بصر به الطائي علم أنه مقتول ، وأن دمه مطلول .

فقال : حيا الله الملك ، إنَّ لي صبية صغاراً ، وأهلاً جياعاً ، وقد أرقت ماء وجهي في طلب هذه البلغة الحقيرة لهم ، وأعلم أن سوء الحظ أقدمني على الملك في هذا اليوم العبوس ، وقد قربت من مقر الصبية والأهل ، وهم على شفا جُرُف من الطوى ، ولن يتفاوت الحال في قتلي بين أول النهار وآخره ، فإن رأى الملك أن يأذن لي في أن أوصل إليهم هذا القوت ، وأوصي بهم أهل المروءة من الحي لئلا يهلكوا ضياعاً ، وعليَّ عهد الله أني إذا أوصيت بهم أرجع إلى الملك مساء ، وأسلم نفسي بين يديه لنفاذ أمره .

فلما سمع النعمان صورة مقاله وفهم حقيقة حاله ورأى تلهفه من ضياع أطفاله ، رقّ له فقال :

لا آذن لك إلا أن يضمنك رجل معنا ، فإن لم ترجع قتلناه .

وكان شريك بن عدي بن شرحبيل نديم النعمان معه .

فالتفت الطائي إلى شريك وقال له:

يـــا شـــريـــك بـــن عـــدي ... مـــا مـــن المـــوت انهـــزامـــي
بـــل لأطفـــال ضعـــاف ... عـــدمـــوا طعـــم الطعـــام
بيـــن جـــوع وانتظـــار ... وافتقـــار وسقـــام
يـــا أخـــا كـــل كـــريـــم ... أنـــت مـــن قـــوم كـــرام
يـــا أخـــا النعمـــان جُـــد لـــي ... بضمـــان والتـــزام
ولـــك الله بـــأنـــي ... راجـــع قبـــل الظـــلام

فقال شريك بن عدي: أصلح الله الملك على ضماني.

فمرّ الطائي مسرعاً، والنعمان يقول لشريك: إنَّ صدر النهار قد ولى ولم يرجع.

وشريك يقول: ليس للملك عليّ سبيل حتى يأتي المساء.

فلما قرب المساء قال النعمان لشريك: جاء وقتك، فتأهب للقتل.

فقال شريك: هذا شخص قد لاح مقبلاً وأرجو أن يكون الطائي، فإن لم يكن فأمر الملك ممتثل.

فبينما هم كذلك إذا الطائي قد أقبل يشتد في عدوه مسرعاً.

فقال: خشيت أن ينقضي النهار قبل وصولي فعدوت.

ثم وقف قائماً وقال: أيها الملك مر بأمرك.

فأطرق النعمان ثم رفع رأسه وقال: والله ما رأيت أعجب منكما!

أما أنت يا طائي فما تركت لأحد في الوفاء مقاماً يقوم فيه، ولا ذكراً يفخر به، وأما أنت يا شريك فما تركت لكريم سماحةً يذكر بها في الكرماء.

فلا أكون أنا ألأم الثلاثة، ألا وإني قد رفعت يوم بؤسي عن الناس ونقضت يوم عادتي كرامة لوفاء الطائي وكرم شريك.

فقال الطائي:

ولقد دعتني للخلاف عشيرتي فعددت قولهم من الإضلال
إني امرؤ فيّ الوفاء خليقة وفعال كل مهذب مفضال

فقال له النعمان: ما حملك على الوفاء وفيه تلف نفسك؟

قال: ديني، فمن لا دين له لا وفاء له.

فأحسن إليه النعمان ووصله، وأعاده إلى أهله.

أنواع الوفاء:

الوفاء ألوان وأنواع متعددة منها:

أولاً ـ حسن العهد مع الناس وذلك بالشكر والثناء وعدم نسيان الجميل:

فمن الوفاء أنه من أحسن إليك بقليل أو كثير في أي وقت وحين، ألاَّ تنسى هذا الإحسان أبداً، وأن تسعى في رد الجميل إليه بأشكال شتى.

عن أبي سعيد رضي الله عنه قال:

قال رسول الله ﷺ:

«من لم يشكر الناس لم يشكر الله» [رواه الترمذي].

وروي عن النبي ﷺ قوله:

«من أسدى إليكم معروفاً فكافئوه فإن لم تستطيعوا فادعوا له».

[رواه أبو داود]

عن عائشة رضي الله عنها:

أن رسول الله ﷺ قال:

«من أُتي إليه معروف فلْيُكافِىء به، ومن لم يستطع فليذكره، فإنَّ من ذَكَرَهُ فقد شكره، ومن تشبّع بما لم يُعط فهو كلابس ثَوْبَي زُور». [رواه أحمد]

المتشبع: المتزين بأكثر مما عنده، يتكثر بذلك ويتزين بالباطل.

وعلى المسلم شكر الناس ولو كان المعروف الذي قدموه قليلاً.

عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال:

قال رسول الله ﷺ:

«من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير». [رواه ابن أبي الدنيا]

وزاد أحمد:

«ومن لم يشكرِ الناسَ لم يشكر الله والتحدثُ بالنعمةِ شُكْرٌ وتركُها كُفْرٌ، والجماعة رحمة والفرقة عذاب».

فهذا النوع من الوفاء وهو حسن العهد، يدفع الناس لعمل المعروف وبذله للآخرين، ويدفع للتعاون والمحبة والأخوة الصادقة والإيثار والبذل والخدمة، وذلك حينما لا ينسى المؤمن الأهل والأصدقاء والأحباب والخلان، وكل من عاش معه في سني حياته، وكان له محسناً أو معيناً أو مواسياً أو باذلاً له خيرَه ومعروفه ونصائحه وتربيته وتجاربه وماله ووقته، أو أي شيء آخر.

ألا ينسى ذلك كله، وأن ينتظر الفرص المواتية ليرد له الجميل وعلى أحسن ما يكون وبأكثر وأفضل مما قدم له.

وإن لم يستطع رد الجميل لسبب ما، يحاول دائماً أن يَذْكُرَهُ بما فضَّل عليه، وأن يشكره دائماً وأن يرجو الله أن يساعده على رد الجميل.

لا أن يتنكر لمن أحسن إليه وينسى فضله وجميله عليه.

والوفاء بهذا الشكل يساعد على انتشار عمل الخير والمروءة والدعوة إلى الله والنصح والمساعدة والمعاونة، لأن المؤمن مع إخلاصه لله في كل أعمال الخير، إن وجد من يحسن العهد ولا ينسى الوفاء والشكر، فإن ذلك يزيد في اتساع أعمال الخير والبر بكل أنواعها، وحسن العهد من الإيمان وهو من أبرز صفات رسول الله ﷺ.

روت السيدة عائشة رضي الله عنها:

«أن عجوزاً جاءت إلى النبي ﷺ فقال لها: من أنت؟

فقالت: جُثامةُ المُزينة.

فقال: أنت حسّانة؟ كيف أنتم؟ كيف حالكم؟ كيف كنتم بعدنا؟

قالت: بخير، بأبي أنت وأمي.

فلما خرجت قلت: يا رسول الله، تقبل على هذه العجوز هذا الإقبال؟!

قال: إنها كانت تأتينا زمن خديجة، وإنَّ حسن العهد من الإيمان».

وبعد وقعة حنين، وفيها كادت هوازن تقضي على الإسلام لولا ثباته ﷺ جاءه وفد منها، وهي الباغية المستكبرة، تطلب العفو عن أسراها، فماذا وجدت لتحرك به رحمته، وتستثير شفقته؟ لا شيء، فليس أشد سواداً من ماضيها معه، ولكنها وجدت في وفائه وحسن عهده ملجأها ومنتهاها.

فقال رجل منهم: يا محمد، إنَّ في الحظائر مرضعاتك وحواضنك، ولو أنَّا أرضعنا النعمان بن المنذر، أو الحارث بن أبي شمر الغساني، ثم نزل منا مثل الذي نزلت، رجونا عطفه وعائدته علينا.

فقال عليه الصلاة والسلام: أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم.

فقال المهاجرون والأنصار: ما كان لنا من الأسرى فهو لرسول الله.

وبذلك ردّ على هوازن آلاف الأسرى.

تلك هي النفس الوفية، التي تكرم أمة ظالمة مغلوبة، وفاء للبن الذي رضعته فيها.

فهل للمؤمن أن يتذكر أصحاب المعروف عليه، ويحسن العهد بهم، ويسعى في رد الجميل لهم، وشكرهم والثناء عليهم والدعاء لهم.

ولم ينس رسول الله ﷺ حسن العهد حتى عند مرض موته، حيث إنه لما اشتد به خرج إلى أصحابه، فصعد المنبر وقال:

«يا معشر المهاجرين، استوصوا بالأنصار خيراً، فإنَّ الناس يزيدون وإنَّ الأنصار على هيئتها لا تزيد، وإنهم كانوا عيبتي التي أديت إليها، فأحسنوا إلى محسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم».

وهاهو يدعو إلى حسن العهد بين الأحبة حتى بعد وفاتهم ، ففي يوم أحد يوم أمر بدفن القتلى قال :

«انظروا إلى عمرو بن الجموح وعبد الله بن عمرو بن حرام ، فإنهما كانا متصافيين في الدنيا ، فاجعلوهما في قبر واحد» .

ويرى حجة الإسلام الغزالي أن الوفاء يلزمه أمور منها :

١ ـ يقتضي وفاؤك لأخيك في الله تعالى أن تراعيَ جميع أصدقائه وأقاربه والمتعلقين به .

٢ ـ من الوفاء أن لا يتغير حال الإنسان في التواضع مع أخيه وإن ارتفع شأنه ، أو عظم جاهه والشاعر يقول :

إنَّ الكرام إذا ما أيسروا ذكروا ... من كان يألفهم في المنزل الخشن

٣ ـ من لوازم الوفاء أن يجزع الإنسان لفراق أخيه .

٤ ـ من لوازم الوفاء أن لا يسمع الإنسان وشاية في أخيه .

٥ ـ من لوازم الوفاء أن لا يصادق الإنسان عدوّ أخيه .

ومن حسن العهد أن يلبي المسلم دعوة من دعاه من أصدقائه وأحبائه وإخوانه ، ويفرح لفرحهم، ويحزن لحزنهم ، ويساعدهم في حاجاتهم وأعمالهم ، وأن يشكر دعوتهم، ويبارك احتفالاتهم ، وإلا فعليه أن يعتذر عند عدم تمكنه من الحضور ، مع تقديم كلماته الطيبة لهم والتي تناسب أحوالهم .

ومن حسن العهد أيضاً أن يشكر المسلم كل من قدم له أي مساعدة في مناسباته المختلفة ، وأن يشكر كل من لبى دعوته ، وصرف من وقته وجهده وماله ليسعده ، ويحفظ في خلده ذلك ، ليرد الجميل لكل هؤلاء وكل على حسبه .

وحسن العهد يكون في غير معصية الله ورسوله ، وإلا وجبت المخالفة .

يقول الإمام الغزالي :

«ليس من الوفاء موافقة الأخ فيما يخالف الحق في أمر الدين ، بل من الوفاء المخالفة» .

ثانياً ـ الوفاء بالعقود والعهود:

وهو أن يفي المؤمن بكل عقد أو عهد التزمه وما جاء به ، ولا يغدر به لأي سبب حادث . وقد أشار الله عزَّ وجلَّ إلى هذا النوع من الوفاء ، وبيّن ضرورة الالتزام به . وجعله أمراً منه بالوفاء ، فقال سبحانه :

﴿ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴾ . [الإسراء: ٣٤]

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ ﴾ . [المائدة: ١]

وقال يصف المؤمنين: ﴿ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَـٰهَدُوا۟ ﴾ . [البقرة: ١٧٧]

وأعلى هذه العقود وأجدرها بالرعاية والعناية ، عهد الله جل جلاله ، الذي أشار إليه القرآن في قوله: ﴿ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَـٰقَ ﴾ . [الرعد: ٢٠]

وقوله: ﴿ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ .

[الأنعام: ١٥٢]

وقوله: ﴿ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ . [النحل: ٩٥]

وقد أشار الله سبحانه إلى جانب من مضمون هذا العهد الإلهي حين قال:

﴿ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَـٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ . [يس: ٦٠ ـ ٦١]

وفي تفسير المنار:

إن عهد الله تبارك وتعالى المطلوب الوفاء به ، هو العهد الأكبر الذي أخذه الله على جميع البشر بمقتضى الفطرة ، وهو التدبر والتفكر ، ووزن كل شيء بميزان العقل والنظر الصحيح ، لا بميزان الهوى والغرور .

ويقول التفسير:

(العهد الذي تقتضيه فطرة الله التي فطر الناس عليها ، هو عهد منه يطالب الناس به ، ويحاسبهم عليه ، ومنه الحنيفية ، وأجلُّها الميل عن جانب الباطل

والشر إلى جانب الحق والخير ، فقد فطر الله أنفس البشر على الشعور بسلطان غيبي فوق جميع قوى العالم ، وعلى إيثار ما تراه حسناً واجتناب غيره ، وعلى حسب الكمال وكراهة النقص ، ولكنهم يخطئون في تحديد هذه المعاني ، ويحتاجون إلى بيانها لوحي من الله تعالى ، وهو عهد الله المفصّل الذي يرسل به رسله ، لمساعدة الفطرة على تزكية النفس وإزالة ما يطرأ عليها من الفساد بالجهل وسوء الاختيار).

ويتعرض الإمام القشيري في (لطائف الإشارات) لتفسير قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾. [البقرة: ٤٠]

بقوله:

(عهده سبحانه حفظ المعرفة ، وعهدنا اتصال المغفرة ، عهده سبحانه حفظ محابه ، وعهدنا لطف ثوابه ، أوفوا بعهدي بحفظ السر أوف بعهدكم بجميل البر ، أوفوا بعهدي الذي قبلتم يوم الميثاق ، أوف بعهدكم الذي ضمنت لكن يوم التلاق ، أوفوا بعهدي ألا تؤثروا عليّ غيري ، أوف بعهدكم في ألا أضع عنكم لطفي وخيري ، أوفوا بعهدي باستدامة عرفاني ، أوف بعهدكم في إدامة إحساني، أوفوا بعهدي في القيام بخدمتي ، أوف بعهدكم في المنة عليكم بقبولها منكم ، أوفوا بعهدي في القيام بحسن المجاهدة والمعاملة ، أوف بعهدكم بدوام المواصلة والمشاهدة.

أوفوا بعهدي بالتفويض والتوكل ، أوف بعهدكم بالكفالة والتفضل.

أوفوا بعهدي بصدق المحبة ، أوف بعهدكم بكمال القربة.

أوفوا بعهدي في المطالبات بترك الشهوات ، أوف بعهدكم بكفايتكم تلك المطالبات.

أوفوا بعهدي بأن تقولوا أبداً: ربي ، ربي أوف بعهدكم بأن أقول لكم: عبدي ، عبدي).

هذا ومع محافظة المؤمن على عهده مع الله عليه أن يحافظ على عهوده مع الناس فإذا أبرم المسلم عقداً فيجب أن يحترمه ، وإذا أعطى عهداً فيجب أن

يلتزمه ، ومن الإيمان أن يكون المرء عند كلمته التي قالها « ينتهي إليها كما ينتهي الماء عند شطآنه ، فيعرف بين الناس بأن كلمته موثق غليظ ، لا خوف من نقضها ، ولا مطمع في اصطيادها. فالإسلام يوصي باحترام العقود التي تسجل فيها الالتزامات المالية وغيرها ، ويأمر بإنفاذ الشروط التي تتضمنها .

وفي الحديث :

«المسلمون عند شروطهم» [رواه البخاري] .

فهم لا يخلفون كلمة أعطوها ، ولا ينقضون عهداً أبرموه وعقدوه ، ولا يخرمون وعداً ارتبطوا به ، ولا ينكلون عن شرط التزموه ، أو نذر أوجبوه .

ولاشك أن انتشار الثقة في ميدان التجارة وفي شتى المعاملات الاقتصادية ، أساسه افتراض الوفاء في أي تعهد ، ويجب أن تكون الشروط المكتوبة متفقة مع حدود الشريعة ، وإلا فلا حرمة لها ، ولا يكلف المسلم بوفائها .

ثالثاً ـ الوفاء بالوعود:

من صفات المؤمن أنه إذا وعد وفىّ ، ومن صفات المنافق أنه إذا وعد أخلف ، وقد أمرنا الشرع بالوفاء بكل وعد نعده ، وأن نكون صادقين بوعودنا .

وبيّن القرآن الكريم أهمية الوفاء بالوعد ، بالثناء على سيدنا إسماعيل عليه السلام بأنه كان صادق الوعد » فقال تعالى: ﴿ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَـٰبِ إِسْمَـٰعِيلَ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴾ . [مريم: ٥٤]

ومن أمثلة التربية النبوية على فضيلة صدق الوعد:

عن عبد الله بن عامر قال:

دعتني أمي يوماً ورسول الله قاعد في بيتنا ، فقالت: ها ، تعال أعطِك .

فقال لها رسول الله ﷺ:

«ما أردت أن تعطيه؟» .

قالت: أردت أن أعطيه تمراً ، فقال رسول الله ﷺ:

«أما إنك لو لم تُعطِه شيئاً كُتبتْ عليك كذبة». [رواه أبو داود والبيهقي]

هذا وإنَّ أبا بكر الصديق رضي الله عنه ، كان يعرف حرص رسول الله ﷺ على الوفاء بالوعود ، فلما مات النبي ﷺ سعى أبو بكر في الوفاء عن رسول الله ﷺ ما وعد به أصحابه.

عن جابر بن عبد الله قال:

لما مات رسول الله ﷺ وجاء أبا بكر مالٌ من قبل العلاء بن الحضرمي ، فقال أبو بكر: من كان له على النبي ﷺ دين أو كانت له قبله عدة فليأتنا.

قال جابر فقلت: وعدني رسول الله ﷺ أن يعطيني هكذا ، وهكذا وهكذا ، فبسط يديه ثلاث مرات.

قال جابر: فحثا لي أبو بكر حثية فعددتها فإذا هي خمسمائة ، وقال: خذ مثليها». [رواه البخاري ومسلم]

وعن أبي جحيفة قال:

«رأيت رسول الله ﷺ أبيض قد شاب ، وكان الحسن بن علي يشبّه به ، وأمر لنا بثلاثة عشر قلوصاً ـ الناقة الفتية ـ فذهبنا نقبضها ، فأتانا موته ، فلم يعطونا شيئاً ، فلما قام أبو بكر قال: من كانت له عند رسول الله ﷺ عدة فليجيء.

فقمت إليه فأخبرته فأمر لنا بها». [رواه الترمذي]

مما مرّ معنا يجب على المؤمن أن يفي بوعوده التي يقطعها ، ولكي يفي المؤمن بوعوده عليه أن يعمل بما يلي:

أولاً ـ أن لا يعطي وعداً إلا بعد أن يفكر في أوقات فراغه ، فيعطي الوعد المناسب له بحيث لا يجتمع لديه موعدان في وقت واحد.

ثانياً ـ يحاول أن لا ينسى وعوده ، والأفضل أن يسجلها في دفتر خاص إن كان لديه وعود كثيرة حتى يتذكرها في أوقاتها.

ثالثاً ـ أن يأتي إلى الموعد المحدد في وقته المعين ، دون تقديم أو تأخير ،

بل الأفضل أن يحضر قبل الموعد خوفاً من أي مفاجأة تؤخره عن موعده المقرر ، فإن وصل قبل الوقت المحدد انتظر إلى حين الموعد المقرّر .

رابعاً - إن حدث أي طارىء جديد يمنع الوفاء بالوعد أو يؤخره ، عليه أن يتصل مباشرة بمن وعدهم ويشرح لهم أمره ويقدم اعتذاره .

خامساً - أن يستغفر الله عزَّ وجلّ من إخلافه للوعد بغير قصد حتى لا يصبح من المنافقين .

رابعاً - الوفاء بالبيعة :

وهي صفة اتصف بها أصحاب رسول الله ﷺ مع رسول الله ﷺ ، فقد كان رسول الله ﷺ وهو يدعو الناس إلى الإسلام ، يبايع الوفود المقبلة عليه بتعاليم ، يتخيرها من بين التعاليم الكثيرة التي حفل بها الدين ، على حسب ما يرى من طاقتهم النفسية والعقلية .

عن عوف بن مالك قال :

«كنا عند النبي ﷺ تسعة أو ثمانية أو سبعة ، فقال :

ألا تبايعون رسول الله؟

فبسطنا أيدينا وقلنا : نبايعك يا رسول الله .

قال : على أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، وتصلوا الصلوات الخمس ، وتسمعوا وتطيعوا ، وأسرّ كلمة خفية قال : ولا تسألوا الناس شيئاً .

قال عوف بن مالك : فلقد رأيت بعض أولئك النفر يسقط سوط أحدهم فما يسأل أحداً أن يناوله إياه» [رواه مسلم] .

وكان رسول الله ﷺ يبايع الناس أفراداً وجماعات ، وكانوا يرون أنه لابد من الوفاء بما بايعوا رسول الله ﷺ مهما كلف الثمن .

ومن أهم البيعات الجماعية بيعة العقبة الأولى والثانية .

وعن بيعة العقبة الأولى تحدث عبادة بن الصامت عنها فقال :

كنا اثني عشر رجلاً ، فقال لنا رسول الله ﷺ:

«تعالوا بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً ، ولا تسرقوا ، ولا تزنوا ، ولا تقتلوا أولادكم ، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ، ولا تعصوني في معروف ، فمن وفّى منكم فأجره على الله ، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب به في الدنيا فهو كفارة له ، ومن أصاب من ذلك شيئاً فستره الله فأمره إلى الله إن شاء عاقبه وإن شاء عفا عنه».

قال عبادة بن الصامت: «فبايعناه على ذلك». [رواه البخاري ومسلم]

وعن بيعة العقبة الثانية قال محمد بن إسحاق يروي عن كعب بن مالك:

«فواعدنا رسول الله ﷺ العقبة من أوسط أيام التشريق ، فلما فرغنا من الحج ، وكانت الليلة التي واعدنا رسول الله ﷺ لها ، نمنا تلك الليلة مع قومنا في رحالنا ، حتى إذا مضى ثلث الليل ، خرجنا من رحالنا لميعاد رسول الله ﷺ نتسلل تسلّل القطا مستخفين ، حتى اجتمعنا في الشعب عند العقبة ، ونحن ثلاثة وسبعون رجلاً ، ومعنا امرأتان من نسائنا: نسيبة بنت كعب ، وأسماء بنت عمرو بن عدي.

قال: فاجتمعنا في الشعب ننتظر رسول الله ﷺ حتى جاءنا ومعه عمه العباس بن عبد المطلب ، فتكلم القوم وقالوا: خذ منا لنفسك ولربك ما أحببت ، فتكلم رسول الله ﷺ ، فتلا القرآن ودعا إلى الله ورغب في الإسلام ، ثم قال:

«أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم».

فأخذ البراء بن معرور بيده ثم قال:

«نعم ، والذي بعثك بالحق نبياً لنمنعنك مما نمنع منه أزرنا ، فبايعنا يا رسول الله ، فنحن والله أبناء الحروب وأهل الحلقة ـ أي السلاح كله ـ ورثنا كابراً عن كابر».

فاعترض القول ـ والبراء يتكلم ـ أبو الهيثم بن التيِّهان فقال:

«يا رسول الله ، إن بيننا وبين الرجال حبالاً وإنا قاطعوها ـ يعني اليهود ـ فهل عسيت إنْ نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟» .

فتبسّم رسول الله ﷺ ثم قال :

«بل الدم الدم والهدم الهدم ، أنا منكم وأنتم مني ، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم» .

وقد كان ، قال رسول الله ﷺ :

«أخرجوا إليّ منكم اثني عشر نقيباً ليكونوا على قومهم بما فيهم ، فأخرجوا منهم اثني عشر نقيباً ، تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس ، فلما تخيرهم قال للنقباء : أنتم كفلاء على قومكم ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم ، وأنا كفيل على قومي» .

وكان أول من ضرب على يد رسول الله ﷺ البراء بن معرور ، ثم بايع القوم كلهم بعد ذلك .

فلما بايعنا رسول الله ﷺ قال :

«ارفضّوا إلى رحالكم» .

فقال له العباس بن عبادة بن نفلة :

«والله الذي بعثك بالحق إن شئت لنميلن على أهل منى غداً بأسيافنا» .

فقال رسول الله ﷺ :

«لم نؤمر بذلك ولكن ارجعوا إلى رحالكم» .

قال عبادة بن الصامت :

«بايعنا رسول الله ﷺ بيعة الحرب ، على السمع والطاعة في عسرنا ويسرنا ومنشطنا ومكرهنا وأثرة علينا ، وأن لا ننازع الأمر أهله ، وأن نقول الحق أينما كنا ، لا نخاف في الله لومة لائم» .

ومن أشهر البيعات أيضاً بيعة الرضوان ، وكان قد أرسل النبي ﷺ

عثمان بن عفان رضي الله عنه إلى قريش عندما توجه إلى مكة معتمراً ، فاحتبسته قريش عندها مدة ، وبلغ رسول الله ﷺ إذ ذاك أن عثمان بن عفان قد قتل ، فقال: «لا نبرح حتى نناجز القوم».

فدعا رسول الله ﷺ إلى البيعة، فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة هنالك.

فكان النبي ﷺ يأخذ بيد أصحابه الواحد منهم تلو الآخر يبايعونه على ألا يفرُّوا ، وأخذ رسول الله ﷺ بيد نفسه ، وقال:

«هذه عن عثمان».

ولما تمت البيعة ، انتهى إلى رسول الله ﷺ أن الذي بلغه من مقتل عثمان باطل.

وفي هذه البيعة قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾. [الفتح: ١٠]

هذا ويحدثنا التاريخ في مواقف كثيرة كيف وفّى الصحابة الكرام رضي الله عنهم بما عاهدوا الله عليه وبما عاهدوا وبايعوا رسول الله ﷺ عليه.

قال الله تعالى: ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴾. [الأحزاب: ٢٣]

لقد ذكر الله عزَّ وجلَّ في قرآنه بيعة المؤمنات.

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ ۙ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

[الممتحنة: ١٢]

خامساً ـ الوفاء بالديون:

من الشؤون التي اهتم الإسلام بها ، ونوه بقيمة الوفاء فيها ، الديون ، فإن سدادها من آكد الحقوق عند الله ، وقد قطع الشرع قطعاً عنيفاً وساوِسَ الطمع التي تنتاب المدين وتغريه بالمطال ، أو إرجاء القضاء.

وقد بين الإسلام أهمية أداء الدين ، وعزز مكانته وأنه من الذنوب التي لا تغفر.

عن أبي قتادة رضي الله عنه:

قال رجل: «يا رسول الله ، أرأيت إن قُتلت في سبيل الله ، أتكفر عني خطاياي؟» فقال رسول الله ﷺ:

«نعم إن قُتلت وأنت صابر محتسب ، مقبل غير مدبر ، ثم قال: كيف قلت؟ فأعاد.

قال: إلا الدين فإنَّ جبريل أخبرني بذلك». [رواه مسلم]

وفي رواية أخرى:

يُغفر للشهيد كل ذنب إلا الدين». [رواه مسلم]

ولما علمه العقلاء من خطر الدين على آخرة المسلم ومنزلته كانوا ينصحونه بالتخلص منه ، قبل أن يقدم على أي مخاطرة قد تودي بحياته.

فعن أبي الدرداء أنه كان يقف حين ينتهي إلى الدرب ، في ممر الناس إلى الجهاد ، فينادي نداءً يُسمع الناس:

(يا أيها الناس ، من كان عليه دين يظن أنه إن أصيب في وجهه هذا لم يدع له وفاء فليرجع ولا يتبعني فإنه لا يعود كفافاً).

فلأهمية الدين هذه يجب على المسلم ألا يستدين إلا عند الحاجة القاهرة ، فمن الورطات المخوفة ، أن يقترض المرء في أمور ، يمكن الاستغناء عنها ، بل لقد روي أن ذلك من الآثام التي يلحقها القصاص:

(إن الدين يقتص من صاحبه يوم القيامة إذا مات ، إلا من تدين في ثلاث خلال ، الرجل لضعف قوته في سبيل الله فيستدين ليتقوى به على عدو الله وعدوه ، ورجل يموت عنده مسلم فلا يجد ما يكفنه ويورايه إلا بالدين ، ورجل خاف على نفسه العزبة فينكح خشية على دينه ، فإن الله يقضي عن هؤلاء يوم القيامة). [ابن ماجه]

وفي رواية:

أن رسول الله ﷺ قال:

«يدعو الله بصاحب الدين يوم القيامة، حتى يقف بين يديه، فيقال:

يا ابن آدم، فيم أخذت هذا الدين؟ وفيم ضيعت حقوق الناس؟

فيقول: يا رب إنك تعلم أني أخذته فلم آكل ولم أشرب ولم ألبس ولم أضيع، ولكن أتى علي إما حرق، وإما سرق، وإما وضيعة.

فيقول الله: صدق عبدي، أنا أحق من قضى عنك، فيدعو الله بشيء فيضعه في كفه ميزانه، فيرجح حسناته على سيئاته، فيدخل الجنة بفضل رحمته».

[رواه أحمد]

ويظهر من هذا أن الله يعذر من يضطر إلى الدين لأزمات شداد، ومن يعجز عن القضاء لمصائب جائحة.

أما الذي تمر بنفسه شهوة طارئة، ويضعف عن إجابتها من ماله، فيسارع إلى الاقتراض من غيره، غير ناظر إلى عقباه، ولا مهتم بطريقة الخلوص من دينه فهو كما وصفته الآثار ـ سارق جريء ـ.

قال رسول الله ﷺ:

«من أخذ أموال الناس يريد أداءها أدى الله عنه، ومن أخذها يريد إتلافها، أتلفه الله».

[رواه البخاري]

وقد استهان المسلمون بالديون حتى إنهم اقترضوها لشهوات الغي في البطون والمعصية، واقترضوها بالربا الذي حرمه الله تحريماً باتاً.

ولا يزال الوفاء بالقروض مستعصياً، ولولا سياط القانون لضاعت حقوق كثيرة.

إن الله عزَّ وجلَّ يحب الوفاء من عباده، وما أهلك القرى الظالمة إلا بعد أن قال في أهلها: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾.

[الأعراف: ١٠٢]

فإذا استدان المسلم عن حاجة فيجب عليه أن يسعى إلى إيفاء الدين بأقرب فرصة تسمح له برد ما استدانه ، مع الإحسان والشكر والحمد ، ومن الإحسان في الدين حسن القضاء ، وذلك بأن يمشي إلى صاحب الحق ولا يكلفه أن يمشي إليه يتقاضاه.

فقد قال ﷺ:

«خيركم أحسنكم قضاء». [متفق عليه من حديث أبي هريرة]

وعن جابر رضي الله عنه قال:

«كان لي على النبي ﷺ دين ، فقضاني وزادني». [رواه أبو داود]

وعن عبد الله بن أبي ربيعة رضي الله عنه قال:

استقرض مني النبي ﷺ أربعين ألفاً ، فجاءه مال فدفعه إليَّ وقال:

«بارك الله تعالى في أهلك ومالك ، إنما جزاء السلف الحمد والأداء».

[رواه النسائي]

مما مرَّ يجب على المسلم الواعي ألا يستدين بمجرد أنه وجد رغبة أو حاجة في نفسه ولم يجد لديه مالاً لتحقيق تلك الرغبة أو الحاجة.

المسلم لا يستدين إلا لحاجة ضرورية ماسة ، وبعد أن يكون لديه قدرة مؤكدة في المستقبل القريب على إيفاء هذا الدين.

أما إن لم يكن لديه هذه القدرة المؤكدة على إيفاء هذا الدين ، فإنه لا يستدين أبداً ، بل يعيش كفافاً صابراً ، يفتش عن عمل إضافي يسد به حاجته ، ولا يلتجىء إلى الاستدانة من هنا وهناك.

يفضل المسلم أن يعيش في ضيق الفقر والحاجة ، بدل أن يعيش في ضيق الدين ، لأن ضيق الفقر والحاجة ليس فيه ذلٌّ الدين وهمومه ، ولقد قيل:

«إن الدين ذلٌّ في النهار وهمٌّ في الليل».

سادساً ـ الوفاء بالكيل:

من جملة ما نظم الإسلام المعاملات بين الناس ، ومن بينها البيع والشراء ، حتى أنه بين طريقة المعاملة بالكيل والميزان.

فقد أمر الله عزَّ وجلّ بالوفاء بالكيل ، وعدم الإنقاص به ، والوزن بالعدل والقسطاس المستقيم.

قال الله تعالى: ﴿ ۞ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴾ . [الشعراء: ١٨١]

﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴾ . [الإسراء: ٣٥]

وقد حذَّر الله من عدم الوفاء ، وأن عاقبته وخيمة يوم القيامة.

قال تعالى: ﴿ وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ (١) الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (٣) أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ (٤) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (٥) يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ . [المطففين: ١ ـ ٦]

سابعاً ـ الوفاء بالنذر:

والنذر هو أن يوجب المرء على نفسه أمراً لا يلزمه به الشرع من صلاة وصيام وحج وصدقة ونحو ذلك.

وحكمه وجوب الوفاء به ، متى كان صحيحاً مستكملاً لشروطه ، والوفاء واجب على التراخي وذلك من فضل الله على المؤمنين.

قال الله تعالى يصف المؤمنين الصادقين: ﴿ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴾ . [الدهر: ٧]

وقال سبحانه آمراً بوفاء النذور: ﴿ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ ﴾ . [الحج: ٢٩]

ضد الوفاء:

الإخلاف والغدر والكذب بالمواعيد أو العهود أو العقود والتنكر لمن صنع المعروف ، كل ذلك من أضداد الوفاء ، وكل ذلك من علامات النفاق.

هذا وتحدث القرآن الكريم عن أمثال هؤلاء وجعلهم من المنافقين الخاسرين والفاسقين.

يقول سبحانه وتعالى: ﴿ ۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥) فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ (٧٦) فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا

﴿كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ . [التوبة: ٧٥ ـ ٧٨]

ويقول عنهم سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَـٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾ . [البقرة: ٢٧]

ويقول عنهم سبحانه: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَـٰسِقِينَ﴾ . [الأعراف: ١٠٢]

وقال الله تعالى منفراً من خلف الوعد ونقض العهد: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ .

[الصف: ٢ ـ ٣]

والمقت أشد من الغضب.

كما تحدث عنهم الرسول ﷺ وجعل أعمالهم من النفاق:

عن أبي هريرة رضي الله عنه:

عن النبي ﷺ قال:

«آية المنافق ثلاث: إذا حدَّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أُوتمن خان».

[متفق عليه]

زاد في رواية مسلم: «وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم».

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما:

أنَّ النبي ﷺ قال:

«أربع من كنَّ فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا أُوتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر». [متفق عليه]

عن أبي هريرة رضي الله عنه:

عن النبي ﷺ قال:

«قال الله تعالى: ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة، رجل أعطى بي ثم غدر، ورجل باع حراً فأكل ثمنه، ورجل استأجر أجيراً فاستوفىٰ منه ولم يعطه أجره». [رواه البخاري]

وقد قيل في منثور الحكم:

(من نقض عهده، ومنع رفده، فلا خير فيه).

(العذر يصلح في كثير من المواطن، ولا عذر لغادر ولا خائن).

(الغدر من صغر القدر).

(الوفاء من كرم السجايا، والغدر من لؤم الطباع، فمن عرف بالوفاء، خصته القلوب بصدق الوداد، وكسته الألسن مطارف الأحماد، ومن عرف بالغدر عومل بالمقت والإبعاد، واتسم بأقبح السمات بين العباد).

(من اتخذ الوفاء شعاراً أمن عقوبة الغادرين، ومن ارتدى رداء الغدر أبقى له سوء ذكر في الآخرين، ومن عامل الناس بالوفاء قولاً وفعلاً فقد استخدم ألسنة الشاكرين).

(من غدر في عهده وأخلف في وعده ونقض عُرى عقده، فقد قضى على نفسه بخسَّة أرومته وسوء عقيدته وقلة مروءته، وترك له بين الناس ذكراً قبيحاً وسمعة سيئة، وزهد الناس فيه، ونفرت القلوب عنه).

أرومته: أصله.

هذا وإنَّ الوفاء من صفات الكرام الأحرار، وإن الغدر من صفات اللئام الفجار.

فلينظر كل امرىء أين يكون.

الوفاء المحمود:

الوفاء المحمود أن يذكر الرجل ماضيه الذاهب لينتفع به في حاضره ومستقبله، فإن كان معسراً فأغناه الله، أو مريضاً فشفاه الله، فليس يسوغ له أن

يفصل بين أمسه ويومه بسور غليظ ، ثم يزعم أنه ما كان قط فقيراً ولا مريضاً ، ويبني على غروره بحاضره مسلكاً كله فظاظةٌ وجحودٌ.

هذا نوع من الغدر ينتهي بصاحبه إلى النفاق ، ربما انطرد به من رحمة الله فلم تتسع بعدئذ له.

ومن هذا القبيل نروي الحديث النبوي التالي:

عن أبي هريرة رضي الله عنه:

أنه سمع النبي ﷺ يقول:

«أنَّ ثلاثة من بني إسرائيل: أبرص ، وأقرع ، وأعمى ، أراد الله أن يبتليهم فبعث إليهم ملكاً.

فأتى الأبرص فقال: أي شيء أحب إليك؟

قال: لون حسن وجلد حسن ، ويذهب عني الذي قد قذرني الناس.

فمسحه فذهب عنه قذره وأعطي لوناً حسناً.

قال: فأي المال أحب إليك؟

قال: الإبل ـ أو قال البقر ـ شك الرواي.

فأعطي ناقة عشراء ، فقال: بارك الله لك فيها.

فأتى الأقرع فقال: أي شيء أحب إليك؟

قال: شعر حسن ويذهب عني هذا الذي قذرني الناس.

فمسحه فذهب عنه وأعطي شعراً حسناً.

قال: فأي المالِ أحب إليك؟

قال: البقر.

فأعطي بقرة حاملاً ، وقال: بارك الله لك فيها.

فأتىٰ الأعمى فقال: أي شيء أحب إليك؟

قال: أن يرد الله إلي بصري فأبصر الناس.

فمسحه فرد الله إليه بصره.

قال: فأي المال أحب إليك؟

قال: الغنم. فأعطي شاة والداً.

فأنتج هذان وولّد هذا، فكان لهذا واد من الإبل، ولهذا واد من البقر، ولهذا واد من الغنم.

ثم إنه أتى الأبرص في صورته وهيئته، فقال:

رجل مسكين قد انقطعت بي الحبال في سفري، فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك، أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن، والجلد الحسن والمال، بعيراً أتبلغ به في سفري.

فقال: الحقوق كثيرة.

فقال: كأني أعرفك، ألم تكن أبرص يقذرك الناس فقيراً، فأعطاك الله؟!

فقال: إنما ورثت هذا المال كابراً عن كابر.

فقال: إن كنت كاذباً فصيرّك الله إلى ما كنت.

وأتى الأقرع في صورته وهيئته، فقال له مثل ما قال لهذا، ورد عليه مثل ما رد عليه هذا.

فقال: إن كنت كاذباً فصيرّك الله إلى ما كنت.

وأتىٰ الأعمى في صورته وهيئته، فقال:

رجل مسكين وابن سبيل انقطعت بي الحبال في سفري، فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك، أسألك بالذي رد عليك بصرك شاة أتبلغ بها في سفري؟

فقال: قد كنت أعمىٰ فرد الله إلي بصري، فخذ ما شئت ودع ما شئت، فوالله ما أجهدك اليوم بشيء أخذته لله عزَّ وجلّ.

فقال: أمسك مالك فإنما ابتليتم، فقد رضي الله عنك وسخط على صاحبيك». [متفق عليه]

والناقة العشراء: هي الحامل.

أنتج: تولى نتاجها.

انقطعت بي الحبال: أي الأسباب.

لا أجهدك: لا أشق عليك في رد شيء تأخذه أو تطلبه من مالي.

* * *

واجبات الآباء والمربين

واجب الآباء والمربين أن يحيوا خلق الوفاء في أبنائهم ، ويزكوه في نفوسهم ، وذلك بأساليب كثيرة منها:

١ ـ أن يكون الآباء والمربون قدوة حسنة صالحة لأبنائهم في كل الأخلاق ومنها الوفاء ، فإذا ما رأىٰ الأبناء تلك الأخلاق مطبقة أمامهم سارعوا للاقتداء بها وتمثلها دون عناء ولا تعب.

فعليك أيها الأب والمربي أن تُري أبناءك كيف يكون حسن العهد والوفاء فيه مع من قدم لك أي معروف في حياتك ، وكيف تشكره عليه وتذكره بالخير ، ولا تنساه ، فيتعلم أولادك منك ذلك.

وعليك كذلك ألا تعد أحداً موعداً ثم تخلفه أبداً ، لأنهم يقلدونك في كل شيء. وعليك الوفاء بكل أنواع الوفاء أداء لحق الله وحق عباده فيتعلم أولادك منك ذلك فيكون خلق الوفاء فيهم طبعاً ، فمن شب على شيء شاب عليه.

٢ ـ علموا أبناءكم الإقلال من الوعود ، وأن لا يعدوا وعداً أو يعطوا عهداً إلا بعد أن يفكروا فيما يتطلبه من الزمن والمال والجهود والظروف ، حتى يستطيعوا الوفاء بما وعدوا به أو عاهدوا عليه.

٣ ـ أشعروا أبناءكم بأن لهم شرفاً وكرامة يهدمها خلف الوعد والغدر وعدم الوفاء ، وتضيع مكانتهم بين الناس ، وتقل الثقة بهم ، ويندرجوا في عداد المنافقين.

٤ ـ بيِّنوا لأبنائكم أضرار الغدر وثمرات الوفاء ، واذكروا لهم ما ورد في ذلك من الآثار.

٥ - راقبوا تصرفات أبنائكم وأعمالهم ونقحوها بتبيان الصحيح منها من الخطأ ، وخاصة في موضوع الأخلاق ، ومنها الوفاء وبينوا ذلك لأبنائكم.

٦ - شجعوا أبناءكم عندما يبدر منهم أي خلق حسن ومنها الوفاء ، وذلك بإظهار قيمة هذا الخلق ، واتصافهم به مع كلمات شكر واستحسان ، والحديث عنهم وعن أخلاقهم الحسنة أمام الآخرين ، وأحياناً مكافأتهم بأشكال مختلفة ولو كانت بسيطة ، وذلك لإظهار هذا الخلق وتعميقه في نفوسهم ، وتشجيع الآخرين على تطبيقه والتخلق به.

* * *

الـعبـرة والتطبيـق:

أيها الناشئة [المؤمن والمؤمنة]:

بعد كل ما مرَّ معك من حديث حول خلق الوفاء ، وبعد أن اطلعت على أهمية هذا الخلق وأنواعه ، ما عليك إلا أن تأخذ العبر من ذلك وتقوم بتطبيق ما يلي:

١ ـ اجلس جلسة محاسبة لنفسك عما مرَّ من حياتك ملاحظاً أخلاقك ومقدار تمسكك بهذا الخلق « خلق الوفاء » ومقدار تطبيقك لأنواعه المتعددة.

٢ ـ احمد الله عزَّ وجلَّ على ما منَّ به عليك من اتصافك بخلق الوفاء.

٣ ـ تب إلى الله واستغفره من كل ما مرَّ معك من تصرفات في أقوالك وأفعالك كانت تنافي خلق الوفاء.

٤ ـ عاهد الله عزَّ وجلّ على الإقلاع عن كل أمر من قول أو فعل ينافي خلق الوفاء.

٥ ـ ادع الله أن يمن عليك بالتخلق بخلق الوفاء في أعلى مستواه « وفي كل أنواعه وفي كل تصرفاتك من أقوالك وأفعالك.

٦ ـ عليك أن تراقب نفسك دائماً في كل أمورك أن تكون مطبقاً خلق الوفاء ، ومبتعداً عن كل أمر يوقعك في الغدر وعدم الوفاء.

٧ ـ عود نفسك أنه إذا ما أخطأت وارتكبت أمراً فيه إساءة وبعدٌ عن خلق الوفاء ، وأنت في حالة غفلة عن الله ، أن تبادر مباشرة للاعتراف بالذنب والتوبة والاستغفار وعقد العزم على ألا تعود لمثل ذلك الذنب معتذراً من الآخرين عما بدر منك ومعاهداً الله أن لا تعود لمثلها.

٨ ـ لا تصاحب ولا تعاشر ولا تصادق من لا يتصف بهذا الخلق حتى لا تتأثر بهم وتتصف بصفاتهم فالمرء على دين خليله.

٩ ـ انصح بهذا الخلق من تستطيع من إخوتك وأخواتك وأصدقائك وجيرانك، وبين لهم أهميته وجماله وثوابه وقم بتنبيههم إلىٰ هذا الخلق وضرورة التمسك به إذا ما بدر منهم قولٌ أو عملٌ ينافي هذا الخلق.

١٠ ـ ادع من تستطيع إلى هذا الخلق الفاضل وبين لهم أهميته وأنواعه وثمراته ضمن مجالات كثيرة، كالأعياد المختلفة والسهرات العائلية والحفلات المتنوعة، وغير ذلك من المناسبات المتعددة، ليعم الخير وتنتشر الفضيلة وتنال ثواب دعوتك وثواب من عمل بدعوتك، وتمثلاً لقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾. [آل عمران: ١٠٤]

* * *

خُلُقُ العِفَّةِ

٥

تـعـريـف العـفة:

عرفها الأصفهاني في مفردات القرآن:

(هي حصول حالة للنفس تمتنع بها عن غلبة الشهوة عليها).

والعفة هي اجتناب ما لا يحلُّ ولا يجمل، وصد النفس عن تتبع شهواتها الدنيئة أو السير وراء أطماعها الرديئة.

والعفة هي كف النفس عن المحارم.

والعفة هي الكف عما لا ينبغي.

والعفة والعفاف بمعنى واحد، والتعفف طلب العفاف.

والمتعفف هو الذي يحاول الاتصاف بالعفة عن طريق الممارسة وقوة الإرادة.

والاستعفاف كالتعفّف.

والعفيفة: هي المرأة الخيرة، والتي تصون عرضها وشرفها.

ويأتي في مقابل العفة الدناءة والخسة والجشع والتطفل وغير ذلك.

والعفة من مكارم الأخلاق، والدناءة والخسة وكل ما ينافي العفة من رذائل الأخلاق.

قال بعض الحكماء:

«من أحب المكارم اجتنب المحارم».

والعفة من المروءة، فقد سئل عمرو بن العاص عن المروءة فقال:

«هي العفة عما حرم الله تعالى ، والحرفة فيما أحل الله تعالى» .

والعفة لا تكون إلا إذا وجد الدافع النفسي إلى ما ينافيها ، فإذا لم يكن في النفس دافع إلى ما ينافي العفة ، أو لم يوجد ما يثير الدافع ، لم يكن للعفة وجود أصلاً .

فلا عفة لمعتزل في صومعة لا يتعرض إلى أي مثير أو امتحان .

فإذا تهيأت معصية لإنسان ما فابتعد عنها خوفاً من الله وحباً في تطبيق شرعه سبحانه وتعالى فهو عفيف .

فما أسعد من ملك عنان نفسه وقبض على زمامها ، فإنه يأمن من الوقوع في مهاوي الردى ، ومواطن الهلاك .

وما أشقى من ترك لنفسه الحبل على غاربها ، فغرقت في لذاتها وشهواتها ، فبشره بسوء المنقلب ، وسيعلم بعد الصدمة الأخرى عاقبة غيّه وضلاله ويندم ولات حين مندم .

والعفة من الإيمان فقد ورد :

«الإيمان عفيف عن المحارم ، عفيف عن المطامع» .

[حلية الأولياء عن محمد بن النضر الحارثي مرسلاً]

مـجـالات العفـة :

العفة خلق من أخلاق القرآن ، وصفة من صفات أهل الإيمان ، ولهذه العفة مجالات متعددة تظهر فيها ذكرت في القرآن الكريم وأحاديث النبيِّ ﷺ ، وظهرت عملياً في سلوك الصحابة الكرام وأخلاق التابعين والصالحين .

نذكر منها مايلي :

أولاً ـ تعفف المؤمن عن الوقوع في معصية الله فيما يتعلق بالشهوة الجنسيـة :

ولقد جرى العرف على استعمال كلمة العفة في مثل هذه المواقف ، مما يدل على أن العفة هذه ذات مكانة جليلة ، حتى كأنها كل العفة .

ولقد أشار القرآن الكريم إلى هذه العفة في قوله : ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ . [النور : ٣٣]

أي فليلجأ إلى العفة أولئك الذين لا يجدون وسائل القدرة على الزواج ، حتى يهبهم الله تعالى من فضله ورزقه ما يقدرون به على تبعات الزواج ولوازمه .

وفي قوله تعالى : ﴿حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ .

إشارة إلى أنهم إذا التزموا جانب العفة أغناهم الله من فضله ، فيتهيأُ لهم بذلك زواج مناسب لهم .

وطلب العفة هنا يكون بضبط النفس وحفظ الحواس عن الاستجابة للشهوات ، وعدم الخوض فيما يثير هذه الشهوات من أحاديث أو عوامل أخرى ، وأن يعالج الإنسان نفسه بمثل الصوم أو العبادة أو العمل ، حتى لا يقع في معصية الله وما حرم الله .

قال رسول الله ﷺ مخاطباً الشباب :

«يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فليصم ، فإنَّ الصوم له وجاء» .

[متفق عليه من طريق ابن مسعود رضي الله عنه]

الباءة : القدرة على تحمل أعباء الزواج وتكاليفه .

وجاء : يقطع الشهوة ويدفع بها ويصونه عن الحرام .

وعاد القرآن الكريم إلى الحديث عن هذا اللون من العفة ، فقال في صفة المؤمنين : ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾ . [المعارج : ٢٩ ـ ٣١]

فالعفيف هو الذي يحفظ نفسه عن الوقوع في الحرام في كل مجالاته ، بل نجد أن القرآن الكريم طالب بالتعفف عما يكون سبباً في ارتكاب المحارم وهو النظر فأمر بغض البصر .

فقال سبحانه : ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ

لَهُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ۝٣٠ وَقُل لِّلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَغۡضُضۡنَ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِنَّ وَيَحۡفَظۡنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ . [النور: ٣٠ ـ ٣١]

وجاء في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ وَسَآءَ سَبِيلٗا﴾ .

[الإسراء: ٣٢]

إن الله نهانا عن الاقتراب من الزنا وما يدعو إليه من النظر واللمس والاختلاط والخلوة بالأجنبية، لأن هذه الأمور تؤدي إلى الزنا، كالراعي يرعى حول الحمىٰ يوشك أن يقع فيه، وإذا كان الله تعالى حذرنا من مقدمات الزنا كالنظر واللمس، فالتحذير من ارتكابه أولى وأشد وأقسى وأمر.

قال بعض الصالحين:

«إياك وزنا الجوارح فإنها تشهد عليك يوم القيامة، تقول العين: أنا نظرت، ويقول اللسان: أنا تكلمت، وتقول الأذن: أنا سمعت، وتقول اليد، أنا لمست، وتقول الرِّجل: أنا مشيت، وتقول الأرض: وأنا شهدت، ويقول الملك: أنا كتبت».

روي عن أبي أمامة رضي الله عنه:

عن النبي ﷺ أنه قال:

«ما من مسلم ينظر إلى محاسن امرأة ثم يغض بصره إلا أحدث الله له عبادة يجد حلاوتها في قلبه». [رواه أحمد والطبري]

هذا ولقد طالب القرآن الكريم المرأة المسلمة بالتعفف عن التبرج وإبداء الزينة المثيرة أو العورة التي يجب سترها.

قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنۡهَاۖ وَلۡيَضۡرِبۡنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّۖ وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوۡ ءَابَآئِهِنَّ أَوۡ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوۡ أَبۡنَآئِهِنَّ أَوۡ أَبۡنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوۡ إِخۡوَٰنِهِنَّ أَوۡ بَنِيٓ إِخۡوَٰنِهِنَّ أَوۡ بَنِيٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوۡ نِسَآئِهِنَّ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيۡرِ أُوْلِي ٱلۡإِرۡبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفۡلِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يَظۡهَرُواْ عَلَىٰ عَوۡرَٰتِ ٱلنِّسَآءِۖ وَلَا يَضۡرِبۡنَ بِأَرۡجُلِهِنَّ لِيُعۡلَمَ مَا يُخۡفِينَ مِن زِينَتِهِنَّۚ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ . [النور: ٣١]

وقال أيضاً: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ﴾.

[الأحزاب: ٣٣]

ولقد أعطانا كتاب الله عزَّ وجلَّ أروع صورة للعفة الجنسية في قصة سيدنا يوسف عليه السلام مع امرأة العزيز.

ولما كانت عفة سيدنا يوسف عليه السلام عفة مستوفية كل شروطها وأركانها كانت من أعظم أمثلة العفة في تاريخ الإنسان.

ففي يوسف الرجولة والشباب والدافع القوي، وفي امرأة العزيز الإثارة بكل قواها، جمال ومنصب وإغراء كامل، ودعوة ملتهبة، وخلوة تامة، وتهديد إن لم يتسجب.

مع استيفاء كل هذه العوامل القوية تبرز فضيلة العفة في سيدنا يوسف عليه السلام، فيضبط نفسه بصبر منقطع النظير، ويقاوم الدوافع والمغريات بإصرار وعزيمة قوية، ترفعاً عن الخيانة، وطلباً لمرضاة الله، وينتصر خلقه العظيم في معركة الدوافع والمغريات والتهديدات. وقد عرض القرآن الكريم قصة يوسف مع امرأة العزيز أروع عرض، يبرز الساحة النفسية عند يوسف، وساحة الإثارة بكل ملابساتها، وقوة الضبط الخلقي الذي جعل سيدنا يوسف عليه السلام يكف عما لا حيل له، ويعطي أروع أمثلة العفة.

فيقول الله تعالى في سورة يوسف: ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ ۖ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ۖ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ۚ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

[يوسف: ٢٣ ـ ٢٥]

وهكذا كانت عفة يوسف عليه السلام مستوفية كامل شروطها وأركانها وبذلك نال مجد هذا الخلق العظيم.

وجاء أدب النبوة الممتع، فقص علينا قصة أصحاب الصخرة التي سدت

عليهم باب الغار، فجعل كلّ منهم يدعو بعمل صالح، حتى يزيل الله عنهم الكرب وينقذهم:

وقال الثاني في دعائه:

«اللهم إنك تعلم أنه كان لي ابنة عم من أحب الناس إلي» فراودتها عن نفسها فامتنعت مني، حتى ألمت بها سنة من السنين - أي شدة من الشدائد - فجاءتني فأعطيتها مائة وعشرين ديناراً، على أن تخلي بيني وبين نفسها ففعلت» حتى إذا قدرت عليها، قالت: اتق الله، ولا تفض الخاتم إلا بحقه، فتحرجت من الوقوع عليها، فانصرفت عنها وهي من أحب الناس إليَّ، وتركت الذهب الذي أعطيتها» اللهم إن كنت فعلته ابتغاء وجهك، ففرج عنا ما نحن فيه...». [الحديث رواه البخاري]

فكان العفاف عملاً صالحاً يثاب عليه، وسبباً في تفريج الله الكرب عن صاحبه.

وسيكون العفاف أيضاً سبباً في أن يستظل صاحبه يوم القيامة في ظل الله، كما روىٰ الشيخان وغيرهما عن النبي ﷺ قوله: (في السبعة الذين يظلهم الله تعالى في ظله يوم لا ظل إلا ظله):

«ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله رب العالمين».

ومما رواه السلف أن شاباً عابداً كان بالكوفة، فتعرضت له امرأة في الطريق، وقالت له: يا فتىٰ اسمع مني كلمات أكلمك بها.

فقال لها: هذا موقف تهمة، وأنا أكره أن أكون للتهمة موضعاً.

فقالت له: والله ما وقفت موقفي هذا جهالة مني بأمرك، ولكن معاذ الله أن يتشوف العباد إلى مثل هذا مني، والذي حملني على أن لقيتك في مثل هذا الأمر بنفسي، معرفتي أن القليل من هذا عند الناس كثير، وأنتم معاشر العبّاد على مثال القوارير، أدنىٰ شيء يعيبها، وجملة ما أقوله لك: إن جوارحي كلها مشغولة بك، فالله الله في أمري وأمرك.

ومضى الشاب في طريقه ثم كتب إليها يقول:

بسم الله الرحمن الرحيم ، اعلمي أيتها المرأة أن الله عزَّ وجلَّ إذا عصاه العبد حلم ، فإذا عاد إلى المعصية مرة أخرى ستره ، فإذا لبس لها ملابسها غضب الله تعالى لنفسه غضبة تضيق منها السموات والأرض والجبال والشجر والدواب ، فمن ذا يطيق غضبه؟

فإن كان ما ذكرت باطلاً فإني أذكرك يوماً تكون السماء فيه كالمهل ، وتصير الجبال كالعهن ، وتجثو الأمم لصولة الجبار العظيم.

وإني والله قد ضعفت عن إصلاح نفسي فكيف بإصلاح غيري؟ وإنْ كان ما ذكرته حقاً فأنا أدلك على طيب هدى ، يداوي الكلوم ـ الجروح ـ الممرضة والأوجاع الممرضة ، ذلك هو الله رب العالمين فاقصديه بصدق المسألة فإني مشغول عنك بقوله تعالى: ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴾.

[غافر: ١٨ ـ ١٩]

فأين المهرب من هذه الآية؟.

وبعد أيام تعرضت له فأراد الرجوع من الطريق فقالت له:

يا فتى ، لا ترجع فلا كان الملتقى بعد هذا اليوم أبداً إلا غدا بين يدي الله تعالى ، ثم بكت وقالت:

أسأل الله الذي بيده مفاتيح قلبك ، أن يسهل ما قد عسر من أمرك وامنن علي بموعظة أحملها عنك ، وأوصني بوصية أعمل بها.

فقال لها: أوصيك بحفظ نفسك من نفسك ، وأذكرك قول الله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ﴾. [الأنعام: ٦٠]

وانصرف كل منهما عن الآخر.

فإن كان في هذه القصة عبرة ما ، فيجب أن نعرف أن على الشاب المؤمن أن يبتعد عن مثل هذه المواقف وعدم الأخذ والرد مهما كانت الفتاة تحمل من صلاح وتقى ، بل عليه في مثل هذه المواقف ألا يكلمها ولا يستمع لها أبداً ،

لأن الشيطان بالمرصاد يحاول بمثل هذه الأساليب أن يوقع الشاب المؤمن بالمعصية ، وكما قيل :

كلام فسلام فابتسامة فموعد فلقاء فوقوع في معصية الله وعقوبته .

هذا إذا كانت الفتاة صالحة ولكنها وقعت في هذا الحب العاطفي مع شاب مؤمن ، فكيف إن كانت هذه الفتاة لا دين يردعها عن ارتكاب الحرام ، وكانت متبرجة معطرة مزينة؟ فالأمر أشد وأعظم .

لذلك يجب على الشاب المؤمن أن يكون عفيفاً في كل المواقف التي يتعرض لها مع الفتيات ، وذلك بأن يحمل الإيمان العميق والفكر السديد والعاطفة المتزنة ، وقبل ذلك الخوف من الله وحب رضاه والبعد عما يسخطه ليستطيع بكل ذلك السيطرة على شهوات نفسه وإغراءات الفتيات المتعددة ، فينجو بذلك من الوقوع في الحرام ومعصية وغضب الله تعالى .

وأفضل ما يذكر بهذا الموضوع قصة الشيخ (محمد المسكي) المدفون في دمشق في حي الصالحية في تربة السلطان جيلان (شمس الدين دوباج) قرب جامع الحنابلة . وقد سمي هذا الشيخ بالمسكي بسبب القصة التي جرت معه وهو شاب ، وقد عف عن الحرام فأصبح يشم منه رائحة المسك .

وقصته هذه أنه عندما كان شاباً يبيع المراوح في الأحياء ، وبينما هو يتجول في الأزقة بين البيوت ينادي ليبيع ما لديه من مرواح القش ، نادته فتاة من وراء الباب ، وطلبت منه أن يدخل إلى ما وراء الباب لترى ما لديه وتنتقي المروحة المناسبة .

ولما دخل أغلقت الباب وأخذت تهدده بأنه إذا صاح أو قام بأية محاولة للخروج ، فإنها ستصيح بأعلى صوتها ، وسوف تجمع أهل الحي حوله ، وتدعي بأنه دخل عليها المنزل بالقوة ليغصبها شرفها .

بهت الفتى وراح يسأل السيدة عن السبب الذي جعلها تلجأ إلى مثل هذا التصرف ولم يفهم الفتى مرادها إلا عندما رآها وهي تحاول أن تضمه إليها .

فارتعدت فرائصه وعلت جسده قشعريرة شديدة وتملكه الغضب الشديد ،

ولما رأى إصرارها وتهديداتها إن امتنع عنها ما كان منه إلا أن يلتجىء في قلبه إلى الله سائلاً إياه أن ينقذه من هذه الورطة .

فخطرت في باله حيلة تنجيه مما هو فيه .

تظاهر بالرضى التام بما كانت تطلبه منه ، وتظاهر بأنه يريد قضاء حاجته ، وسارعت ترشده إلى منتفعات المنزل ، وبينما راحت هي تعد نفسها خلا الفتى بنفسه في المرحاض وأخذ بيده الأقذار ووضعها على ثيابه ولطخ بها جسمه ، ثم خرج إليها ملطخاً بالأقذار تفوح منه الرائحة المنتنة ، فلما رأته صاحت تقول :

مجنون . . . مجنون . . اخرج أيها المجنون ، وفتحت له الباب فخرج الفتى مسرعاً يريد منزله .

ولم يبالِ وهو في الطريق من دهشة الناس وسخريتهم منه ما دام قد خرج من معركة الشيطان منتصراً .

ولما وصل إلى منزله ، خلع ثيابه واستحمَّ مرات ومرات حتى تطهر جسده ، ولبس ثياباً جديدة نظيفة وهو يرى أن ما فعله لم ينقص منه عضواً ولم يسلخ منه نعمة من النعم التي أنعم الله بها عليه ، بل على العكس من ذلك ، فقد كان عمله هذا سبباً في سلامة إيمانه وطهارة روحه .

وجلس بين أهله وشم الحاضرون رائحة المسك ، وراح من حوله يتفحصون الغرفة ليعرفوا مصدر رائحة المسك التي ملأت المكان فلم يعرفوا لها مصدراً .

فأقبلوا نحوه فإذا رائحة المسك تصدر منه ، ولما ألحوا عليه عن سبب ذلك تحدث بالقصة دون ذكر مكان وبيت تلك الفتاة .

وبدأ الناس يتوافدون عليه ليشموا منه رائحة المسك الزكية التي بقيت ملازمة له طوال حياته ، يتحسسها الناس وهم على بعد أمتار منه .

وغلب لقب (المسكي) على اسمه حتى لم يعرف بعد ذلك إلا بهذا اللقب .

ماذاك إلا لأنه كان عفيفاً ، كف شهواته عن محارم الله .

ثانياً ـ تعفف الفقراء عن المسألـة:

المؤمن الفقير عزيز النفس متعفف عن أن يسأل الناس أو يمد يده إليهم ، بل يصبر على فقره ويسأل الله عزَّ وجلّ من فضله ويسعى إلى رزقه بالعمل والجد والتعب.

هذا وقد أثنى الله تبارك وتعالى على الفقراء المتعففين عن المسألة ، وأوصى بالبحث عنهم وتعهدهم بالعطاء.

فقال تعالى: ﴿ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾. [البقرة: ٢٧٢ ـ ٢٧٣]

لا يسألون الناس إلحافاً: لا يلحّون في طلب الصدقة من الناس.

هؤلاء هم المساكين الحقيقيون الذين يستحقون الزكاة ، كما بين ذلك رسول الله ﷺ حيث يقول:

«ليس المسكينُ الذي تردُّهُ التمرة والتمرتان ، ولا اللقمة واللقمتان ، إنما المسكين الذي يتعفف ، اقرؤوا إن شئتم ﴿ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا ﴾».

[متفق عليه]

وقد وصى رسول الله ﷺ الفقير أن لا يلح في المسألة ، وإن كان محتاجاً ، فالإلحاح يبعد البركة.

قال رسول الله ﷺ:

«لا تُلحفُوا في المسألة فوالله لا يسألني أحدٌ منكم شيئاً فتُخرِج له مسألته مني شيئاً وأنا له كاره فيبارك له فيما أعطيته». [رواه مسلم]

والإلحاح والإلحاف بمعنى واحد.

كما شدد الرسول ﷺ في المسألة.

عن ابن عباس رضي الله عنه قال :

قال رسول الله ﷺ :

«لو يعلم صاحب المسألة ما له فيها لم يسأل» .

[رواه الطبراني في الكبير]

عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال :

«لا تزال المسألة بأحدكم حتى يلقى الله تعالى وليس في وجهه مُزْعةُ لحم» .

[متفق عليه]

والمُزْعَةُ : القطعة .

وطالب رسول الله ﷺ الفقير بالتعفف وعدم سؤال الآخرين .

قال رسول الله ﷺ :

«من يستعفف يُعفّهُ الله ، ومن يستغنِ يُغنه الله» . [رواه البخاري ومسلم]

قال علي كرم الله وجهه لابنه الحسن في وصيته له :

«يا بني إن استطعت ألا يكون بينك وبين الله تعالى ذو نعمة فافعل ، ولا تكن عبد غيرك وقد جعلك الله حراً ، فإن اليسير من عند الله تعالى أكرم وأعظم من الكثير من غيره» .

وقال لقمان لولده :

«يا بني إياك والسؤال فإنه يذهب ماء الحياء من الوجه ، وأعظم من هذا استخفاف الناس بك» .

وقال أكثم بن صيفي :

«أفضل من السؤال ركوب الأهوال» .

وقال شريح :

«من سأل حاجة فقد عرض نفسه للرق ، فإن قضاها المسؤول منه استعبده بها ، وإن رده عنها رجع كلاهما ذليلاً ، هذا بذلك البخل وذاك بذل الرد» .

وقال رجل لابنه :

«إياك أن تريق ماء وجهك عند من لا ماء في وجهه» .

وقال بعض الحكماء :

«احتج إلى من شئت تكن أسيره ، واستغن عمن شئت تكن نظيره ، وأنعم على من شئت تكن أميره» .

وقال أحد العلماء :

«أقرب ما يكون العبد من الله إذا سأله ، وأقرب ما يكون من الخلق إذا لم يسألهم» .

قال الشاعر :

من عف خف على الصديق لقاؤه ... وأخو الحوائج وجهه مملول
وأخوك من وفرت ما في كيسه ... فإن عبثت به فأنت ثقيل

وقال غيره :

لا تحسبن الموت موت البلى ... لكنما الموت سؤال الرجال
كلاهما موت ولكن ذا ... أشر من ذاك لذل السؤال

والإسلام يشجع المسلم على العمل بجد ونشاط حتى لا يمد يده للناس ، وحتى يصبح غنياً ينفق على نفسه وأهله ويساعد المحتاجين وخاصة أقربائه وأرحامه .

عن ابن عمر رضي الله عنهما :

أن رسول الله ﷺ قال وهو على المنبر وذكر الصدقة والتَّعفُّفَ عَن المسألة :

«اليَدُ العليا خيرٌ من اليد السفلى ، واليد العليا هي المنفقة ، والسُّفلى هي السائِلة» . [متفق عليه]

وعن أبي أمامة رضي الله عنه قال :

قال رسول الله ﷺ :

«من أنفق على نفسه نفقة يستعف بها فهي صدقة ، ومن أنفق على امرأته وولده وأهل بيته فهي صدقة» . [رواه أحمد]

والإسلام إن طالب المسلم بالعمل لكسب رزقه ، طالبه بأن يكون كسبه من وجوهه المشروعة .

قال رسول الله ﷺ :

طلب الحلال فريضة بعد الفريضة» . [رواه الطبراني والبيهقي]

وقال ﷺ أيضاً :

«أشد الناس حسرة يوم القيامة ، رجل كسب مالاً من غير حله فدخل به النار» . [رواه البخاري]

والمسلم إذا قعد عن العمل ولزم البطالة والكسل ، فلا شك أن تسوء حاله ، وتنحط نفسه ، ويضيق عيشه ، فيلجأ إلى السؤال ، وأيُّ عامل يرضى لنفسه بهذه الحال التعسة ، بل وكيف يقبل أن يكون عضواً أشل في الهيئة الاجتماعية لا يقام له وزن ولا تعرف له قيمة .

قال رسول الله ﷺ :

«لأن يأخذ أحدكم حبله فيأتي بحزمة الحطب على ظهره فيبيعها فيكف الله بها وجهه خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه» .

[رواه البخاري عن الزبير بن العوام]

وقال رسول الله ﷺ :

«ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده» .

[رواه البخاري عن المقدام بن معد يكرب]

والمسلم لا يترك العمل بدنياه بحجة العمل لآخرته ، فهو بذلك لا يحقق ما أراد الإسلام منه ، فالإسلام يريد من المسلم أن يعمل لدنياه وآخرته معاً .

قال الله تعالى : ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ . [البقرة : ٢٠١]

وقال رسول الله ﷺ:

«ليسَ بخَيركم من تَركَ دُنياه لآخرته ، ولا آخرته لدنياه حتىٰ يصيب منهما جميعاً فإن الدنيا بلاغٌ إلى الآخرة ، ولا تكونوا كَلّاً على الناس».

[رواه الديلمي وابن عساكر عن أنس]

وأثر عن سيدنا علي كرم الله وجهه قوله :

«اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً».

ثالثاً ـ التعفف عن أموال الآخرين :

وذلك بأن يكون المؤمن حريصاً على أن لا يأخذ من المال الذي بين يديه إلا ما كان حقاً حلالاً له ، وأن يصون يده عن أن يتناول شيئاً من مصدر حرام أو فيه شبهة ، لأن كل لحم نبت من الحرام فالنار أولى به.

قال الله تعالى : ﴿ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ﴾ . [النساء : ٦]

وقد ورد هذا النص في مقام الحديث عن اليتيم ورعاية ماله ، ومعناه أن كل من كان منكم غنياً متولياً لأمر يتيم ، فليعف عن الأكل من مال اليتيم ، وليطالب نفسه بذلك ويحملها على العفة في هذا المجال.

كذلك يتعفف المسلم على أن يأخذ أي مال كان بين يديه وليس له فيه حق ، كالأجير أو العامل أو الموظف ، شعاره (أما الحرام فالممات دونه).

فالمسلم لو كان بين يديه الملايين وكنوز الدنيا ، وهو فقير محتاج ولم يكن ذلك المال له ، وإنما هو أمين عليه لا يخطر على باله الأخذ أو الاستدانة منه أو استعماله لوقت معين دون علم صاحبه.

فرعاية حقوق الآخرين والأمانة فيها أهم من سد حاجته وهي واجب يجب أداؤه ، حتى لا يقع في الخيانة أو السرقة أو الغدر ، وبذلك يقع في غضب الله وسخطه ، ويخسر ثقة الناس وصحبتهم وبذلك يخسر نفسه وأهله.

والعفيف المتعفف مع حاجته من أهل الجنة ، والخوان من أهل النار.

عن عياض بن حمار قال :

قال رسول الله ﷺ:

«أهل الجنة ثلاثة: ذو سلطانٍ مقسط متصدّق موفق، ورجلٌ رحيم رقيق القلب لكل ذي قربى ومسلم.

وعفيف متعفف ذو عيال.

وأهل النار خمسة: الضعيف الذي لا زَبْرَ له، والذين هم فيكم تَبَعٌ لا يبغون أهلاً ولا مالاً.

والخائن الذي لا يخفى له طمع وإن دقّ إلا خانه.

ورجل لا يصبح ولا يمسي إلا وهو يخادعك عن أهلك ومالك.

وذكر البخل أو الكذب.

ثم قال: والشِّنْظيرُ الفحّاش». [رواه مسلم]

لا زَبْرَ له: أي لا عقل له يعقله عن المعاصي والآثام.

الشنظير الفحاش: هو سيء الخلق بذيء اللسان.

رابعاً ـ التعفف عن كل ما وهب الله للآخرين:

من العفة عفة الإنسان عن التطلع والنظر إلى ما لدى غيره من الناس من متع الحياة الدنيا، من مختلف الأصناف.

وفي ذلك يقول الله عز وجل لرسوله سيدنا محمد ﷺ: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾.

[طه: ١٣١]

وخطاب الرسول ﷺ في مثل هذا خطاب لكل مؤمن برسالته.

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ أمر بالعفة ونهي عن مجانبة سبيلها.

﴿أَزْوَٰجًا﴾ أي: أصنافاً مختلفة من زهرة الحياة الدنيا، ويدخل فيها كل ما تمتد إليه مطامع الناس من: (مال وسلطان وحدائق وبساتين وخيل مسومة وأنعام وقصور ومساكن طيبة وزوجات حسان وجاه عريض وقوة وجمال وصحة وعافية وأولاد وذرية...) إلى غير ذلك من أصناف مختلفة.

وإذا أمر الله بالعفة لفت الأنظار إلى ما عنده من رزق هو خير وأبقى.

جاء في تفسير المراغي لهذه الآية:

(أي ولا تطل النظر استحساناً ورغبة فيما متع به هؤلاء المترفون من النعيم، فإنما هو زهرة زائلة، ونعمة حائلة، نختبرهم بها، ونعلم هل يؤدون شكرها أو تكون وبالاً عليهم ونكالاً لهم، وقد آتاك ربك خيراً مما آتاهم، فرضاه خير وأبقى كما قال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾).

وضد العفة في هذا المجال الحسد، والعفيف يترفع عن رذيلة الحسد، لأنه لا يمد عينيه إلى ما لدى غيره من زهرة الحياة الدنيا، وهو يعتبر أن ما لدى كل إنسان من مواهب الله، إنما هي امتحان له هل يشكر أم يكفر، وهذه المواهب منحة من الله وعطاء ورزق وكل ذلك بيد الله عز وجل، لذلك يسأل الله أن يوفق الجميع لشكر نعمائه والنجاح في امتحانه.

كما يسأل الله من فضله أن يعمه بالخيرات والبركات والنعم الكثيرة مع الشكر والحمد الدائم لله عز وجل، ومع سؤاله ذلك يعمل جاهداً في هذه الحياة ليصل إلى مبتغاه عن طريق السعي والعمل وعن طريق توفيق الله وفضله.

ويجب على المسلم أن يكون قنوعاً راضياً بما قسم الله له من متاع الحياة الدنيا، لا ينظر إلى ما للغير، فليس للحياة بدون قناعة لذة، ولا من غير رضا قيمة، وما ضاقت الدنيا إلا في وجه من اتخذ الجشع طبعاً، والحرص ديدناً، ولا عاش سعيداً إلا من كان الرضا حليفه والزهد قربه.

كما يجب على المسلم أن يتذكر دائماً ما أنعم الله عليه من نعم كثيرة لا تعد ولا تحصى، وهي أغلى من الذهب والفضة، كنعمة البصر والسمع والصحة وغير ذلك...

عن أبي هريرة رضي الله عنه:

أن رسول الله ﷺ قال:

«ليس الغنى عن كثرة العَرَض، ولكن الغنى غنى النفس».

العرض: هو ما يقتنيه الإنسان ويتموله من المال وغيره.

قال سيدنا علي كرم الله وجهه:

«من رضي بما قسم له استراح قلبه وبدنه».

قال بعض الحكماء:

«إن من قنع كان غنياً، وإن كان فقيراً، ومن لم يقنع كان فقيراً وإن كان مكثراً».

وقال غيره:

الغني من استغنى بالله، والفقير من افتقر إلى الناس.

وقال ثالث:

من أيقن أن الرزق الذي قسم له لا يفوته تعجل الراحة.

ومن علم أن الذي قضي عليه لم يكن ليخطئه فقد استراح من الجزع.

ومن علم أن مولاه خير له من العباد فقصده فكفاه همه وجمع شمله.

وقال بعض الصلحاء:

يا ابن آدم لا تخشَ من ضيق الرزق ما دامت خزائن الله ملآنة، وخزائنه لا تنفد أبداً، ولا تأنس بغير الله فإن أنست بغيره تعالى فاتك الخير كله، وارض بما قسم الله لك فتريح قلبك وبدنك، ولا تطالبه برزق غد، كما لا يطالبك بعمل غد، فإنه لا ينسى من عصاه، فكيف ينسى من أطاعه، وهو على كل شيء قدير وبكل شيء محيط.

قال سيدنا علي كرم الله وجهه:

أفادتني القناعة كل عزٍّ ... وأيُّ غنى أعزُّ من القناعة
فصيرها لنفسك رأس مال ... وصير بعدها التقوى بضاعة

طلب العفة:

طلب العفة أمر دعا إليه الإسلام، فيجب على المسلم أن يسعى لأن يكون متخلقاً بالعفة فقد قال الله عز وجل: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾.

[النور: ٣٣]

وقال أيضاً: ﴿ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ﴾ [النساء: ٦].

وكان من دعاء الرسول ﷺ:

«اللهم إني أسألك العفاف والغنى».

وقال ﷺ:

«من يتسعفف يُعِفَّهُ اللهُ، ومن يستغن يُغنه الله». [رواه البخاري، ومسلم]

أي من طلب العفة وحاولها، أعطاه الله إياها.

هذا وطلب العفة يعني السيطرة على هوى النفس ومتطلباتها.

قال ابن المقفع:

«الهوى آفة العفاف».

كما أن الرضا والقناعة يؤديان إلى العفاف.

قال أحد الحكماء:

«الرضا بالكفاف يؤدي إلى العفاف».

ومن طلب العفة لنفسه حقق العفة في أهله وأولاده.

قال الشاعر:

عفوا تعف نساؤكم في المحرم ... وتجنبوا ما لا يليق بمسلم

ومن هذب نفسه وزكاها وأوصلها إلى العفة، فقد ملك الحظ السعيد والخير الوفير والتوفيق المديد.

قال الشاعر:

ما الحظ إلا امتلاك المرء عفته ... وما السعادة إلا حسن أخلاق

* * *

واجبات الآباء والمربين

أولاً ـ أن لا ينسى الآباء والمربون أنهم قدوة لأبنائهم في كل تصرفاتهم ، فمن أراد أن يتصف أبناؤه بالعفة ، يجب عليه أن يكون متصفاً بهذا الخلق القويم في كل أعماله وأقواله ، وما يؤثر عنه من تصرفات مختلفة .

ثانياً ـ أن يشرح الآباء والمربون لأولادهم معنىٰ العفة وأهمية هذا الخلق وكيف يتصف المؤمن به .

ثالثاً ـ أن يراقب كل من الآباء والمربين أولادهم في أقوالهم وأعمالهم وتصرفاتهم ويوجهونهم إلى خلق العفة .

رابعاً ـ أن يشجع الآباء والمربون أولادهم بالكلمة الطيبة والابتسامة العذبة والمكافأة الحسنة ، عندما يشاهدون منهم موقفاً يتصف بالعفة .

خامساً ـ تنبيه الأولاد إلى ترك كل ما يخالف العفة من قول وفعل ، وكذلك الابتعاد عن كل صديق لا يتصف بهذا الخلق الفاضل .

سادساً ـ أن يسألوا الله تعالى أن يساعدهم في تربية أبنائهم وأن يحقق في أبنائهم الأخلاق الفاضلة والإيمان الكامل والسعادة التامة والتوفيق الدائم .

* * *

العبرة والتطبيق:

أيها الناشئة [المؤمن والمؤمنة]:

بعد أن استوعبت معنى العفة وأنواعها ، وأيقنت ضرورة طلب العفة والتخلق بهذا الخلق القويم ، عليك أن تسعى لما يلي:

أولاً - راجع أعمالك وأقوالك وتصرفاتك السابقة ، فإن صدر منك ما يخالف هذا الخلق فتب إلى الله تعالى من ذلك ، وعاهد الله عز وجل أن لا تعود لمثل ذلك وراقب نفسك ألا تقع في البعد عن العفاف وما يتعلق به.

ثانياً - إن وقع منك شيء مخالف لخلق العفاف ، فاستغفر الله عز وجل ، واعتذر مما بدر منك وتب إلى الله عز وجل.

ثالثاً - احمد الله عز وجل عند كل موقف تقفه بالعفاف والعفة.

رابعاً - ادع الله عز وجل أن يخلقك بالعفة في كل تصرفاتك.

خامساً - راقب إخوتك وادعهم إلى خلق الوفاء والتزامه في كل تصرفاتهم.

سادساً - ادع الله عز وجل أن يمن على هذه الأمة الإسلامية بالتمسك بدينها وأخلاقها ، ومنها العفة حتى يعم الخير وتنتشر السعادة بين الجميع.

﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾. [التوبة: ١٠٥]

«وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين».

* * *

خُلُقُ الشَّجَاعَةِ
٦

تـعـريف الشجاعـة :

ـ **الشجاعة :** هي الثبات عند ملاقاة الشدائد ، والإقدام على ما يعتقده الإنسان حقاً من قول أو فعل مهما اعترضه من العقبات وصادفه من الصعاب .

والشجاعة : قوة في عزيمة النفس ، تدفع إلى الإقدام بعقل في مخاطرة بعمل أو قول ، لتحصيل خير ، أو دفع شر ، مع ما في ذلك من توقع هلاك أو مضرة يقيناً أو ظناً .

أما الإقدام بغير عقل فهو جنون ، أو شبيه به ، كالمنتحر يقدم على ما فيه هلاكه ، والإقدام في غير مخاطرة لا يعتبر من الشجاعة ، بل هو نشاط وهمة .

وأما الإقدام لا لتحصيل خير أو دفع شر فهو مذموم :

ـ والشجاعة والإقدام والجرأة والقوة والبطولة معانٍ مشتركة متشابكة فيما بينها يحتاج كل منها إلى الآخر .

قيمة الشجاعة :

ـ للشجاعة قيمة كبيرة عند جميع الشعوب وعبر العصور والأزمنة .

ـ فالشجاع عزيز مهاب ممدوح ، محله الإعجاب والتقدير ، ومكانته الصدارة والاحترام ، ولو أصبح تحت التراب .

قال الشاعر :

إن الجواهر في التراب جواهر   والأسد في قفص الحديد أسود

ـ فهاهي الشعوب المختلفة وفي العصور المتتالية تمجد الشجاعة

والشجعان ، وتعلي من مكانتهم ومنزلتهم ، وترفع من ذكرهم وتحتفل بهم وتقيم لهم النصب التذكارية وتمجد أعمالهم وتظهر بطولاتهم.

ـ ولقد اشتهر العرب منذ القديم بهذه الصفة وكان اهتمامهم بها كبيراً فأعزوا صاحبها وأنالوه المكانة العالية وافتخروا به وذكروه في كل مجالاتهم ومجالسهم وكتبهم وقصصهم وشعرهم.

ـ وجاء الإسلام ليعزز هذا الخلق ، ويشجع عليه ويبرزه في مجالات كثيرة ، فاشتهر به الصحابة كالخلفاء الراشدين ، وخالد بن الوليد وأبي عبيدة بن الجراح ، وغيرهم من أمراء وقادة الفتوحات الإسلامية ، وعامة المسلمين مع خاصتهم.

ـ ولذلك حثت التربية الإسلامية على السعي لتثبيت هذا الخلق في تربية أبنائها منذ نعومة أظفارهم ، وعلى أكمل وجه وفي جميع أنواع الشجاعة ومجالاتها.

فكان من وصية سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه للآباء تعليم أولادهم مبادىء الفتوة والفروسية ووسائل الحرب والجهاد فقال لهم:

«علموا أولادكم الرماية والسباحة ومروهم فليثبوا على الخيل وثباً».

وبرز الاهتمام بهذا الخلق في مجال دفع أعداء العروبة والإسلام وصد عدوانهم ومؤامراتهم فظهرت قصص الشجاعة والبطولة في ذلك وعظم أمر الشهادة والشهداء حتى وصفوا بأنهم أنبل من في الدنيا وأكرم بني البشر.

ـ وتظهر قيمة الشجاعة هذه بارتباطها بالقوة التي عززها الإسلام وأعلى منزلتها ، فكانت القوة صفة من صفات الله عز وجل:

قال الله تعالى:

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ﴾. [هود: ٦٦]

وقال أيضاً:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾. [الأنفال: ٥٢]

وقد وصف القرآن رب العزة بأن القوة كلها له فقال:

﴿ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾. [البقرة: ١٦٥]

وكرر وصف الله بوصفي القوة والعزة معاً سبع مرات.

ـ كما أن القرآن الكريم يحدثنا عن جبريل عليه السلام، وهو أحد الملائكة وسفير الله إلى أنبيائه ورسله، وأمينه على وحيه، فيصفه بالقوة أيضاً، فيقول عنه:

﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝١٩ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴾. [التكوير: ١٩ ـ ٢٠]

ويقول عنه أيضاً:

﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴾. [النجم: ٤ ـ ٦]

ـ وكانت الشجاعة والقوة من صفات الأنبياء أيضاً.

قال الله عز وجل:

﴿ يَـٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَـٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴾. [مريم ١٢]

وقال الله عز وجل على لسان ابنة شعيب في حق موسى عليه السلام:

﴿ يَـٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴾. [القصص: ٢٦]

ويضرب سيدنا محمد ﷺ أروع الأمثلة في الشجاعة والشجعان في سيرته وحياته.

وقد أمر الله عز وجل المؤمنين أن يعدوا أنفسهم للصمود أمام أعدائهم، فقال سبحانه:

﴿ وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾. [الأنفال: ٦٠]

روي عن عقبة بن عامر قال: سمعت رسول الله ﷺ وهو على المنبر يقول:

«﴿ وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾، ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي». [رواه مسلم]

أنواع الشجاعة ومجالاتها :

تظهر الشجاعة في مجالات كثيرة ومواقف متعددة منها :

أولاً ـ الشجاعة الجسمية

وتتجلى هذه الشجاعة في صور متعددة :

فهي تتجلى في الجندي وقت اشتداد الحروب ، تراه يخوض بحار المنايا ، ويحتقر الموت ، فلا يكترث لعُدده المهلكة ، من سيوف قاطعة ورماح مشرعة ، ومدافع قاصفة ، وطائرات قاذفة وغارات خانقة ، وأساطيل فاتكة ، ولا يفزعه في حومة الوغى ما تراه عيناه من دماء مراقة ، ورؤوس متطايرة ، وأجسام هامدة ، وأشلاء مبعثرة ، بل يرى الفخر كل الفخر في أن تسيل نفسه ذياداً عن حوزة وطنه ، ودفاعاً عن علم بلاده .

كما تتجلى في المطفئين الذين يخاطرون بأرواحهم لينقذوا غيرهم من الهلاك المحدق بهم . وتتجلى أيضاً فيمن يقذفون بأنفسهم في لجة اليم لإنقاذ المشرفين على الغرق .

وفي أولئك الأطباء ورجال الإنسانية الذين يغامرون بحياتهم في مكافحة الأوبئة الفتاكة غير مبالين بالعدوى ، ولا ناظرين لشيء سوى إنقاذ الناس من خطر داهم .

هذه الشجاعة برزت في ظل الإسلام ، وأعلى الإسلام من شأنها ومجد أشخاصها .

فقد حض الإسلام على الشجاعة ، ومدح الشجعان وبين مكانتهم العالية في الدنيا والآخرة ، فقال تعالى :

﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ . [التوبة : ١١١]

وقال تعالى:

﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴾. [الأحزاب: ٢٣]

وقال أيضاً:

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾.

[آل عمران: ١٦٩]

وقد أعطى رسول الله ﷺ أروع الأمثلة العملية عن هذا النوع من الشجاعة حتى وهو في شبابه:

- خرج إلى اليمن في قافلة مع عمه، وكان في السابعة عشرة من عمره، فرأوا في واد فحلاً من الإبل، قد توحش وجمح، فتعرض له محمد وكبح جماحه.

- وفي حرب الفجار وهو دون العشرين كان ينبل عن أعمامه.

واعترض القافلة واد مليء ماء، فهابته الجماعة، فتقدم وقال: اتبعوني اتبعوني.

هذه أمثلة من جرأة الصبا، ولكن الأمثلة التي نريدها، والتي ينحني لها أبطال العالم إكباراً وإجلالاً هي التي ضربها بعد الرسالة.

- يقول سيدنا علي كرم الله وجهه:

(كنا إذا حمي البأس، واحمرت الحدق، اتقينا برسول الله، فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه).

- ويقول البراء:

(كان رسول الله ﷺ إذا تشمر للقتال أشد الناس بأساً، وكان الشجاع منا هو الذي يقترب منه في الحرب لشدة قربه من العدو).

وفزع أهل المدينة ليلة، فانطلق ناس قبل الصوت، فتلقاهم رسول الله ﷺ راجعاً، وقد سبقهم إلى ذلك الصوت، واستبرأ الخبر على فرس عُري، والسيف في عنقه وهو يقول: لن تراعوا.

ـ في حنين وقف على بغلته ، والناس يفرون عنه وهو يقول :

«أنا النبي لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب» .

فما رئي أحد يومئذ كان أثبت منه ، ولا أقرب للعدو .

وكان رسول الله ﷺ يحب القوة ويحبب بها .

روي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

«المؤمنُ القَويُّ خَيْرٌ وأحَبُّ إلى اللهِ من المُؤْمِنِ الضَّعِيف ، وفي كلٍّ خَيرٌ ، احرِصْ على ما يَنفَعُكَ واستَعِنْ باللهِ ولا تَعْجِز ، وإن أَصَابكَ شيءٌ فلا تَقُلْ : لو أنِّي فَعَلْتُ كذا لكان كذا ، ولكن قلْ : قدَّر الله وما شَاء فَعَل ، فإنَّ (لو) تفتَح عَمَلَ الشَّيطان» . [رواه مُسْلِم]

وقد كان من دعائه ﷺ :

«اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن ، وأعوذ بك من العجز والكسل ، وأعوذ بك من الجبن والبخل ، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال» .

[رواه أبو داود]

كما كان رسول الله ﷺ يحب الشجاعة والشجعان ويكافىء عليها وخاصة في الفتيان والشباب .

ـ لما هاجر النَّبي ﷺ وصاحبه أبو بكر رضي الله عنه إلى المدينة المنورة ، وأقاما في غار ثور ثلاثة أيام ، عملت عائشة وأسماء بنتا أبي بكر رضي الله عنهم في تهيئة الزاد لهما ، وقطعت أسماء قطعة من نطاقها فربطت بها الطعام الذي كانت تحمله ، فسميت بذلك ذات النطاقين ، وعمل عبد الله بن أبي بكر رضي الله عنهما على نقل الأخبار ، فلا يسمع من قريش أمراً يبيتونه من المكروه لهما إلا وعاه رضي الله عنه حتى يأتيهما في المساء بخبره ، ويبقى عندهما بعض الوقت ، ثم يخرج من عندهما بالسحر ، ويصبح مع قريش بمكة كأنه كان نائماً فيها ، ومن المعلوم أن عائشة وعبد الله رضي الله عنهما لم يبلغا الحلم بعد .

وهذه شجاعة نادرة لم يقوَ عليها كثير من الرجال .

ـ وقد أخرج الشيخان عن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه قال:

إني لواقف يوم بدر في الصف، فنظرت عن يميني وشمالي فإذا أنا بين غلامين من الأنصار حديثة أسنانهما!! فغمزني أحدهما فقال:

يا عماه!! أتعرف أبا جهل؟

فقلت: نعم، وما حاجتك إليه؟

قال: أخبرت أنه يسب رسول الله ﷺ، والذي نفسي بيده، لئن رأيته لا يفارق سوادي سواده (أي شخصي شخصه) حتى يموت الأعجل منا.

فتعجبت لذلك، فغمزني الآخر فقال لي أيضاً مثلها، فلم ألبث أن نظرت إلى أبي جهل وهو يجول في الناس، فقلت: ألا تريان؟ هذا صاحبكما الذي تسألاني عنه، فابتدراه بسيفهما فضرباه حتى قتلاه، ثم انصرفا إلى النَّبي ﷺ فأخبراه، فقال: أيكما قتله؟

قال كل منهما: أنا قتلته.

قال: هل مسحتما سيفيكما؟

قالا: لا.

قال: فنظر النَّبي ﷺ في السيفين فقال: كلاكما قتله.

وقضى بسلبه لمعاذ بن عمرو بن الجموح، والآخر معاذ بن عفراء رضي الله عنهما.

ـ وأخرج ابن سعد في طبقاته، والبزار وابن الأثير في الإصابة عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال:

رأيت أخي عُمير بن أبي وقاص قبل أن يعرضنا رسول الله ﷺ يوم بدر يتوارى فقلت: ما لك يا أخي؟

قال: إني أخاف أن يراني رسول الله ﷺ فيردني، وأنا أحب الخروج لعل الله أن يرزقني الشهادة.

قال: فعرض على رسول الله ﷺ فرده لصغره، فبكى فأجازه عليه الصلاة والسلام.

فكان سعد رضي الله عنه يقول: فكنت أعقد خمائل سيفه من صغره. فقتل وهو ابن ست عشرة سنة رضي الله عنه.

ـ لما خرج المسلمون إلى أحد للقاء المشركين، استعرض النَّبي ﷺ الجيش، فرأى فيه صغاراً لم يبلغوا الحلم حشروا أنفسهم مع الرجال، ليكونوا مع المجاهدين في إعلاء كلمة الله، فأشفق عليهم النبي ﷺ ورد من استصغر منهم.

وكان فيمن رده منهم عليه الصلاة والسلام رافع بن خديج وسمرة بن جندب، ثم أجاز رافعاً لما قيل له: إنه رام يحسن الرماية.

فبكى سمرة وقال لزوج أمه: أجاز رسول الله ﷺ رافعاً وردني مع أني أصرعه.

فبلغ رسول الله ﷺ الخبر، فأمرهما بالمصارعة، فكان الغالب سمرة، فأجازه عليه الصلاة والسلام.

ـ وأخرج ابن أبي شيبة عن الشعبي: أن امرأة دفعت إلى ابنها يوم أحد السيف، فلم يطق حمله فشدته على ساعده بسير مضفور، ثم أتت به النَّبي، فقالت:

يا رسول الله هذا ابني يقاتل عنك.

فقال النَّبي ﷺ: أي بني، احمل هاهنا، أي بني احمل هاهنا (أي اهجم هاهنا) فأصابته جراحة، فصُرع، فأتي به النَّبي ﷺ فقال: أي بني لعلك جزعت؟

قال الولد: لا يا رسول الله.

هكذا كانت تربية الإسلام للناشئة في مجال الشجاعة الجسدية، وتلك هي بعض الأمثلة القليلة عنها، فكيف كان شبابهم ورجالهم ونساؤهم، إن كتب

التاريخ والغزوات والمعارك والفتوحات لتحدثنا بالكثير الكثير عن هؤلاء الأبطال الشجعان وبطولاتهم وشجاعتهم التي تكاد لا تصدق من عظمتها مع أنها حقيقة واقعة.

ونحن اليوم بأشد الحاجة إلى هذه التربية في مجال الشجاعة الجسدية ليقف الناشئة والشباب تحت ظل قوانين دولتهم حماةً للوطن ومدافعين عن العقيدة والدين والوطن في سبيل الله، لصد أعداء العروبة والإسلام من الصهاينة والاستعمار الغاشم.

* * *

ثانياً: شجاعة الإيمان

يعطي الإيمان شجاعة للمؤمنين، ليحافظوا على إيمانهم ويثبتوا عليه ويدافعوا عنه، ولا يتأثروا بأي مؤثر يحاول إضلالهم، ولا ينخدعوا بالمغريات التي تعرض عليهم، كي يتركوا إيمانهم. وإذا كانت الشجاعة الجسمية تحتاج إلى الإقدام، فإن شجاعة الإيمان تحتاج إلى الجرأة، والجرأة قوة نفسية رائعة يستمدها المؤمن من الإيمان بالله، ومن الحق الذي يعتنقه، ومن الخلود الذي يؤمن به، ومن القدر الذي يستسلم إليه، ومن المسؤولية التي يستشعر بها، ومن التربية التي ينشأ عليها.

وعلى قدر نصيب المؤمن من الإيمان بالله الذي لا يغلب، وبالحق الذي لا يخذل، وبالقدر الذي لا يتحول، وبالمسؤولية التي لا تكل، وبالتربية التي لا تمل، بقدر هذا كله يكون نصيبه من قوة الشجاعة والجرأة وقول كلمة الحق.

وأفضل مثال عن هذه الشجاعة والجرأة الرسول ﷺ حتى في صغره وقبل أن يأتيه الوحي، فقد استحلف مرة وهو صبي باللات والعزى فقال:

«لا تسألني بهما شيئاً، فوالله ما بغضت شيئاً بغضي لهما».

أما بعد بعثته ﷺ فقد أوفدت قريش زعماءها إلى أبي طالب تنذره، وتطلب

إليه أن يكف ابن أخيه عنها ، أو تنازله حتى يهلك أحد الفريقين ، عظم الأمر على أبي طالب فبعث إلى سيدنا محمد ﷺ إن قومك قد أنذروني ، فأبقِ عليّ وعلى نفسك ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق.

فأجاب سيدنا محمد ﷺ بشجاعة الإيمان وبكل جرأة:

«يا عمي ، والله لو وضعوا الشمس في يميني ، والقمر في يساري ، على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله ، أو أهلك فيه ، ما تركته» وبكى وقام.

فلما ولى ناداه أبو طالب: أقبل يا ابن أخي.

فأقبل ، فقال: اذهب يا بن أخي ، فقل ما أحببت ، فوالله لا أسلمك بشيء أبداً.

وصورة أخرى من الشجاعة والجرأة الإيمانية في رسول الله ﷺ نراها فيما يرويه ابن هشام عن ابن إسحاق ، أن عتبة بن ربيعة وكان سيداً ذا بصيرة ورأي في قومه ، قال في نادي قريش:

(يا معشر قريش ، ألا أقوم إلى محمد فأكلمه ، وأعرض عليه أموراً لعله يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء ويكف عنّا؟

فقالوا: بلى يا أبا الوليد ، قم إليه فكلمه.

فجاء عتبة حتى جلس إلى رسول الله ﷺ فقال:

يا بن أخي ، إنك منا حيث قد علمت من الشرف في العشيرة والمكانة في النسب ، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم ، وسفهت به أحلامهم...

فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها ، لعلك تقبل منها بعضها.

فقال له رسول الله ﷺ: قل يا أبا الوليد أسمع.

فقال: يا بن أخي ، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً ، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً ، وإن كنت تريد به شرفاً سودناك علينا ، حتى لا نقطع أمراً دونك ، وإن كنت تريد به ملكاً ، ملكناك علينا ، وإن

كان هذا الذي يأتيك رئيا تراه ، لا تستطيع رده عن نفسك ، طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى تبرئكَ منه.

فقال له رسول الله ﷺ: أفرغت يا أبا الوليد؟

قال: نعم.

قال: فاسمع مني . ثم قال:

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ۝٤ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ۝٥ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ﴾.

[فصلت: ١ ـ ٦]

ثم مضى رسول الله ﷺ في القراءة وعتبة يسمع حتى وصل إلى قوله تعالى:

﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَقُلۡ أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةٗ مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٖ وَثَمُودَ﴾. [فصلت: ١٣]

فأمسك عتبة بفيه وناشده الرحم أن يكف عن القراءة ، وذلك خوفاً مما تضمنته الآية من تهديد ، ثم انصرف عتبة إلى قومه).

هذا وإننا لنجد في كل مواقف الرسول ﷺ الصور المثالية لهذه الشجاعة والجرأة الإيمانية في تبليغ الدعوة وتعليم الشريعة ، والوقوف أمام أعدائه والمنافقين وعلى امتداد أيام حياته ﷺ.

كذلك نرى هذه الشجاعة والجرأة الإيمانية بارزة في شخصية سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، الذي كان أرجح المؤمنين إيماناً بعد رسول الله ﷺ ، فقد تمثل إيمانه في مواقف جعلت عمر القوي الشديد يقول عنه:

(والله لو وزن إيمان أبي بكر بإيمان هذه الأمة ، لرجح إيمان أبي بكر).

موقفه يوم توفي الرسول ﷺ فذهل المسلمون ، وأخرجتهم الفجيعة عن وعيهم ورشدهم ، حتى روي أن عمر قال: من قال إن محمداً مات ضربت عنقه بسيفي هذا.

هناك وقف أبو بكر رضي الله عنه يؤذن في الناس بصوت جهير ويقول:

(من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت) وتلا قوله تبارك وتعالى:

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِين مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾.

[آل عمران: ١٤٤]

وموقفه بعد ذلك يوم تردد المسلمون في إنفاذ جيش أسامة الذي جهزه النبي ﷺ إلى الشام قبل مرض موته، فقد طلبوا من أبي بكر أن يوقف سير هذا الجيش، بسبب أن الغد مليء بالأحداث والاحتمالات، ولا يدري أحد ماذا يفعل العرب من القبائل والقرى إذا علموا أن النبي ﷺ قد مات، ولكن أبا بكر أجابهم في عزم عازم، وبالشجاعة الإيمانية قائلاً:

(والذي نفس أبي بكر بيده، لو ظننت أن السباع تختطفني لأنفذت بعث أسامة كما أمر به رسول الله ﷺ، ما كنت أحل عقدة عقدها رسول الله بيده، ولو لم يبق في القرى غيري لأنفذته).

وكذلك موقفه رضي الله عنه في حرب المرتدين ومانعي الزكاة، في الوقت الذي برزت فيه قرون العصبية الجاهلية كأنها قرون الشياطين، وكان المسلمون بعد موت الرسول ﷺ كالغنم في الليلة المطيرة كما وصفتهم السيدة عائشة رضي الله عنها، وحتى قال بعض المسلمين لأبي بكر: يا خليفة رسول الله، لا طاقة لك لحرب العرب جميعاً، الزم بيتك وأغلق بابك، واعبد ربك حتى يأتيك اليقين.

ولكن هذا الرجل الخاشع البكاء، الرقيق كالنسيم، اللين كالحرير، الرحيم كقلب الأم، ينقلب في لحظات إلى رجل ثائر كالبحر، زائر كالليث، يصيح في وجه عمر بالشجاعة والجرأة الإيمانية:

(أجبار في الجاهلية، وخوار في الإسلام، لقد تم الوحي واكتمل...

أفينقص الدين وأنا حي؟ والله لو منعوني عقال بعير كانوا يؤدونه لرسول الله ﷺ لقاتلتهم عليه ، والله لأقاتلنهم ما استمسك السيف بيدي) .

فما كان من عمر رضي الله عنه إلا أن قال :

(لقد شرح الله صدر أبي بكر للقتال فعلمت أنه الحق) .

وتظهر هذه الشجاعة الإيمانية في العديد من الصحابة الكرام ، وخاصة عندما دخلوا دين الله ، واتبعواالنَّبي ﷺ وتركوا عبادة الأصنام وما كان عليه آباؤهم .

هناك تظهر هذه الشجاعة الإيمانية ، وعلى أعلى وجه وأكمل صورة ، حيث قام المشركون بتعذيب الصحابة أشد العذاب ، من أجل أن يتركوا هذا الدين الجديد ، ولكن الصحابة الكرام ثبتوا وأظهروا هذه الشجاعة الإيمانية ، ضمن مواقف مشهورة ترفع الرأس عالياً ، وتدهش المشركين والمنافقين والكفار في كل زمان ومكان .

من بين هؤلاء سيدنا بلال الحبشي رضي الله عنه وموقفه من سيده أمية بن خلف وجلاديه ، وهم يعذبونه أشد العذاب ، وفي حر شمس الحجاز عند الظهيرة ، والأحجار الثقيلة على صدره ، وهم يصيحون به اذكر اللات والعزى .

فيجيبهم بقوة وشجاعة وجرأة وعمق الإيمان : (أحد . . . أحد) .

هذا النشيد العظيم الجميل الذي لم يغيره مع تغيير أنواع العذاب الشديد عنه .

كذلك سيدنا عمار بن ياسر وهو يعذب أشد العذاب ليترك دين الإسلام واتباع الرسول العدنان ﷺ وقتلوا أمامه أمه وأباه ورسول الله يقول له :

«صبراً أبا يقظان ـ صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة» .

ويقول عمرو بن ميمون :

(أحرق المشركون عمار بن ياسر بالنار ، فكان رسول الله ﷺ يمر به ، ويمر

يده على رأسه ويقول: يا نار كوني برداً وسلاماً على عمار كما كنت برداً وسلاماً على إبراهيم».

كل ذلك لم يغير من إيمان عمار ، وما ذلك إلا بفضل شجاعة وقوة وجرأة إيمانه حتى قال عنه ﷺ:

«إن عماراً مليء إيماناً إلى مشاشه (أي إلى ما تحت عظامه)».

هذه بعض الصور من صور مواقف النبي ﷺ وسيدنا أبي بكر رضي الله عنه وبعض الصحابة تُظهر هذه الشجاعة والجرأة الإيمانية. ولكن صور هذا الموضوع كثيرة في سيرة النبي ﷺ وسيرة سيدنا أبي بكر وغيره من الصحابة الكرام والتابعين لهم بإحسان وسير العلماء العاملين والدعاة المخلصين.

هذه الشجاعة التي يجب أن يتربى عليها الناشئة والجيل المسلم في كل زمان ومكان ليثبتوا على إيمانهم ويستقيموا عليه ، ويدافعوا عنه ويصمدوا أمام المغريات والشهوات المتنوعة والكثيرة التي تضعف ذلك الإيمان.

* * *

ثالثاً ـ الشجاعة الأخلاقية

تطبيق الأخلاق الإيمانية الإسلامية يحتاج إلى شجاعة وصمود وجرأة ، لما في هذه الأخلاق من مخالفة للنفس الأمارة بالسوء والشهوات واللذات والمغريات الكثيرة.

فالصدق يحتاج في كثير من المواقف إلى هذه الشجاعة ، لأن في ظاهره أحياناً إضعافاً لحاجات الإنسان ومتطلباته ورغباته وشخصيته ونفسيته.

فالشجاعة الأخلاقية تحمل المسلم على قول الحق ، والصدق في كل المناسبات دون النظر إلى المصلحة الذاتية ، ودون الالتجاء إلى الكذب لتحصيل ما يريده الإنسان وما يناسبه ، وكذلك الأمانة تحتاج إلى هذه الشجاعة الأخلاقية لإعطاء كل ذي حق حقه ودفع رغبات النفس ومتطلباتها وشهواتها ، شعار المسلم دائماً:

(أما الحرام فالممات دونه).

فالمسلم عندما يكون في أشد الحاجة للمال ، ويجد مال الآخرين بين يديه ، ويستطيع المراوغة عليه وأكله بالحرام بكل سهولة ، المسلم هذا بحاجة إلى تلك الشجاعة الأخلاقية ، التي تدفعه لرد المال إلى أصحابه ، وعدم الاستماع إلى نداء نفسه وحاجته ، وهو راض مسرور بما فعل.

كذلك المسلم عندما يجد الحرام بين يديه ، وتعرض عليه الشهوات والمغريات من قبل النساء والفتيات ، هناك يحتاج إلى هذه الشجاعة الأخلاقية ، التي يصمد بها أمام تلك الرغبات مردداً قوله : ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾. [المائدة : ٢٨]

كذلك المسلم عند غضبه ، يحتاج إلى الشجاعة الأخلاقية ، فلا يتصرف فيما يغضب الله. روى أبو هريرة رضي الله عنه قول رسول الله ﷺ:

«ليس الشديد بالصرعة ، وإنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب». [متفق عليه]. ورواه ابن حبان في صحيحه بلفظ «ليس الشديد من غلب الناس إنما الشديد من غلب نفسه».

وجميع الأخلاق الإسلامية من صبر ووفاء وحياء وعفو وغير ذلك من الأخلاق ، كلها تحتاج إلى هذه الشجاعة والجرأة الأخلاقية التي تساعد على تطبيق هذه الأخلاق وعلى أكمل وجه وأحسن صورة.

هذه الشجاعة التي يجب أن يتربى عليها الناشئة لتعينهم على تطبيق الأخلاق الإسلامية كاملة تامة.

هذه الشجاعة التي تتولد من الإيمان بالله ، ومراقبته والخوف منه ، وحب طاعته والبعد عن معصيته ، ويقدر هذا الإيمان وعمقه ويقينه ، بقدر ما يمتلك المسلم القوة في ظهور هذه الشجاعة الأخلاقية فيه.

رابعاً ـ الشجاعة الأدبية

وهي الجهر بالحق ، وحرية القول مع الأدب في اللفظ والمنطق ، ودون

الخوف أو الخجل أو الجبن أو الهيبة من الآخرين، مهما علا شأنهم وارتفعت منزلتهم، ومهما كانت منزلة المتكلم أو سنه، ولقد كان رسول الله ﷺ يغرس هذه الشجاعة في قلوب أصحابه:

جاء رجل إلى النَّبي ﷺ، فأصابته رعدة، فقال النَّبي ﷺ له: «هوّن عليك، فإنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد».

ولقد كان السلف يعودون أبناءهم ويربونهم على هذه الشجاعة، وذلك بتحريرهم التام من ظاهرة الخجل، ومن بوادر الانكماش والانطوائية، وتعويدهم على الجرأة، وصحبتهم لحضور المجالس العامة، وزيارة الأصدقاء، وتشجيعهم على التحدث أمام الكبار، ودفع ذوي النباهة والفصاحة منهم لمخاطبة الخلفاء والأمراء، ثم استشارتهم في القضايا العامة والمسائل العلمية في مجمع من المفكرين والعلماء.

وهذا كله مما ينمي في الناشئة هذه الظاهرة وهذه الشجاعة والجرأة الأدبية، وتغرس في نفوسهم أنبل معاني الفهم والوعي، ويهيب بهم أن يندرجوا في مدارج الكمال وتكوين الشخصية، والنضج الفكري والاجتماعي.

والأمثلة على ذلك في تاريخنا كثيرة أقتطف منها ما يلي:

١ ـ روى مسلم عن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه:

أن رسول الله ﷺ أتي بشراب، فشرب منه وعن يمينه غلام، وعن يساره أشياخ (أي مسنين).

فقال للغلام: أتأذن لي أن أعطي هؤلاء؟

فقال الغلام: لا والله، لا أوثر بنصيبي منك أحداً.

من هذه القصة يجب أن يتعلم الناشئة المسلم الشجاعة والجرأة الأدبية في مجالس العلم وصحبة العلماء، فمع الأدب معهم يجب أن يكون شديد الحب لهم، بحيث لا يؤثر أحداً بنصيبه منهم من العلم والحب والقرب والمنفعة والعطاء.

٢ ـ روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما ـ وكان دون الحلم ـ أنه قال:

كان عمر رضي الله عنه يدخلني ـ أي في أيام خلافته ـ مع أشياخ بدر (أي في المشورة) فكأن بعضهم وجد في نفسه (أي غضب).

فقال: لِمَ يدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله؟

فقال عمر: إنه من حيث قد علمتم (ويقصد بذلك ما خصه النَّبي ﷺ بالدعاء له «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل»).

فدعاني ذات مرة، فأدخلني معهم، فما رأيت أنـه دعاني يومئذ إلا ليريهم.

قال: ما تقولون في قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾؟.
[النصر: ١].

فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا.

وسكت بعضهم فلم يقل شيئاً.

فقال لي: أكذلك تقول يا بن عباس؟.

فقلت: لا.

قال: فما تقول؟.

قلت: هو أجل رسول الله ﷺ، قال: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾
[النصر: ١]

وذلك علامة أجلك ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾.
[النصر: ٣]

فقال عمر رضي الله عنه: ما أعلم منها إلا ما تقول.

من هذه القصة يجب أن يتعلم الناشئة المسلم الشجاعة والجرأة الأدبية في مجالسة الآخرين ـ ولو كانوا أكبر سناً ـ وإبداء الرأي المناسب عن علم ويقين وفهم، فبذلك يرتفع شأنه ويعظم أمره في أعين الآخرين مهما علا شأنهم وارتفعت مكانتهم.

٣ ـ مر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه مرة في طريق من طرق المدينة وأطفال هناك يلعبون ، وفيهم عبد الله بن الزبير وهو طفل يلعب ، فهرب الأطفال هيبة من عمر ، ووقف ابن الزبير ساكناً لم يهرب .

فلما وصل إليه عمر قال له : لِمَ لَمْ تهرب مع الصبيان؟

فقال على الفور : لست جانياً فأفرّ منك ، وليس في الطريق ضيق فأوسع لك .

من هذه القصة يجب أن يتعلم الناشئة المسلم الشجاعة والجرأة الأدبية في مخاطبة الآخرين وخاصة ذوي الشأن منهم ، لأنه يثق بنفسه أنه لم يرتكب خطأً يخاف منه ، أو يفرّ من أجله وبذلك يعظم أمره في أعين الآخرين .

٤ ـ رأى عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ولداً له في يوم عيد ، وعليه ثوب خلق ـ أي قديم ـ فدمعت عيناه ، فرآه الولد فقال : ما يبكيك يا أمير المؤمنين؟

قال : يا بني أخشى أن ينكسر قلبك إذا رآك الصبيان بهذا الثوب الخلق؟!!

قال : يا أمير المؤمنين إنما ينكسر قلب من أعدمه الله رضاه ، أو عق أمه وأباه ، وإني لأرجو أن يكون الله تعالى راضياً عني برضاك .

من هذه القصة يجب أن يتعلم الناشئة المسلم الشجاعة والجرأة الأدبية في أن قيمة الإنسان ليست بمظهره الخارجي ، وإنما بحقيقته الداخلية ، فقيمته في الإسلام تقدر بمقدار رضاء الله عنه ، ومن رضاء الله رضاء الوالدين .

والناشئة المسلم لا يسعى وراء المظهر لإثبات شخصيته ، وإنما يسعى لرضاء الله وطاعته والعمل بأوامره والبعد عن نواهيه ، وهو لا يتأثر بما عند الآخرين من زخرف الدنيا وبهرجها ، لأنها امتحان من الله أولاً ، وهي ليست كل شيء ثانياً .

٥ ـ دخل على عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه في أول خلافته وفود المهنئين من كل جهة ، فتقدم من وفد الحجازيين للكلام غلام صغير لم يبلغ سنه أحدى عشرة سنة .

فقال له عمر: ارجع أنت، وليتقدم من هو أسن منك؟!

فقال الغلام: أيد الله أمير المؤمنين، المرء بأصغريه قلبه ولسانه، فإذا منح العبد لساناً لافظاً، وقلباً حافظاً، فقد استحق الكلام، ولو أن الأمر ـ يا أمير المؤمنين ـ بالسن لكان في الأمة من هو أحق منك بمجلسك هذا.

فتعجب عمر من كلامه وأنشد:

تعلم فليس لمرء يولد عالماً   وليس أخو علم كمن هو جاهل
وإن كبير القوم لا علم عنده   صغير إذا التفت عليه المحافل

من هذه القصة يجب أن يتعلم الناشئة المسلم الشجاعة والجرأة الأدبية في مخاطبة الآخرين مهما علا شأنهم وارتفعت منزلتهم وذلك بأدب وعقل وعلم وحكمة، فإن ذلك يرفع من شأنه ومكانته وقدره.

٦ ـ قحطت البادية في أيام (هشام بن عبد الملك)، فقدمت عليه العرب فهابوا أن يتكلموا وكان فيهم (درواس بن حبيب) وهو إذ ذاك صبي، فوقعت عليه عين هشام، فقال لحاجبه: ما يشاء أحد يدخل عليّ إلا دخل حتى الصبيان.

فقال الصبي: يا أمير المؤمنين، إنا أصابتنا سنون ثلاث:

سنة أذابت الشحم، وسنة أكلت اللحم، وسنة نَقَت العظم (أي أخرجت مخه)، وفي أيديكم فضول أموال، فإن كانت لله ففرقوها علىٰ عباده، وإن كانت لهم فعلامَ تحبسونها عنهم؟، وإن كانت لكم فتصدقوا بها عليهم، فإن الله يجزي المتصدقين ولا يضيع أجر المحسنين.

فقال هشام: ما ترك لنا هذا الغلام في واحدة من الثلاث عذراً، فأمر للبوادي بمئة دينار، وله بمائة ألف درهم.

فقال الصبي: اردها يا أمير المؤمنين إلى جائزة العرب، فإني أخاف أن تعجز عن بلوغ كفايتهم.

فقال هشام: أما لك حاجة؟

فقال الصبي: ما لي حاجة فيّ خاصة دون عامة المسلمين.

فخرج الصبي هو من أنبل القوم وأكرمهم.

من هذه القصة يجب أن يتعلم الناشئة المسلم الشجاعة والجرأة الأدبية في مخاطبة من لديهم الحل والربط إذا أتيح له الأمر، وذلك بما فيه صلاح الأمة وسعادتها، وبالأدب والحكمة وعرض الأمور بالمنطق والبيان مع الإخلاص لله وعدم الطمع في أمر شخصي.

عند ذلك يعظم أمره عند الآخرين، وتحقق دعواه ويحصل على ما يريد للنفع العام.

٧ ـ مما تناقلته كتب الأدب أن صبياً تكلم بين يدي المأمون فأحسن الجواب.

فقال له المأمون: ابن من أنت؟

فقال الصبي: ابن الأدب يا أمير المؤمنين.

فقال المأمون: نعم النسب وأنشد يقول:

كن ابن من شئت واكتسب أدباً يغنيك محموده عن النسب

إن الفتى من يقول: ها أنذا ليس الفتى من يقول: كان أبي

٨ ـ ودخل المأمون مرة بيت الديوان فرأى غلاماً صغيراً على أذنه قلم، فقال له: من أنت؟ قال: أنا الناشىء في دولتك، المتقلب في نعمتك، المؤمل لخدمتك، أنا الحسن بن رجاء.

فعجب المأمون من حسن إجابته، وقال: بالإحسان في البديهة تفاضلت العقول، ارفعوا هذا الغلام فوق مرتبته.

من هاتين القصتين الأخيرتين يجب أن يتعلم الناشئة المسلم أن الشجاعة والجرأة الأدبية في مخاطبة الآخرين تعلي من مكانة المتكلم وترفع منزلته وتحقق له أمنياته.

* * *

خامساً - شجاعة الرجوع إلى الحق

إنسان يقع في الباطل بقول أو عمل ، ثم يتبين له ذلك فيقف عن التمادي في الباطل ويعترف بخطئه ويرجع إلى الحق.

هذا الإنسان يحتاج إلى شجاعة وجرأة كبيرة ليقوم بذلك ، لأنه اضطر إلى أن يصارع نفسه وهواه ، ويصرعهما بقوة إرادته ، ولو كلفه ذلك قهر أنانيته وكبريائه وعزته وأنفته الآثمة.

إنه بصدق إيمانه وسمو خلقه يخضع للحق ، ويستجيب له ، ويرجع إليه متى استبان له وظهر. والرجوع إلى الحق يعلي من مكانة الإنسان في نظر الآخرين لأنه يحتاج إلى شجاعة يقدرها الناس ويحترمونها.

وشجاعة الرجوع إلى الحق شجاعة نفسية ، يجب أن يملكها المؤمن ويتربى عليها كل ناشئة مؤمن ، فهي فضيلة من الفضائل التي دعا إليها الإسلام وحث على الالتزام بها ، وعمل على تربية المسلمين عليها.

ومن التربية الإسلامية على الرجوع إلى الحق ، ما جاء في النصوص الدينية من توجيه أنه من حلف على شيء ثم رأى غيره خيراً منه ، أن يكفر عن يمينه ويأتي الذي هو خير.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال :

«من حلف على يمين فرأى خيراً منها ، فليكفر عن يمينه وليفعل».

[رواه مسلم]

عن عبد الرحمن بن سمرة رضي الله عنه أن الرسول ﷺ قال له :

«وإذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيراً منها فكفر عن يمينك وأتِ الذي هو خير». [رواه البخاري ومسلم]

ومن كلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين كتب إلى عبد الله بن قيس في آداب القضاء :

(لا يمنعك قضاء قضيته فراجعت فيه عقلك فهديتَ لرشدك أن ترجع إلى الحق ، فإن الرجوع إلى الحق خير من التمادي في الباطل) .

وهناك أمثلة كثيرة في التربية النبوية علىٰ شجاعة الرجوع إلىٰ الحق وأهمها :

ما كان من الرسول ﷺ في غزوة بدر ، إذ نزل في موقع ليس هو الأفضل في الخطة الحربية المثلى وأمر المسلمين بنزوله .

فقال له أحد أصحابه وهو الحباب بن المنذر بن الجموح :

يا رسول الله ، أرأيت هذا المنزل ، أمنزلاً أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه؟ أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟

قال رسول الله ﷺ : بل هو الرأي والحرب والمكيدة .

فقال الحباب : يا رسول الله ، فإن هذا ليس بمنزل ، فانهض بالناس حتى نأتي أدنى ماء من القوم فننزله ، ثم نغور ما وراءه من القلب (أي نغمر ما وراءه من منازل إلى ماء بدر) ، ثم نبني على الماء حوضاً فنملأه ماء ، ثم نقاتل القوم ، فنشرب ولا يشربون .

فرجع رسول الله ﷺ عن رأيه إلى رأي الحباب بن المنذر وقال له : لقد أشرت بالرأي ، ونهض سريعاً ، ونهض من معه من المسلمين ، وعمل برأي الحباب رجوعاً إلى ما هو أفضل ، ولم يجد حرجاً في نفسه أن يتراجع عن رأيه ويعمل برأي أحد أتباعه ﷺ ، وقد أعطى الرسول أصحابه في هذا درساً عملياً في فضلية الرجوع إلى الحق .

ومثال آخر ، ما كان من الرسول ﷺ في شأن ترك تأبير النخل للقاحها : وذلك أنه مرّ على طائفة من أصحابه في نخيلهم ، فرآهم يلقحون النخل لتنضج ثمارها ، فبدا له أن هذا اللقاح قد يحصل دون أن يفعله الناس ودون أن تتخذ له الأسباب المادية .

وربما كان صلوات الله عليه في تلك الحالة مستغرقاً في مشاهدة أفعال

الخالق التي لا تعوزها الأسباب ، فذكر لهم أنه لا يرى ضرورة لهذا التأبير ، إذ قال:

«لو لم تفعلوا لصلحت».

وظن أهل النخل أن هذا من الرسول ﷺ تعليم ديني واجب الاتباع ، فتركوا التأبير ، فلم تنضج ثمار النخل إذ فقدت لقاحها ، فعلم بذلك رسول الله ﷺ فقال لهم:

«أنتم أعلم بأمور دنياكم».

ورجع بذلك الرسول ﷺ عن رأيه ، لأنه كان من عنده ، ولم يكن تعليماً تشريعياً ، ولا علماً ربانياً أوحى الله به إليه ، وبذلك أعطانا درساً عظيماً في الرجوع إلى الحق وعدم التمادي في الباطل.

ولقد كان جميع الصحابة يمتلكون هذه الشجاعة أيضاً ، فسيدنا أبو بكر وعمر والصحابة الكرام الذين تركوا ما كانوا عليه من معتقدات تقليدية ، وذلك عندما طرح عليهم الرسول ﷺ الإسلام وهو دعوة الحق ، فرجعوا إلى الحق وتركوا ما كانوا عليه من الباطل.

ومن روائع رجوع سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى الحق ، ما جاء في أخباره أنه رأى ذات يوم وهو خليفة للمسلمين ، أن يصدر أمراً بتحديد المهور ليمنع المغالاة فيها ، ويسهل أمر الزواج ، ويخفف من أعباء تأسيس الأسرة ، حتى يقبل الشباب على الزواج ، فخطب في المسلمين ووجه للناس أمراً بما رآه ، وكان له فيه وجه من الاجتهاد سديد ، فقامت امرأة فقالت له: ليس ذلك لك يا عمر ، إن الله تعالى يقول:

﴿ وَءَاتَيۡتُمۡ إِحۡدَىٰهُنَّ قِنطَارٗا﴾. [النساء: ٢٠]

فقال عمر: امرأة خاصمت عمر فخصمته.

وفي رواية بلفظ: امرأة أصابت ورجل أخطأ.

ولولا أن سيدنا عمر رجاع إلى الحق الذي ينكشف له ، بما تربى عليه في

الإسلام لوجد تخريجات فقهية تبرر ما كان قد ذهب إليه ، ولكنه لم يفعل ولم يستكبر عن إعلان رجوعه إلى ما ظهر له من الحق ، ولم يجد في إعلانه خطأه على رؤوس الأشهاد أي حرج أو ضيق في نفسه ، وكل ذلك يحتاج إلى شجاعة الرجوع إلى الحق التي امتلكها سيدنا عمر من صحبته لرسول الله ﷺ ، حتى أن ابن عمر روى أن الرسول ﷺ قال:

«إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه». [رواه الترمذي]

وعن أبي ذر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«إن الله وضع الحق على لسان عمر يقول به». [رواه أبو داود]

ومن أمثلة الصحابة الذين امتلكوا شجاعة الرجوع إلى الحق أبو ذر الغفاري رضي الله عنه ، ومن قصص رجوعه إلى الحق ما روي أنه تغاضب ذات يوم مع بلال الحبشي مولى أبي بكر ، وتطور النزاع بينهما إلى أن أخذت الحدة أبا ذر فقال لبلال: يا ابن السوداء.

فشكاه بلال إلى النّبي ﷺ ، فقال رسول الله لأبي ذر:

«طفّ الكيل ، أتعيره بأمه؟ إنك امرؤ فيك جاهلية».

فندم أبو ذر لما كان منه ورجع إلى الحق وأعلن توبته ، حتى أنه أمر بلالاً أن يطأه على وجهه استرضاء له مما عيره به من سواد أمه.

هذه بعض الأمثلة على شجاعة الرجوع إلى الحق والأمثلة في ذلك كثيرة.

ويجب على كل ناشئة مؤمن ومؤمنة أن يعمل على اكتساب هذه الشجاعة في كل أموره من قول أو فعل فيجب عليه أن يراجع كل أقواله وتصرفاته مع الآخرين ، فما كان منها مخالفاً للشريعة والحق والحقيقة سارع بالرجوع عنه إلى الحق والاعتذار من الآخرين ولو أمام الملأ ، وبذلك يرضي ربه ويرضي قلبه وإيمانه ويرضي الناس عنه ويرتفع في نظرهم ولا يخسر شيئاً.

وأعلى مكانة لشجاعة الرجوع إلى الحق التوبة إلى الله.

فالمسلم الذي يرتكب ذنباً بحق الله وشرعه ، إنما وقع هذا المسلم في

الباطل والإثم والمعصية ، ولا بد له من الرجوع إلى الحق ، وذلك بالتوبة . والتوبة تحتاج إلى شجاعة وقوة إيمانية لمباشرة التوبة دون تأخيرها وضمن شروطها وأحكامها حتى تقبل من صاحبها .

قال الله تعالى :

﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ . [النساء : ١٧ ـ ١٨]

فتوبة المسلم تعني رجوعه إلى الحق من الباطل الذي كان عليه ، ولا بد للمسلم من الإسراع بالتوبة كلما وجد نفسه مبتعداً عن دين الله وأوامره ، مرتكباً ما نهاه الله عنه ، وهذه التوبة تحتاج إلى شجاعة ، هذه الشجاعة التي يستمدها المسلم من الإيمان بالله وحبه وطاعته ومراقبته والخوف منه .

* * *

الشجاعة فطرية ومكتسبة

الشجاعة كأكثر الأخلاق ، منها ما هو فطري جبلت عليه النفس منذ أول نشأتها ، فنرى الطفل يندفع هنا وهناك ويقوم بأعمال تدل على شجاعته وإقدامه وجرأته . كما أن الأطفال يختلفون فيما بينهم في هذه الشجاعة الفطرية أيضاً .

قال سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه :

الجرأة والجبن غرائز يضعها الله حيث يشاء ، فالجبان يفر عن أهله وولده ، والجريء يقاتل عمن لا يؤوب به إلى رحله .

قال أبو يعقوب الخريمي :

يفرّ جبان القوم عن عرس نفسه ⁂ ويحمي شجاع القوم من لا يناسبُه

كذلك الشجاعة يمكن أن تكون مكتسبة ، يستطيع الوالدان والمربون

والمجتمع أن ينمي هذه الشجاعة في نفوس الناشئة عبر طريق التربية والتدريب والتشجيع ووسائل متعددة أخرى منها :

أولاً ـ التدريب العملي بدفع الناشئة إلى المواقف المحرجة ، التي لا يتخلص منها ، إلا بأن يتشجع ، ويبذل جهداً مكتسباً يقوي عنده الشجاعة وينميها ، وكذلك بدفعه إلى مزاولة الرياضة البدنية كالوثب والتجديف وتسلق الجبال والقيام بالرحلات .

ثانياً ـ إقناع الناشئة بالحوار والملاحظة والمشاهدة أن معظم مثيرات الجبن لا تعدو أنها أوهام لا حقيقة لها ، وعدم الإصغاء إلى تلك الخرافات والأباطيل التي يقصها بعض الناس للتسلية ، وتشمل ذكر الشياطين والمردة وقطاع الطرق ، مما هو بعيد عن الحقيقة وتزرع في القلوب خوفاً لا يسهل اقتلاعه .

ثالثاً ـ إبراز القدوة الحسنة للناشئة ، وعرض مشاهد الشجعان ، وذكر قصصهم مع تمجيدهم والثناء عليهم ، ومنحهم المكافآت المغرية ، لإثارة عنصر المحاكاة ثم المتابعة مع المنافسة .

رابعاً ـ إثارة دوافع التنافس بين الناشئة ، ومكافأة الأشجع بعطاءات مادية مع الثناء والإطراء والتمجيد .

خامساً ـ ترسيخ عقيدة الإيمان بالقضاء والقدر في نفوس الناشئة ، وأن الإنسان لن يصيبه إلا ما كتب الله له ، وترسيخ عقيدة الإيمان باليوم الآخر .

الجبن ضد الشجاعة

الجبن هو أن لا يصبر الإنسان على مواجهة المواقف المخيفة أو مقارعتها أو تحمل آلامها لذلك يجد سبيله إلى الفرار إن استطاع إليه سبيلاً ، أو تنقطع عزائمه ، وتنهار قوته ، فلا تثبت أقدامه .

والجبن حالة نفسية تبعده عن مواجهة المواقف بشجاعة وإقدام ، بل تجعله في حالة خوف من هذا الواقع وهروب منه واختفاء عنه ، وإذا ما أجبر على المواجهة استسلم مهزوماً مصفر الوجه مرتعش الفؤاد والأوصال .

وأكثر عوامل الجبن في الأنفس ترجع إلى حرص الإنسان على الحياة ، وكلما كان الإنسان أشد حرصاً على الحياة كان أشد جبناً وضعفاً وخوراً كما وصف الله عز وجل اليهود :

﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ ﴾ . [البقرة : ٩٦]

والحرص على الحياة يورث الجبن في القلوب :

قال الله تعالى في وصف اليهود :

﴿ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴾ . [الحشر : ١٣ ـ ١٤]

وهناك عوامل أخرى للجبن كالأوهام والعقد النفسية التي تنشأ من تخويف الأم وليدها بالأشباح أو الظلام أو المخلوقات الغريبة ، أو تنشأ من تربية الولد على العزلة والانطوائية والاحتماء بجدران المنزل وعدم السماح له بالاختلاط بالآخرين أو التعبير عن رأيه للآخرين ومحادثتهم ومناقشتهم .

ومن أهم عوامل الجبن الشعور بالنقص وهو حالة نفسية تعتري بعض الأطفال لأسباب خلقية ومرضية ، أو عوامل تربوية ، أو ظروف اقتصادية .

وهذه الظاهرة هي من أخطر الظواهر النفسية في تعقيد الولد وانحرافه وتحوله إلى حياة الرذيلة والشقاء والإجرام .

والعوامل التي تسبب ظاهرة الشعور بالنقص في حياة الطفل كثيرة منها :

التحقير والإهانة ، الدلال المفرط ، المفاضلة بين الأولاد ، العاهات الجسدية ، اليتم ، الفقر . . .

* * *

واجبات الوالدين والمربين

الوالدان والمربون مطالبون بإحياء هذه الفضيلة في نفوس الأطفال والناشئة ، وذلك بأساليب متنوعة وكثيرة منها :

١ ـ تلقينهم مغازي رسول الله ﷺ ومواقف السلف البطولية ، وتأديبهم على التخلق بأخلاق العظماء من القواد والفاتحين والصحابة والتابعين ليتطبعوا على الشجاعة الفائقة ، والبطولة النادرة .

قال سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه في هذا المعنى :

(كنا نعلم أولادنا مغازي رسول الله ﷺ كما نعلمهم السورة من القرآن) .

٢ ـ أن يعلموهم أنواع الشجاعة ويهيئوا لهم أسباب تعلمها ، ويشجعوهم على كل نوع منها بالثناء والمدح والمكافأة والمنافسة ويهيئوا لهم المناسبات لإظهار هذه الشجاعة بكل أنواعها ويدلوا عليها ويكافئوا أصحابها ويشجعوا الباقي للاتصاف بها .

٣ ـ أن يأخذوا أولادهم باللين ويعودوهم الكلام ، ويبيحوا لهم غشيان مجالسهم ومحادثة من هم أكبر منهم سناً ، ومجالستهم وسماع أحاديثهم ، والتشبه بهم في أقوالهم وأفعالهم ، واستطلاع رأيهم فيما يتعلق بهم وردهم إلى الصواب بالحجة والموعظة الحسنة .

٤ ـ أن يبعدوهم عن كل أسباب الخوف والجبن ، وأن لا يخوفوهم بالأشباح أو الظلام أو المخلوقات الغريبة (كالغول والضبع والحرامي والجني والعفريت . . .) .

ليتحرر الولد من شبح الخوف وينشأ على الشجاعة والإقدام .

ومما ينصح به علماء النفس والتربية:

(ولابأس بأن تجعل الطفل أكثر تعرفاً للشيء الذي يخيفه ، فإذا كان يخاف الظلام فلابأس بأن تداعبه بإطفاء النور ثم إشعاله ، وإن كان يخاف الماء فلابأس بأن نسمح له بأن يلعب بقليل من الماء في إناء صغير أو ما شابه ، وإن كان يخاف من آلة كهربائية مثلاً فلابأس بأن نعطيه بعض أجزائها ليلعب بها ثم نسمح له بأن يلعب بها كاملة وهكذا).

٥ ـ أن يسعوا على إزالة أسباب الشعور بالنقص عند الأطفال والناشئة والتي ذكرنا عواملها وهي (التحقير والإهانة والدلال المفرط والمفاضلة بين الأولاد والعاهات الجسدية واليتم والفقر). وذلك بالطرق الصحيحة والأساليب الحكيمة واتباع السنة الشريفة التي عالجت كل واحدة على حدة معالجة كاملة شافية تامة.

* * *

العبرة والتطبيق:

أيها الناشئة [المؤمن والمؤمنة]:

بعد اطلاعك على خلق الشجاعة وأنواعه وما يتعلق به، وبعد علمك بضرورة التخلق. بهذا الخلق الفاضل لأهميته الكبرى في هذه الحياة عليك أن تسعى إلى تحقيق ما يلي:

١ ـ دراسة شخصيتك دراسة تامة ومعرفة ما ينفعها من أنواع الشجاعة وأصنافها والعمل على تقوية شخصيتك بالسعي وراء الشجاعة وما يتعلق بها والاتصاف بكل أنواعها وذلك بالعمل بأساليب تقوية الشجاعة بكل أنواعها حتى تتكامل شخصيتك الإسلامية باتصافها بالشجاعة بكل أنواعها.

٢ ـ مارس الرياضة بكل أنواعها، ليقوى جسمك وتقوى عزيمتك وتنشط روحك وتبعد عنك الكسل والخمول والضعف والتردد، وحتى تستطيع الدفاع عن نفسك وعرضك ومالك ووطنك إن اعتدى عليك معتد غاشم ظالم، لا يخاف الله عز وجل، ولا يأبه للقيم الإنسانية العليا.

٣ ـ قوِّ إيمانك بالله ومحبتك له وشعورك به ومراقبتك له، وذلك بقراءة القرآن، وذكر الله على كل حال، ومجالسة العلماء والصالحين العاملين، حتى تمتلك الشجاعة الإيمانية والشجاعة الأخلاقية، التي تساعدك في حفظ إيمانك وأخلاقك مدى حياتك، وعلى أكمل وجه وأحسن صورة.

٤ ـ جالس أهل العلم والصلاح، وتعلم منهم الجرأة والشجاعة الأدبية، وقول الحق والحقيقة، لتكون بذلك مؤمناً حقاً.

٥ ـ درب نفسك وهذبها، لتتصف بصفة شجاعة الرجوع إلى الحق، ومهما كان الحق مرّاً، فالحق أحق بأن يتبع.

٦ ـ امتلك هذا الخلق بكل أنواعه ، وعلى أحسن وجه وبكل الوسائل لتكون قدوة صالحة للآخرين في هذا الخلق ، فيضربوا بك المثل ، ويسعوا لتقليدك ، وبذلك يفخر بك والداك وأهلك وأصدقاؤك ، وبذلك تنال رضاء الله عز وجل في الدنيا والآخرة.

٧ ـ إن وجدت في نفسك عاملاً من عوامل الخوف والجبن ، فحاول إزالته والتخلص منه بكل الوسائل ، كي لا تكون متصفاً بإحدى صفات النقص وضعف الشخصية ، فأنت مسلم ، والمسلم قوي شجاع ، بعيد عن صفات الضعف والنقص.

٨ ـ ساعد إخوتك وأصدقاءك في امتلاك صفة الشجاعة بأنواعها ، والتخلص من صفات الجبن والخوف والضعف وذلك باتباع الوسائل المتعددة في تحقيق ذلك فأنت مسلم ، ومن صفات المسلم مساعدة الآخرين والرفع من شأنهم ، وإبعادهم عن كل نقص فيهم ، وهذا من حق الأخ على أخيه.

٩ ـ حاول مناقشة من يكون قريباً منك من الآباء والأمهات والمربين في طرق تربيتهم لأبنائهم ، وشرح الطرق الصحيحة في التربية ، وخاصة التربية على خلق الشجاعة بأنواعها ، وتبيان ضرورة البعد عن الطرق السلبية التي تسبب الخوف والجبن والضعف عند الآخرين.

١٠ ـ ادع إلى هذا الخلق الفاضل بكل أنواعه وشجع إخوتك وأصدقاءك عليه بكل أنواع التشجيع ، ليبرز هذا الخلق فيهم ويكون لك الثواب من الله عز وجل على ذلك.

* * *

خُلُقُ الاعتِدَالِ

٧

معنى الاعتدال وأهميته :

خلق الاعتدال خلق إسلامي ، وهو خلق لم يذكر كثيراً في كتب الأخلاق ، بل ذكر في أمهات الكتب بين ثنايا مواضيع متعددة ، وهو خلق هام وضروري لكل مسلم ، وخاصة في زماننا الحاضر. والاعتدال والتوسط والاقتصاد والاستقامة والتوازن مفردات لمعنى واحد ، هو عدم المغالاة في جميع الأمور الدينية أو الدنيوية ، نحو التشدد فيها أو التفريط ، بل السير بها بالاعتدال والتوسط كما أمرت الشريعة والسنة النبوية .

والاعتدال والتوسط خلق هام من أخلاق الإسلام ذكر في القرآن والحديث الشريف ، وظهر في أخلاق النَّبي ﷺ والصحابة الكرام والتابعين والعلماء الصالحين والمؤمنين الصادقين في كل زمان ومكان .

والاعتدال : ألا يقف المرء عند حد اليسير من الخير ، بل يطمح إلى إدراك ما تصبو إليه النفوس الكاملة ، مما يستطيع الوصول إليه ، دون إفراط أو تفريط ، ومن مظاهرها التمادي في طلب الخير ، والاستزادة منه ما دام قادراً على نيله ، والاكتفاء بما نال ، متى بلغ حد العجز ، واجتناب المجازفة والمخاطرة وبذل الجهود قدر الطاقة .

والاعتدال يدل على التوسط ، من الوسط ، وأوسط الشيء ووسطه أعدله وأفضله وأخيره .

ولهذا قال العرب في حكمهم : خير الأمور الوسط .

وقال أرسطو : الفضيلة وسط بين رذيلتين .

ومن هنا قال ابن كثير في قوله (أمة وسطاً): الوسط هٰهنا الخيار والأجود، كما يقال: قريش وسط العرب نسباً وداراً، أي خيرها، وكان رسول الله ﷺ وسطاً في قومه، أي أشرفهم نسباً، ومنه الصلاة الوسطى التي هي أفضل الصلوات.

قال أعرابي للحسن: يا أبا سعيد علمني ديناً وَسُوطاً، لا ذاهباً فروطاً، ولا ساقطاً سقوطاً، فقال له الحسن: أحسنت. خير الأمور أوسطها.

والوسط يفيد معنى البعد عن الإفراط والتفريط، والزيادة على المطلوب في الأمر إفراط والنقص عنه تفريط، وكل من الإفراط والتفريط ميل عن الجادة القويمة، فهو شر ومذموم والخيار هو الوسط بين طرفي الأمر أي المتوسط بينهما.

ولذلك يقول القرطبي: (لما كان الوسط مجانباً للغلو والتقصير، كان محموداً). ولما كانت الوسطية تفيد معنى الخيرية والعدالة قال الشاعر زهير يمدح قوماً:

هم وسط يرضى الأنام بحكمهم   إذا نزلت إحدى الليالي بمعظم

وقال أحد الشعراء:

عليك بأوساط الأمور فإنها   نجاة ولا تركب ذلولاً ولا صعباً

وقال آخر:

حب التناهي غلط   خير الأمور الوسط

الاعتدال والتوسط في القرآن الكريم:

أبين آية في هذا الموضوع قوله تعالى:

﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ حَسَنَةٗ وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾.

[البقرة: ٢٠١]

وقوله تعالى:

﴿ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا وَحُسۡنَ ثَوَابِ ٱلۡأٓخِرَةِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾.

[آل عمران: ١٤٨]

فالله يريد للناس حسنيي الدارين وذلك بالاعتدال والتوازن بين متطلبات الدنيا ومتطلبات الآخرة دون إفراط أو تفريط.

وقد وردت مادة وسط في القرآن الكريم عدة مرات، ولم تذكر إلا في موضع المدح والتقدير، ونفهم من حديث القرآن عن المادة، أن التوسط فضيلة من فضائل الإسلام وخلق من أخلاق القرآن منها:

أولاً ـ قال الله عز وجل:

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾. [البقرة: ١٤٣]

فالصبغة الأساسية الجليلة التي أرادها الله تبارك وتعالى للأمة المؤمنة أن جعلها أمة وسطاً.

وقوله: ﴿ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾. [البقرة: ١٤٣]

أي جعلناكم أخياراً عدولاً، وجعلناكم دون الأنبياء وفوق الأمم ما دمتم مهتدين بهدىٰ الله عاملين بدينه، وأحمد الأشياء أوسطها وأعدلها.

وقوله: ﴿ لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾. [البقرة: ١٤٣]

أي تشهدوا في المحشر للأنبياء على أممهم أن الأنبياء بلغوا الرسالة وأدوا الأمانة.

وفي حديث عن أبي سعيد الخدري:

«يدعى نوح عليه السلام يوم القيامة فيقول: لبيك وسعديك يا رب فيقول: هل بلغت؟ فيقول: نعم، فيقال لأمته هل بلغكم؟ فيقولون: ما أتانا من نذير.

فيقول: من شهد لك؟ فيقول: محمد وأمته، فيشهدون أنه قد بلغ ﴿ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة: ١٤٣] فذلك قول الله عز وجل: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾.

[البقرة: ١٤٣]» [رواه البخاري]

وقد روى الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري: أن النَّبي ﷺ فسر الوسط هنا بالعدل.

والعدل والتوسط والتوازن كلمات متقاربة بالمعنى.

فالعدل في الحقيقة توسط بين الطرفين المتنازعين، أو الأطراف المتنازعة دون ميل أو تحيز إلى أحدهما أو أحدها.

وهو بعبارة أخرى موازنة بين هذه الأطراف، بحيث نعطي كلاً منها حقه دون بخس ولا جور عليه، وقد صور صاحب تفسير المنار كيف أقبلت الأمة الإسلامية «فجعلها الله تبارك وتعالى وسطاً بدينها وعملها به وتمسكها بأخلاقه وحرصها على تعاليمه، بعد أن سبقها صنفان من الناس، أحدهما أفرط والآخر فرّط، وذلك أن الناس كانوا قبل ظهور الإسلام على قسمين: قسم تقضي عليه تقاليده بالمادية المحضة، فلا همَّ له إلا الحظوظ الجسدية كاليهود والمشركين، وقسم تحكم عليه تقاليده بالروحانية الخالصة، وهجر الدنيا وترك ما فيها من اللذات الجسمية كالنصارى والصابئين وطوائف من الوثنيين في الهند أصحاب الرياضات.

وأما الأمة الإسلامية فقد جمع الله في دينها بين الحقين: حق الروح وحق البدن، فهي أمة مادية روحية، فقد أعطاها دينها جميع حقوق الإنسانية لأن الإنسان جسم وروح فكأن الآية الكريمة تقول: جعلناكم أمة وسطاً تعرفون الحقين، وتبلغون الكمالين لتكونوا شهداء بالحق على الناس الماديين فيما فرطوا في جنب الدين، والروحانيين بما أفرطوا وكانوا من الغالين، تشهدون على المفرطين بالتعطيل القائلين:

﴿ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ﴾. [الجاثية: ٢٤]

﴿ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾. [الأنعام: ٢٩]

بأنهم أخلدوا إلى البهيمة وقضوا على استعدادهم بالحرمان من المزايا الروحية وتشهدون على المفرطين بالغلو في الدين القائلين: إن هذا الوجود حبس للأرواح، وعقوبة لها فعلينا أن نتخلص منه بالتخلي عن جميع اللذات

الجسمانية ، وبتعذيب الجسد ، تشهدون عليهم بأنهم خرجوا عن طريق الاعتدال ، وجنوا على أرواحهم بجنايتهم على أجسادهم وقواها الحيوية ، تشهدون على هؤلاء وهؤلاء ، وتسبقون الأمم كلها باعتدالكم وتوسطكم بالأمور كلها ، لأن الإسلام الذي هداكم الله إليه وحباكم به فيه الكمال الإنساني .

ثانياً ـ قال الله تعالى :

﴿ حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴾ . [البقرة : ٢٣٨]

قال العلماء : إنها سميت الوسطى لأنها أفضل الصلاة وأعظمها أجراً ، فلذلك خُصت بطلب المحافظة عليها ، وقد تكاثرت أقوال المفسرين في المراد بالصلاة الوسطى ، حتى شملت هذه الأقوال كل الصلوات وأيد كل مفسر قوله بدليل .

وكلمة الوسطى تحتمل أن يكون المراد بالصلاة الوسطى الصلاة المتوسطة المعتدلة التي لا نقصان فيها ولا إفراط .

ثالثاً ـ قال الله تعالى :

﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴾ . [القلم : ٢٨]

وأوسطهم أي خيرهم وأعدلهم رأياً وأمثلهم طريقة وأسرعهم رجعة إلى الله عز وجل .

يؤكد هذا الإمام الرازي في تفسيره بقوله : إن أعدل بقاع الشيء وسطه ، لأن حكمه مع سائر أطرافه على سواء وعلى اعتدال .

الاعتدال والتوسط في السنة النبوية :

جاءت السنة النبوية تؤكد هذاالمعنى وتؤيده ، فالحديث الشريف يقول :

«خير الأعمال أوسطها» . [رواه الديلمي عن ابن عباس مرفوعاً]

وقد قال رسول الله ﷺ دالاً على التوسط مرشداً إلى الاعتدال :

«ليس بخيركم من ترك دنياه لآخرته ولا آخرته لدنياه حتى يصيب منهما

جميعاً ، فإن الدنيا بلاغ إلى الآخرة ، ولا تكونوا كلاًّ على الناس» .

[رواه ابن عساكر والديلمي عن أنس رضي الله عنه]

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«قاربوا وسددوا واعلموا أنه لا ينجو أحد منكم بعمله ، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل» .

[رواه مسلم]

والمقاربة: القصد الذي لا غلو فيه ولا تقصير .

والسداد: الاستقامة والإصابة .

وجاء في الحديث:

«إذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فإنه سر الجنة وأعلى الجنة» .

[رواه الطبراني]

وكان من دعائه ﷺ:

«اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري ، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي ، وأصلح لي آخرتي التي إليها معادي ، واجعل الحياة زيادة لي في كل خير ، واجعل الموت راحة لي من كل شر» . [رواه مسلم]

فهذا الدعاء النبوي المأثور يبين موقف المسلم من الدين والدنيا والآخرة ، إنه يطلبها جميعاً باعتدال ويسأل الله أن يصلحها له جميعاً ، الدين والدنيا والآخرة إذ لا غنى له عن واحدة منها:

فالدين عصمة أمره وملاك حياته ، والدنيا فيها معاشه ومتاعه إلى حين ، والآخرة إليها معاده ومصيره .

الاعتدال والتوسط عند السلف:

قال سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

(أيها الناس قد سنت لكم السنن وفرضت لكم الفرائض ، وتركتم على الواضحة إلا أن تميلوا بالناس يميناً وشمالاً) .

فسيدنا عمر رضي الله عنه ينبه الناس أن يتمسكوا بالاعتدال ، ولا يميلوا يميناً وشمالاً ، فإذا تجنب الإنسان الميل يميناً أو شمالاً فقد توسط واعتدل .

قال الإمام علي كرم الله وجهه :

(عليكم بالنمط الأوسط فإليه ينزل العالي وإليه يرتفع النازل) .

والنمط هو الطريق .

ويقول أيضاً :

(خير هذه الأمة النمط الأوسط يرجع إليهم العالي ، ويلحق بهم التالي) .

قال القائد الفاتح عمرو بن العاص رضي الله عنه :

(اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً) .

قال مطرف لابنه :

يا بني الحسنة بين السيئتين ـ يعني بين الإفراط والتفريط ـ وخير الأمور أوساطها ، وشر السير الحقحقة .

والحقحقة هي أشد السير وأتعبه للظهر .

وقال أبو المعتمد السُّلمي :

(الناس ثلاثة أصناف : أغنياء وفقراء وأوساط ، فالفقراء موتى إلا من أغناه الله بعز القناعة ، والأغنياء سكارى إلا من عصمه الله بتوقع الغِيَرَ ، وأكثر الخير مع أكثر الأوساط ، وأكثر الشر مع الفقراء ، والأغنياء لسخف الفقر وبطر الغنى) .

قال الإمام ابن القيم :

(وصاحب الخلق الوسط مهيب محبوب ، عزيز جانبه حبيب لقاؤه ، وفي صفة نبينا ﷺ : من رآه بديهة هابه ، ومن خالطه عشرة أحبه) .

قال بعض الحكماء للإسكندر :

(أيها الملك عليك بالاعتدال في كل الأمور فإن الزيادة عيب والنقصان عجز).

وقال بعض الأدباء:

(أحسن الأعمال أن تأتي بها على حال الكمال من غير زيادة فيها ولا نقصان، فهي أوسط الأحوال وأعدلها، لأنه لم يكن تقصير فتندم، ولا تكثير فتعجز).

وقال آخر:

(إياك ومفارقة الاعتدال فإن المسرف مثل المقصر في الخروج على الحد).

قال بعض العلماء:

(إن العدل مأخوذ من الاعتدال من جاوز الاعتدال فهو خروج عن العدل، فلست تجد فساداً إلا وسببه الخروج من حال العدل إلى ما ليس بعدل من حالتي الزيادة والنقصان).

وقال بعض العقلاء:

(أحسن الأحوال حال يغبطك بها من دونك، ولا يحقرك معها من فوقك).

قال أحد الحكماء داعياً إلى فضيلة التوسط والاعتدال:

لا تذهبن في الأمور فرطا
لا تسألن إن سألت شططا
وكن من الناس جميعاً وسطا

الاستقامة معنى من معاني الاعتدال:

لأن الاستقامة ضد الاعوجاج، سير على الطريق الوسط دون انحراف نحو اليمين أو اليسار، أي باعتدال، والطريق الوسط في هذه الحياة إنما هو الإسلام، فكلمة الاستقامة تفيد كما قال لسان العرب: معنى الاعتدال والاستواء، يقال: استقام له الأمر أي اعتدل.

عن جابر رضي الله عنه قال:

كنا جلوساً عند النّبي ﷺ ، فخط بيده في الأرض خطاً فقال :

«هذا سبيل الله» ، وخط خطين عن يمينه وخطين عن شماله وقال :

«هذه سبل الشيطان» ثم وضع يده في الخط الأوسط ثم تلا هذه الآية :

﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ . [الأنعام : ١٥٣]. [رواه الإمام أحمد في مسنده]

من هنا علم الإسلام المسلم ، أن يسأل الله الهداية للصراط المستقيم كل يوم ما لا يقل عن سبع عشرة مرة ، هي عدد ركعات الصلوات الخمس المفروضة في اليوم والليلة ، وذلك حين يقرأ فاتحة الكتاب في صلاته فيقول داعياً ربه ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ . [الفاتحة : ٦ ـ ٧]

فالاستقامة جميلة المبنى ، جليلة المعنى ، قليلة العبارة ، كثيرة الإشارة ، من تحلى بها فهو السعيد الموفق ، ومن تخلى عنها فهو الشقي المخذول المحروم ، من عرف بها عظمت بين الناس حرمته ، وعلت فيهم درجته ، وحسنت سيرته ، ووجبت محبته ، ودامت بينهم مودته ، وتبوأ في قلوبهم منزلة يغبط عليها وربح من نفوسهم مكانة تصبو إليها نفوس ذوي الهمة والفضل في كل أمة ، وكان مقبولاً لدى الله والناس أجمعين ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

فالاستقامة درجة بها كمال الأمور وتمامها وبوجودها حصول الخيرات ونظامها ومن خلا منها وتجرد من ثيابها ضل سعيه وخاب جده .

قال أحد العلماء من السلف :

(الاستقامة توبة بلا إصرار ، وعمل بلا فتور ، وإخلاص بلا التفات ، ويقين بلا تردد) .

وقال آخر :

(الاستقامة اتباع الحق ، والقيام بالعدل ، ولزوم المنهج القويم) .

من أجل ذلك قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾. [هود: ١١٢]

ما نزل على رسول الله ﷺ في جميع القرآن آية كانت أشد ولا أشق عليه من هذه الآية.

والاستقامة تكون بحسب المعرفة، فمن كملت معرفته بمولاه عظم عنده أمره ونهيه، فإذا سمع (كما أمرت) علم أنه مطالب باستقامة تليق بمعرفته بعظمة سيده وجلال مولاه.

وقال العلماء: معنى الاستقامة لزوم طاعة الله تعالى.

والقول الجامع للمقصود بالاستقامة، هو المتابعة بالطريقة المحمدية، مع التخلق بالأخلاق المرضية، لا نسير مع الهوى والابتداع؛ فإن السير مع الهوى يعمي عين القلب، فلا يميز بين السنة والبدعة، ولا يفرق بين الخير والشر، بل ينكسه ويعكسه، فيرى البدعة سنة والسنة بدعة والضلالة هداية والهداية ضلالة.

﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾. [القصص: ٥٠]

وللاستقامة ثلاثة مدارج:

١ ـ التقويم من حيث تأديب النفس، بإصلاح الجوارح وتعديل أعمالها بميزان الخوف والرجاء، حتى تعتاد الخير، وتستقيم على عمل البر والطاعة.

٢ ـ الإقامة: يكون من جهة تأديب النفس، وتطهير القلب من الأخلاق السيئة، والآفات الذميمة، كالحقد والحسد والكبر والعجب والنفاق والرياء.

٣ ـ الاستقامة: وذلك بأن تكون أعمال العبد كلها موزونة بميزان الشرع الشريف؛ من غير تكلف تقويم ولا إقامة.

فالأول تمحيص والثاني تحقيق والثالث توفيق.

ولقد حث الله عز وجل عباده على الاستقامة ورغبهم بها وبين لهم منزلتهم العظيمة في الدنيا والآخرة. إن هم أخذوا بها.

قال الله تعالى:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴾. [فصلت: ٣٠ ـ ٣٢]

وقال تعالى:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾. [الأحقاف: ١٣ ـ ١٤]

وقال تعالى:

﴿ وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا ﴾. [الجن: ١٦]

وقال تعالى:

﴿ أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾.

[الملك: ٢٢]

وكذلك نجد أن رسول الله ﷺ تحدث عن الاستقامة ودعا إليها وبين أهميتها:

عن سفيان بن عبد الله الثقفي رضي الله عنه قال:

(قلت يا رسول الله: قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً غيرك).

قال: «قل آمنت بالله ثم استقم». [رواه مسلم وغيره]

وكلمة استقم في القرآن والحديث كلمة جامعة تشمل العقيدة والعمل والقول والسلوك.

ضروب الاعتدال:

ضروب الاعتدال وأنواعه كثيرة حيث إن الاعتدال مطلوب في كل الأمور والأحوال ولكن من أهم ضروب الاعتدال ما يلي:

أولاً: الاعتدال في العبادة

المسلم الحق يطبق ما جاء به الإسلام باعتدال واتزان ، من غير إفراط ولا تفريط ، فلا يوغل في جانب ويهمل جانباً.

ولا ينصرف إلى جانب روحي مهلاً جانب الجسد ، ولا يفعل العكس: فلا يلزم العبادة أو المسجد مثلاً تاركاً جانب العمل للحياة ، من كسب الرزق على أكمل وجه وأحسن حال.

ولا ينصرف إلى عمله الفردي كل الانصراف ، مهملاً العمل الاجتماعي الذي يعود على المجتمع نفعه ، فهو ابن الدنيا وابن الدين.

متعبد بالليل فارس بالنهار ، زاهد في الدنيا بقلبه ، عامل لها بقالبه.

لا تشغله دنيا عن دين ، ولا روح عن جسد ، ولا عمل فردي عن عمل جماعي.

وقِسْ على ذلك سائر جوانب الحياة.

والإسلام يكلف المسلم أداء شعائر محدودة في اليوم كالصلاة ، أو السنة كالصوم ، أو في العمرِ مرة كالحج ، ليظل دائماً موصولاً بالله غير مقطوع عن رضاه ، ثم يطلقه بعد ذلك ساعياً منتجاً ، يمشي في مناكب الأرض ويأكل من رزق الله.

ولعل أوضح دليل نذكره هنا هو الآيات الآمرة بصلاة الجمعة:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝٩ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾. [الجمعة: ٩ ـ ١٠]

فهذا هو شأن المسلم مع الدين والحياة حتى في يوم الجمعة: بيع وعمل للدنيا قبل الصلاة ، ثم سعي إلى ذكر الله وإلى الصلاة ، وترك للبيع والشراء وما أشبه من مشاغل الحياة ، ثم انتشار في الأرض وابتغاء للرزق من جديد ،

بعد انقضاء الصلاة مع عدم الغفلة عن ذكر الله كثيراً في كل حال فهو أساس الفلاح والنجاح.

وقد كانت تعاليم الرسول ﷺ واضحة في خلق الاعتدال والقصد.

عن أنس بن مالك قال:

جاء ثلاثةُ رَهْط إلى بيوتِ أزواج النَّبي ﷺ يسألونَ عن عبادةِ النبي ﷺ، فلما أُخبروا كأنهم تَقَالُّوها، فقالوا: وأين نحن من النَّبي ﷺ وقد غفر له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخَّر.

قال أحدهم: أما أنا فأصلي الليل أبداً، وقال آخرُ: وأنا أصومُ الدهرَ ولا أُفطِر وقال آخر: أنا أعتزِل النساءَ فلا أتزوج أبداً.

فجاء رسول اللهِ ﷺ فقال:

«أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟

أما والله إني لأَخشَاكم لله، وأتقاكُم له، لكنّي أصومُ وأفطِرُ، وأُصَلِّي وأَرْقُدُ وأتزوَّجُ النِسَاءَ، فمن رَغِبَ عن سُنَّتي فليس مني». [متفق عليه]

فالاعتدال إذاً سنة من سنن رسول اللهِ ﷺ التي دعا إليها أصحابه وأمرهم بها. عن عائشة رضي الله عنها أن النَّبي ﷺ دخل عليها وعندها امرأة، قال: من هذه؟ قالت: هذه فلانة تذكرُ من صَلاتها.

قال: «مَهْ عليكم بما تطيقون فواللهِ لا يَمَلُّ اللهُ حتى تَملُّوا. وكان أحب الدين إليه ما داوم صاحبه عليه». [متفق عليه]

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النَّبي ﷺ قال:

«إن الدين يُسرٌ، ولن يُشَادَّ الدين أحد إلا غَلَبه، فسددوا وقاربوا وأبشروا واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدُّلجة». [رواه البخاري]

وفي رواية له:

«سدِّدوا وقاربوا واغدوا وروحوا وشيء من الدلجة القَصْدَ القَصْدَ تبلُغُوا».

الغدوة: سير أول النهار. والروحة: آخر النهار. والدلجة آخر الليل وهذا استعارة وتمثيل.

ومعناه: استعينوا على طاعة الله عز وجل بالأعمال في وقت نشاطكم وفراغ قلوبكم، بحيث تستلذون العبادة، ولا تسأمون وتبلغون مقصودكم. كما أن المسافر الحاذق يسير في هذه الأوقات، ويستريح هو ودابته في غيرها فيصل المقصود بغير تعب.

وقد نفذتْ أوامره ﷺ بالاعتدال والقصد في كل شيء إلى قلوب أصحابه. وأدركوا مقصد أستاذهم الأعظم، فجعلوا يعلِّموها بعضهم بعضاً.

عن أبي جحيفة وهب بن عبد الله رضي الله عنه قال:

(آخى النَّبي ﷺ بين سلمان وأبي الدرداء، فزار سلمان أبا الدرداء فرأى أم الدرداء مبتذلة فقال لها: ما شأنك؟

قالت: أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة في الدنيا.

فجاء أبو الدرداء، فَصَنَعَ له طَعَاماً، فقال: كُلْ فإنِّي صَائِمٌ.

قال: ما أنا بآكِلٍ حتى تَأْكُلَ فلمّا كان الليلُ ذهب أبو الدرداء يقوم، فقال: نم، فنام، ثم ذَهَبَ يقومُ فقال: نَمْ، فلما كان آخرُ الليل قال سلمان: قم الآن، فصلَّيَا: فقال له سلمان: إن لربك عليك حقاً ولنفسك عليك حقاً ولأهلِكَ عليك حقاً، فأَعْطِ كلَّ ذي حقٍ حقَه، فأتى النَّبي ﷺ فذكَر ذلك له، فقال: النَّبي ﷺ: «صدق سلمان». [رواه البخاري]

عن أنس رضي الله عنه قال:

دخل النَّبي ﷺ المسجد فإذا حبل ممدود بين الساريتين، فقال: ما هذا الحبل؟ قالوا: هذا حبل لزينب فإذا فترت تعلقت به.

فقال النَّبي ﷺ: «حُلُّوه، ليُصَل أحدُكم نشاطَهُ فإذا فتر فليَرْقُدْ». [متفق عليه]

وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال:

«إذا نَعس أحدُكم وهو يصلي فليَرْقُـدْ حتى يذهَبَ عنه النومُ ، فإنَّ أحدكم إذا صلى وهو ناعِسٌ ، لا يدري لعلَّه يذهب يستَغفِر ، فيسُبُّ نَفْسَهُ» .

[متفق عليه]

ورأى أحد الصحابة في سفرٍ مغارةً بجانبها ماء وخضرة ، فمالت نفسه للعزلة بها والتعبد ، فغضب الرسول ﷺ وذكر له أنه ما جاء باليهودية ولا النصرانية ، وإنما جاءهم بدين إبراهيم ميسّراً سهلاً .

وأراد أحد الصحابة ميلاً بفطرته أو تأثراً بالرهبانية أن ينقطع للعبادة ، فغضب الرسول ﷺ غضباً شديداً ومنعه .

وأراد آخر أن يمتنع عن أكل اللحم تنشطاً وتعبداً فردَّه .

ويقول أنس :

كنا مع النبي في سفر ، فمنا الصائم ومنا المفطر ، فنزل منزلاً في يوم حار ، أكثرنا ظلاً صاحب الكساء ، ومنا من يتقي الشمس بيده ، فسقط الصوَّام وقام المفطرون فضربوا الأبنية وسقوا الركاب ، فقال ﷺ :

«ذهب المفطرون اليوم بالأجر» .

هذا وكان رسول الله ﷺ يحب القصد في الصلاة والخطبة ، فكانت صلاة رسول الله ﷺ قصداً ، وكانت خطبته مقعداً ، لا هي بالطويلة ولا هي بالقصيرة .

عن أبي عبد الله جابر بن سمرة رضي الله عنهما قال :

(كنت أصلي مع النَّبي ﷺ الصلوات فكانت صلاته قصداً وخطبته قصداً) .

[رواه مسلم]

وقصداً أبي بين الطول والقِصَر .

ثـانـياً ـ الاعتدال في الأخـلاق

الإسلام وسط في الأخلاق بين غلو المثاليين الذين تخيلوا الإنسان ملاكاً أو

شبه ملاك فوضعوا له من القيم والآداب مالا يمكن له ، وبين غلو الواقعيين الذين حسبوه حيواناً أو كالحيوان ، فأرادوا له من السلوك مالا يليق به .

فأولئك أحسنوا الظن بالفطرة الإنسانية فاعتبروها خيراً محضاً ، وهؤلاء أساؤوا بها الظن فعدُّوها شراً محضاً خالصاً . وكانت نظرة الإسلام وسطاً بين أولئك وهؤلاء .

فالإنسان في نظر الإسلام مخلوق مركب فيه العقل ، وفيه الشهوة ، فيه غريزة الحيوان وروحانية الملاك ، قد هدي للنجدين ، وتهيأ بفطرته لسلوك السبيلين إما شاكراً وإما كفوراً ، فيه استعداد للفجور استعداده للتقوى ، ومهمته جهاد نفسه ورياضتها حتى تتزكى :

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ . [الشمس : ٧ ـ ١٠]

والإسلام يدعو لاتباع الأخلاق باعتدال ، دون إفراط ولا تفريط أي إلى التوسط فيها ، والتي هي ضمن مقدور الإنسان وطاقته ، وهي الحد الطبيعي لهذه الأخلاق المحمودة .

فكل خلق محمود له طرفان مذمومان ، والمسلم مأمور بتجنب كل وصف مذموم :

فالسخاء الذي يدعو إليه الإسلام توسط بين البخل والتبذير .

والشجاعة توسط بين الجبن والتهور .

والحلم توسط بين الغضب والعجز .

والتواضع توسط بين الكبر والمهانة .

والحياء توسط بين الوقاحة والخور .

والقناعة توسط بين الحرص والخسة .

والرفق توسط بين العنف والإضاعة .

والعزة توسط بين الكبر والذل .

والرحمة توسط بين القسوة وضعف القلب .

وهكذا فكل الأخلاق الإسلامية مبناها على التوسط والاعتدال ، وإنما المسلم مأمور بالأخذ بها على وجهها هذا بعيداً عن كلا طرفيها المذمومين ، نعني الإفراط والتفريط .

ثالثاً ـ الاعتدال في الإنفاق

الإنفاق في الإسلام له عدة معان ، وأعلى المعاني الإنفاق في سبيل الله عز وجل ، وقد شرَّف الله سبحانه وتعالى هذا النوع من الإنفاق ، وذكره في القرآن الكريم أكثر من ذكر أي فرض آخر لأهميته العظمى ، وجعل له أجراً عظيماً ، ووعد بأن يخلف ما أُنفِقَ في سبيله أضعافاً مضاعفة فقال سبحانه :

﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ . [البقرة : ٢٦١]

وقد بيّن الله سبحانه وتعالى أن هذا الإنفاق يخلفه الله سبحانه وتعالى فقال :

﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ﴾ . [سبأ : ٣٩]

وهذا الإنفاق هو الزكاة أو الصدقات الأخرى المتنوعة .

وأما النوع الثاني من معاني الإنفاق هو إنفاق الإنسان على نفسه وأهله والآخرين من طعام وشراب ومسكن وغير ذلك من الحاجات اليومية ، وعلى هذا النوع مدار الحديث في موضوع الاعتدال .

والاعتدال في الإنفاق يسمى الاقتصاد ، والاقتصاد من القصد ، والقصد في الشيء ضد الإفراط وهو ما بين الإسراف والتقتير ، والقصد في المعيشة ألا يسرف ولا يقتر ، وقصد الإنسان في الأمر أي لم يتجاوز فيه الحد ورضي بالتوسط .

وقصد في أمره : اعتدلَ وسلك مسلكاً بين المغالاة والتقصير ، أو بين الإفراط والتفريط .

والقصد: هو سلوك الطريق المعتدلة ، ولذلك يطلق عليه اسم الاعتدال ، وقد يسمى بالسداد ، ولذلك يقال في اللغة العربية إن القصد بمعنى العدل والقاصد هو القريب ، ولذلك جاء في التنزيل المجيد:

﴿ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ ﴾ . [التوبة: ٤٢]

أي سفراً غير شاق ولا متناهي البعد.

والاعتدال في الإنفاق يسمى التوسط ، والتوسط في الإنفاق بين التقتير والتبذير ، فلا يجاري المرء من هو أغنى منه في إسرافه وبذخه ، فيقع في أسر الاستدانة ويصبح فقيراً معدماً ، فينبذه كل من رآه ويبغضه كل من علم أمره ، ولا يبخل في الإنفاق على نفسه وأهله ويشح بالإحسان على البائسين والمحتاجين ، فيكون عرضة لضرر أطماعهم وهدفاً لسوء عاقبة حرمانهم فيعيش ولا راحة عنده ولا اطمئنان.

وقد أشار الله عز وجل إلى عظمة الاعتدال والاقتصاد والتوسط في الإنفاق وجعله صفة من صفات المؤمنين الصادقين:

﴿ وَالَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾ .

[الفرقان: ٦٧]

بل أمر الله عز وجل بالاعتدال والاقتصاد في الإنفاق فقال سبحانه وتعالى:

﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾ .

[الإسراء: ٢٩]

مغلولة: كناية عن الشح والبخل ، محسوراً: نادماً معدماً لا شيء عنده.

وقال جلّ شأنه آمراً بالابتعاد عن التبذير مشيراً إلى مكانة التبذير:

﴿ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ ۖ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴾ . [الإسراء: ٢٦ ـ ٢٧]

وقد حث رسول الله ﷺ على الاعتدال والاقتصاد في الإنفاق وبين أهميته فقال: «ما عال من اقتصد». [رواه أحمد عن ابن مسعود]

وقال عليه الصلاة والسلام:

«الاقتصاد وحسن السمت والهدى الصالح جزء من بضع وعشرين جزءاً من النبوة» رواه الترمذي عن عبد الله بن سرجس.

قال سيدنا أبو بكر رضي الله عنه: ما عال مقتصد ولا يعيل (أي ما افتقر).

وقال: (إني لأبغض أهل بيت ينفقون رزق أيام في يوم واحد).

وقال سيدنا علي كرم الله وجهه: (دع الإسراف مقتصداً واذكر في اليوم غداً).

وقال سعيد بن جبير: التبذير هو أن تنفق الطيب في الخبيث.

وقال العلماء: ثلاث من حقائق الإيمان: الاقتصاد في الإنفاق، والإنصاف من نفسك، والابتداء بالسلام.

وقال بعض الحكماء: التبذير إنفاق المال في غير وجه حق، وبذله على وجه لا تقضيه الحكمة.

ويجب على المسلم أن يعرف حدود الاقتصاد، فمن الناس من يقترون على أنفسهم ويضيِّقون على أسرتهم وهم في سعة من الرزق، ويسمون هذا اقتصاداً، وليس هذا اقتصاداً بل بخلاً، والاقتصاد منزلة محبَّبة بين الإسراف والتقتير، وهو أن تأكلَ جيداً وتلبس جيداً، وتنفق على نفسك وأهلك بصورة لا تدعْ لهم مجالاً يحتاجون به إلى غيرك، على أن يكون ذلك ضمن حدود قدرتك، بحيث لا يستغرق مصروفك جميع وارداتك، بل يجب الاحتفاظ بقسم منها لمرض أو حادث أو ضرر، أو أي ضرورة من ضروريات الحياة التي لا يخلو بشر منها قال الشاعر:

أنفقْ بقدرِ ما استفدت ولا تسرفْ وعش فيه عيش مقتصدِ
من كان فيما استفادَ مقتصدا لم يفتقر بعدها إلى أحدِ

رابعاً ـ الاعتدال في الحب والبغض

الحب والبغض صفتان نفسيتان، تنشأ كل منهما من المصاحبة والأخوة

والمصادقة والمتاجرة والمشاركة والمجاورة والمعاملة والتعامل فينشأ حب عميق أو بغض شديد.

والإسلام يدعو إلى الاعتدال في هذا الحب والبغض، حتى لا نُصَاب من وراء الحب الشديد بصدمة كبيرة إذا انقطع هذا الحب فجأة بسبب من الأسباب، وكذلك البغض، فقد توجد أسباب يقترب بها المتباغضون فيسبب البغض الشديد لهم حرجاً كبيراً وموقفاً صعباً.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال:

قال رسول الله ﷺ:

«أحبب حبيبك هوناً ما عسى أن يكون بغيضَكَ يوماً ما، وأبغض بغيضك هوناً ما عسى أن يكون حبيبك يوماً ما». [رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه]

قال بعضهم: لا يكن حبك كلفاً ولا بغضك تلفاً.

وأخرج الخرائطي عن الحسن: تنقوا الإخوان والأصحاب والمجالس وأحبوا هوناً وأبغضوا هوناً فقد أفرط أقوام في حب أقوام فهلكوا، وأفرط أقوام في بعض أقوام فهلكوا، وإن رأيت دون أخيك ستراً فلا تكشفه.

خامساً: الاعتدال في الطعام والشراب

الإسلام يحرم الإسراف في الطعام والشراب، والإسراف تجاوز حد الاعتدال في المباح ولأن الإسراف يترتب عليه أضرار نفسية وجسدية ومالية وهو سبب من أسباب الأزمات الاقتصادية على مستوى الأفراد والجماعات.

ولذلك جاء النهي عنه صريحاً في القرآن الكريم، فقال تعالى:

﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾. [الأعراف: ٣١]

وقد بين الله سبحانه وتعالى أن الإسراف في الطعام هو من أخلاق الكافرين الذين لا يعرفون من الدنيا إلاّ اللذات والشهوات فقال:

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ ﴾. [محمد: ١٢]

عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال:

قال رسول الله ﷺ:

«كُلْ واشربْ والبِسْ وتَصدَّقْ في غيرِ سَرَفٍ ولا مَخْيلَة».

[رواه أحمد وأبو داود]

ومعدة الإنسان وعاء، والعاقل لا يضع في الوعاء مالا يسعه.

عن المقدام بن معد يكرب رضي الله عنه قال:

قال رسول الله ﷺ:

«ما ملأ آدميٌّ وعاءً شراً من بطنه، حسب ابن آدم لقَيماتٍ يُقِمْنَ صُلبَه، فإن لم يفعل فثلثٌ لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه». [وراه الترمذي وغيره]

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: تَجشَّأ رجل عند رسول اللهِ ﷺ فقال:

«كُفَّ عنا جشاءك فإن أكثرهم شبعاً في الدنيا أطولهم جوعاً يوم القيامة».

[رواه الترمذي وغيره]

والتجشؤ: إحداث صوت مع ريح يحصل من الفم عند حصول الشبع.

وقد بين النَّبي ﷺ أن الاعتدال في الطعام صفة من صفات المؤمن، والإسراف صفة من صفات الكافرين.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال:

قال رسول الله ﷺ:

«المسلم يأكل في معىً واحد والكافر في سبعة أمعاء» رواه مالك والبخاري ومسلم وغيره.

وفي رواية للبخاري:

(أن رجلاً كان يأكل أكلاً كثيراً فأسلم، فكان يأكل أكلاً قليلاً، فَذُكِر ذلك لرسول اللهِ ﷺ فقال: «إن المؤمن يأكل في معىً واحد وإن الكافر يأكل في سبعة أمعاء»).

والأكل والشرب الكثير يسمى بالتُّخْمة، وقد ذكر أبو سليمان الداراني رحمه الله أضرار التخمة حيث قال: من شبع دخل عليه ست آفات: فقد حلاوة

العبادة ، وتعذُّر حفظ الحكمة ، وحرمان الشفقة على الخلق لأنه إذا شبع ظن الخلق كلهم شباعاً ، وثقل العبادة ، وزيادة الشهوات ، وإن سائر المؤمنين يدورون حول المساجد ، والشباع يدورون حول المزابل.

وحدث أن أضاف رسول الله ﷺ رجلاً كافراً ، فأمر له بشاة فحلبت ، فشرب حلابها ، ثم أخرى فشرب حلابها ، حتى شرب حلاب سبع شياه ثم إنه أصبح فأسلم فأمر له رسول الله ﷺ بشاة فشرب حلابها ثم أخرى فلم يستتمه ، فقال رسول الله ﷺ :

«إن المؤمن ليشرب في معىً واحد ، والكافر يشرب في سبعة أمعاء».

[رواه مسلم]

وذلك أن الرجل غلبه التفكير عندما شعر بروعة الانتقال من طور الجاهلية إلى طور النور ، وعندما عرف موقفه الجديد من ربه وتكاليف دينه وحساب آخرته ، فكان لارتفاع همته إلى تأسيس حياة أرقى مما مضى أثرٌ بالغٌ في عزوفه عن الاستزادة مما قُدِّم له.

ولعل من أجمل ما قيل في هذا الموضوع :

(نحن قوم لا نأكل حتى نجوع وإذا أكلنا لا نشبع).

سادساً ـ الاعتدال في اللباس

الإسلام يوصي بالاعتدال في ارتداء الملابس ، ويكره للرجل أن يباهي بها أو يختال فيها ، فهو لا يعتبر حسن البزة من عناصر الرجولة أو مقومات الخلق العظيم ، فرب امرىءٍ لا تساوي ثيابه درهماً ، ترجح نفسه بالقناطير المقنطرة من الذهب والفضة.

قال رسول الله ﷺ :

«رب أشعب أغبر ذي طمرين لو أقسم على الله لأبرَّه». [رواه الترمذي]

ولا يستنتج من هذا أن الدين يحب الملابس المزرية ، أو يرحب بالهيئات

المستكرهة ، أو يندب إلى لبس المرقَّعات ، وارتداء الخرق الباليات كما يفعل جهلة العبّاد.

الإسلام يدعو للاعتدال في الملبس ، فلا إفراط ولا تفريط.

سأل رجل عبد الله بن عمر رضي الله عنهما :

ما ألبس من الثياب؟ قال : ما لا يزدريك فيه السفهاء، ولا يعيبك به الحكماء.

وجاء رجل إلى رسول الله ﷺ وعليه ثوب دون ، فقال له :

«ألك مال؟ قال : نعم ، قال : من أي المال؟ قال : من كل المال قد أعطاني الله تعالى. قال : فإذا آتاك مالاً فليُرَ أثر نعمة الله عليك وكرامته». [رواه النسائي]

وقال رسول الله ﷺ :

«ما على أحدكم إن وجد سعة أن يتخذ ثوبين ليوم الجمعة غير ثوبي مهنته».

[رواه أبو داود]

فالإسلام يستحب لاتباعه التجمُّل وحس السمت ولكن بالاعتدال دون تكبر وتباهٍ ومفاخرة على الآخرين.

سابعاً ـ الاعتدال في السير

جاء في سورة لقمان قوله تعالى :

﴿ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ ﴾ [لقمان : ١٩].

تواضع في مشيك وإذا مشيت فلا تستكبر ، ولا تستعجل بل اعتدل واتئدْ وكن وسطاً بين الطرفين المذمومين الإسراع والبطء ، والقصد في المشي يبين هنا المشية المعتدلة القاصدة التي تليق بالمسلم وتنبغي له.

ثامناً ـ الاعتدال في النوم

فلا يكثر من السهر حتى يضيع حقوق الله وحقوق نفسه ، ولا ينام طويلاً فيضيع أيضاً حقوق الله وحقوق نفسه.

وإنما يعتدل في النوم بقدر الحاجة الضرورية التي يقدرها الأطباء فيتعود

على النوم باكراً ليستيقظ باكراً بهمة ونشاط للعبادة والصلاة والعمل وأداء الواجبات المختلفة قال تعالى:

﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾. [السجدة: ١٦]

وعن عائشة رضي الله عنها قالت:

(كان رسول اللهِ ﷺ ينام في أول الليلِ ويقوم آخره فيصلي).

[رواه ابن ماجه]

وأخيراً فإننا نجد أن الإسلام يدعو للاعتدال في كل أمور الحياة المختلفة والمتنوعة لأنه دين اختص بخصائص من أهمها التوسط في كل الأمور وعدم الإفراط أو التفريط.

* * *

واجبات الآباء والمربِّين

١ ـ أن يكونوا قدوة صالحة لأبنائهم في سلوكهم وأعمالهم قبل أقوالهم ، فيرى عليهم الاعتدال في كل شؤون الحياة ، ليستطيعوا توجيه أبنائهم إلى هذا الخلق الكريم العظيم الضروري ، وخاصة في هذه الأيام.

٢ ـ أن يراقبوا سلوك وتصرفات أبنائهم ، ويرشدوهم عند كل مناسبة إلى الطريق الصحيح وخاصة بما يتعلق بموضوع الاعتدال في كل شيء.

٣ ـ أن يشجعوا الأخلاق السامية عندما تظهر في أبنائهم ، وخاصة في موضوع الاعتدال وذلك بالكلمة الطيبة والعطاء والمكافأة وإبراز ذلك وإظهار مكانته العالية.

٤ ـ أن يبيِّنوا لهم أخطاء وأخطار الابتعاد عن الاعتدال والنتائج السيئة التي ستعود على المبتعدين عن الاعتدال في سلوكهم وأعمالهم ونتائج حياتهم في الدنيا والآخرة.

٥ ـ أن يُحمّلوا أبناءهم مسؤولية الدعوة إلى الاعتدال: فهو واجب إسلامي ؛ لأنه دعوة للخير والصلاح والإيمان والخلق السليم.

* * *

العبرة والتطبيق:

أيها الناشئة [المؤمن والمؤمنة]:

بعد أن تبين لك أهمية الاعتدال وأنه خلق إسلامي عظيم وضروري لكل مسلم وعليه التخلق به منذ نعومة أظفاره ليسهل عليه التخلق به مدة حياته كلها فيجب عليك ما يلي:

١ ـ النظر في تصرفاتك السابقة وفي كل شؤون حياتك، ودراستها حسب ما يتطلبه خلق الاعتدال، فما كان صحيحاً مطابقاً لخلق الاعتدال الإسلامي، شكرت الله عليه، وما كان مخالفاً عملت على تصحيحه، هذا بعد أن تستغفر ربك على ما مضى منك من أخطاء في هذا الخلق السامي وبعد أن ترجوه سبحانه أن يتوب عليك مما مضى، وتعاهده على السلوك الصحيح فيما يتعلق بهذا الخلق العظيم.

٢ ـ المراقبة الدائمة لجميع أقوالك وأعمالك وتصرفاتك وأخلاقك والسير بها على المنهج الإسلامي في الاعتدال والاقتصاد والتوسط والتوازن.

٣ ـ دعوة الآخرين من إخوة لك وأصدقاء وأحباب إلى هذا الخلق العظيم، وذلك بعد أن توضح معناه وتبين أنواعه، وتُظهِرَ حكمة الإسلام فيه.

٤ ـ شَجِّعْ من دعوتهم إلى هذا الخلق، عندما يظهر فيهم هذا الخلق، وذلك بالكلمة الطيبة والمكافأة الحسنة ليتعمق ذلك الخلق فيهم ويكون لك ثواب العمل الخيّر والدعوة الصالحة.

٥ ـ ابتعد عن الأصدقاء والرفاق الذين لا يتخلقون بأخلاق الإسلام، ومنها هذا الخلق حتى لا تتأثر بهم، وتشد إليهم، فتخسر الدنيا والدين والآخرة وتخسر نفسك وأهلك وربك.

* * *

خُلُقُ الحِلْم

٨

معنى الحلم:

الحلم سيد الأخلاق وهو خلق ذكر في القرآن الكريم ، وقد عرف العلماء الحلم بأنه إمساك النفس عن الاستشاطة في الغضب ، وملك الجوارح عند اتقاد جمرة الشر ، والسكوت عند الأحوال المُحرّكة للانتقام ، والتثبت في ترك تعجيل إنفاذ الحكم ، لما في عواقب ذلك من وقوع الندم ، لاسيما مع تمكن القدرة ، وتحكم القوة ، فإن ذلك آية الرحمة وسعة الصدر وعلو الهمة وإيثار مكارم الأخلاق.

والحلم ضبط النفس: وهو حالة يظهر معها الوقار والثبات عند الأسباب المحركة للغضب أو الباعثة على التعجيل في العقوبة ، وحبس النفس حتى تخضع لسلطان العقل ، وتطمئن لما يأمرها به.

لذلك جاء عن بعض حكماء العرب فيما روته أمثالهم قوله: (حلمي أصم وأذني غير صماء) إنني أعرض عن الخنا بحلمي وإن سمعته أذني.

والحليم يحتاج إلى الصبر كي يتمهل في حكمه ، ويملك جوارحه عند غضبه ، كما أنه يحتاج إلى العقل حتى يساعده على التفكير في العواقب ، والتثبت في الأمور ، فالعقل السوي هو الذي يعقل صاحبه عن الاندفاع وراء عواطفه وغرائزه ، أو وراء انفعالاته وشهواته ، أو وراء طبائعه النارية ، أو وراء كل ما يميل به إلى الجنوح والانحراف ، فقد تطلق كلمة (الحلم) على معنى العقل ، ومن ذلك قول القرآن الكريم: ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُم بِهَٰذَا ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ .

[الطور: ٣٢]

فالأحلام هنا يراد بها العقول ، وقد ورد في الحديث بشأن صلاة الجماعة:

(لِيَلِني منكم أولو الأحلام والنهى) ، أي أصحاب الألباب والعقول.

وليس الحلم في الحقيقة هو العقل ، ولكنهم فسروه به لكون العقل هو سبب الحلم ، فالعقل هو الذي يتصح بالأناة والتثبت في الأمور.

قالت الحكماء: (ليس الحليم من ظُلم فحلم ، إذا قدر انتصر ، إن الحليم من إذا قدر عفا).

وقيل: (الحلم ترك المكافأة بالشر قولاً وفعلاً).

أهمية الحلم:

الحلم من أكرم الخلال وأتم الخصال وأفضل شمائل الرجال وأسمى مواهب الله المتعال ، وهو أصل من أصول الدين وركن من أركان الطاعة مكين ، وحبل من حبال الشرع المتين ، وحصن من حصون الإيمان حصين ، من استند إليه وتمسك به واعتمد عليه استنارت له الظلم وأمن من عثار القدم وعصم من مواقع الندم ، ويمكن التعرف على أهمية الحلم بما يلي:

أولاً ـ الحلم اسم من أسماء الله سبحانه وصفة من صفاته:

لأنه جل ذكره يرى عصيان العاصين ، ويطلع على خيانة الخائنين ، ويشاهد جور الظالمين ويحصي ذنوب الخاطئين ، فلا يحتجب عنه عمل عامل ، ولا يغيب عن علمه شيء في عاجل ولا آجل ، وهو بحلمه لا يعمل بالانتقام مع القدرة ، ولا يستفزه الغضب مع إمكان القوة ولا تبعثه العجلة على إنفاذ حكمه مع وضوح الحجة بل يؤثر الحلم والإمهال ليكون له الفضل والمنة.

وحسبنا قوله عز من قائل:

﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴾. [الكهف: ٥٨]

وقوله تبارك اسمه:

﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾.

[النحل: ٦١]

وقوله سبحانه:

﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾. [فاطر: ٤٥]

وقد ورد الحلم بأنه من أسماء الله، وصفة من صفاته في القرآن الكريم في أكثر من عشر آيات في سور متعددة وهي:

﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾. [البقرة: ٢٢٥]

﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾. [البقرة: ٢٣٥]

﴿ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴾. [البقرة: ٢٦٣]

﴿ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾. [آل عمران: ١٥٥]

﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴾. [النساء: ١٢]

﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾. [المائدة: ١٠١]

﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴾. [الحج: ٥٩]

﴿ إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴾.

[التغابن: ١٧]

﴿ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾. [الإسراء: ٤٤]

﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴾. [الأحزاب: ٥١]

﴿ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾. [فاطر: ٤١]

والحلم بالنسبة إلى الله سبحانه وتعالى هو الإمهال بتأخير العقوبة على الذنب، ولذلك قال ابن الأثير في شرح اسم الحليم: إنه الذي لا يستخفه شيء من عصيان العباد، ولا يستفزه الغضب عليهم فقد جعل لكل شيء مقداراً وميقاتاً فهو منته إليه، والقرطبي يذكر في تفسيره (الحلم) بالنسبة إلى الله سبحانه ما يفيد معنى طرح المؤاخذة وأنه باب رفق وتوسعة.

ثانياً ـ الحلم خلق من أخلاق الأنبياء:

يحدثنا القرآن الكريم بأن الحلم خلق من أخلاق الأنبياء والرسل فيقول عن أبي الأنبياء إبراهيم:

﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴾ . [التوبة: ١١٤]

وقال عنه أيضاً: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴾ . [هود: ٧٥]

وكذلك تحدث الله عن ابن إبراهيم إسماعيل:

﴿ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴾ . [الصافات: ١٠١]

وقال على لسان قوم شعيب:

﴿ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴾ . [هود: ٨٧]

ثالثاً ـ الحلم صفة من صفات نبينا المصطفى ﷺ:

لما كان سيدنا محمد ﷺ إمام النبيين وخاتم المرسلين ، كان من الطبيعي أن يوضع في يده زمام الإمامة الخلقية بين هؤلاء الكرام ، فلم يكن غريباً أن يوجهه ربه تعالى إلى قمة هذه الزعامة حين يقول له:

﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ۝ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ . [الأعراف: ١٩٩ ـ ٢٠٠]

ثم يمنُّ عليه بما يسر له من أسباب هذه الزعامة الخلقية فيقول له:

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ ﴾ .

[آل عمران: ١٥٩]

فلقد كان النَّبي ﷺ يُسَب ويُشتم ويُتهم ويُضرب فيتلقى كل ذلك بصدر رحب.

وعندما أوذي الرسول ﷺ كثيراً ، قيل له: ألا تدعو على المشركين؟ فقال: «إني لم أبعث لعَّاناً وإنما بعثت رحمة». [رواه البخاري ومسلم]

ولما ضُرِب وأوذي قال: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون».

ولما اشْتَدَّ أذى الكفار أرسل الله إليه جبريل ومعه ملك الجبال ، فسلما عليه وقال ملك الجبال: مرني أطبق عليهم الأخشبين (جبلان بطرفي مكة).

فقال ﷺ: «لا ، عسى الله أن يخرج من أصلابهم من يعبده».

ولما اشتد أذى المشركين عليه بكى أبو بكر رحمة له ، وكلمه في ذلك فقال ﷺ : «رحم الله أخي موسى فقد أوذي بأكثر من هذا فصبر» .

وحلم رسول الله ﷺ كان من أهم أسباب نجاح دعوة الإسلام وتكوين دولة المسلمين ، وقد بلغ رسول الله ﷺ في حلمه الغاية المثالية والدلائل على ذلك كثيرة وفيرة منها :

عن أنس رضي الله عنه قال :

(كنت أمشي مع رسول الله ﷺ وعليه بُرْد نجراني غليظ الحَاشية ، فأدرَكَه أعرابيٌ فجَذَبَه بردائه جذبةً شديدةً فنظرتُ إلى صفحةِ عُنُق رسولِ الله ﷺ وقد أثَّر بها حاشيةُ الرداءِ من شدةِ جَذبَتِهِ ثم قال :

يا محمدُ مُرْ لي من مالِ اللهِ الذي عِنْدَك ، فالتَفَتَ إليه فَضَحِكَ ثم أمر له بعطاء) . [رواه البخاري ومسلم]

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال :

(كأني أنظر إلى رسول الله ﷺ يَحْكي نبياً من الأنبياء ضَرَبَه قومُهُ فأدْموهُ ، وهو يَمْسَحُ الدَّمَ عن وَجهِهِ ويقول : اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون) .

[رواه البخاري ومسلم]

ومن حلمه ﷺ أن أعرابياً جاءه يوماً يسأله شيئاً من المعونة ، فأعطاه ، ثم قال له : هل أحسنت إليك يا أعرابي؟ فاندفع الأعرابي بجهالة يقول : لا أحسنت ولا أجملت .

فهمّ الصحابة يريدون البطش بالأعرابي ، فمنعهم الرسول ، وأخذ الأعرابي إلى بيته ، وزاده في العطاء ، ثم قال له : هل أحسنت إليك؟ قال الأعرابي : نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً .

فقال له النّبي ﷺ : إنك قلت ما قلت وفي نفس أصحابي شيء من ذلك ، فإذا أحببت فقل بين أيديهم ما قلت بين يدي حتى يذهب من صدروهم ما فيها عليك . قال : نعم .

فلما كان الغداة ـ أو العشي ـ جاء الأعرابي فقال النَّبي ﷺ لأصحابه:

إن هذا الأعرابي قال ما قال فزدناه، فزعم أنه رضي، أكذلك.؟

فقال الأعرابي: نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً.

فقال النَّبي ﷺ: إن مثلي ومثل هذا الأعرابي، كمثل رجل كانت له ناقة شردت عليه، فتبعها الناس فلم يزيدوها إلاّ نفوراً، فناداهم صاحب الناقة خلوا بيني وبين ناقتي، فإني أرفق بها وأعلم، فتوجه لها صاحب الناقة بين يديها، فأخذ لها من قمام الأرض (من حشائشها) فردها هوناً هوناً، حتى جاءت واستناخت وشد عليها رحلها، واستوى عليها، وإني لو تركتكم حيث قال الرجل ما قال فقتلتموه دخل النار.

ومن روائع حلمه كذلك أن رجلاً كافراً دنا من النَّبي ﷺ وهو نائم، ورفع الرجل السيف فوق النَّبي ﷺ فانتبه فقال له الرجل: من يمنعك مني؟ فقال الرسول بكل ثبات وطمأنينة: الله.

فارتعد الرجل وسقط السيف من يده فأخذه النَّبي ﷺ فقال من يمنعك مني؟

فقال الرجل في ضعف: كن خير آخذ. فقال له النبي: قل أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله. فقال الرجل لا، غير أني لا أقاتلك ولا أكون معك، ولا أكون مع قوم يقاتلونك. فعفا النبي عنه وأطلق سبيله فعاد الرجل إلى قومه يقول لهم: جئتكم من عند خير الناس.

رابعاً ـ الحلم خلق أمر به النبي ﷺ وحث عليه ومدح المتصف به:

ورد ذلك في أحاديث كثيرة عن النَّبي ﷺ منها:

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال:

قال رسول الله ﷺ للأشجِّ:

«إن فيك لخصلتين يحبهما الله ورسوله: الحلم والأناة». [رواه مسلم]

وروى عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده رضي الله عنهم قال: قال رسول الله ﷺ:

«إذا جَمَعَ اللهُ الخلائقَ ، نادى منادٍ : أين أهلُ الفضلِ؟

قال فيقومُ ناس وهم يَسيرٌ ، فينطلقون سراعاً إلى الجنة ، فتتلقاهم الملائكة ، فيقولون : إن نراكم سراعاً إلى الجنة ، فمن أنتم؟

فيقولون : نحن أهل الفضل .

فيقولون : وما فضلُكُم؟

فيقولون : كنا إذا ظُلِمْنا صَبَرنا ، وإذا أسيء إلينا حَلِمْنا ، فيقال لهم :

ادخلوا الجنةَ فنعم أجرُ العاملين» . [رواه الأصفهاني]

عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال :

قال رسول الله ﷺ :

«ألا أنبّئكُمْ بما يُشرِّف اللهُ به البُنْيَان ، ويرفع به الدرجات؟

قالوا : نعم يا رسول الله .

قال : تحلُمُ على من جَهِلَ عليك ، وتعفو عمن ظَلَمَك ، وتُعطي من حَرَمَك ، وتَصِلُ من قَطَعَك» . [رواه الطبراني والبزار]

خامساً : الحلم صفة من صفات عباد الرحمن الصالحين :

أراد الله عز وجل لأتباع سيدنا محمد ﷺ أن يسيروا على نهجه وسنته وأخلاقه ، وبما أنه جعل رسوله محمداً مثلاً أعلى في الحلم أمرهم الله بالاتصاف بهذا الخلق العظيم . قال الله عز وجل واصفاً هؤلاء الصالحين :

﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ . [الفرقان : ٦٣]

وقد علّق الحسن على هذه الآية فقال عن أصحابها :

حلماء إن جُهِلَ عليهم لم يجهلوا .

والأمثلة على هؤلاء كثيرة جداً منها :

شتم رجل ابن عباس رضي الله عنهما ، فلما قضى مقالته ، فقال : يا عكرمة انظر هل للرجل حاجة فنقضيها؟ فنكس الرجل رأسه واستحيا .

قال أبو الدرداء رضي الله عنه لرجل أسمعه كلاماً: يا هذا لا تغرق في سبنا ودع للصلح موضعاً، فإني أبيت مشاتمة الرجال صغيراً، فلن أجيئها كبيراً، وإني لا أكافىء من عصى الله فيّ بأكثر من أن أطيع الله عز وجل فيه.

جاء غلام لأبي ذر وقد كسر رجل شاة له، فقال له: من كسر رجل هذه؟

قال: أنا فعلته عمداً لأغيظك، فتضربني، فتأثم.

فقال: لأغيظن من حرضك على غيظي، فأعتقه.

خرج الخليفة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ليلة كعادته في البحث بأمور الرعية ومعه شرطي، فدخل المسجد فمر في الظلمة برجل نائم فعثر به، فرفع الرجل رأسه إليه وقال: أمجنونٌ أنت؟

فقال له عمر: لا.

فهمَّ الشرطي ليضرب الرجل، فقال له عمر: لا تفعل إنما سألني: أمجنون أنت؟ فقلت له: لا.

شتم رجل عدي بن حاتم وهو ساكت، فلما فرغ من مقالته قال: إن كان بقي عندك شيء فقل قبل أن يأتي شباب الحي، فإنهم إن سمعوك تقول هذا لسيِّدهم لم يرضوا.

كان عروة بن الزبير إذا أسرع إليه رجل بشتم أو قول سيء لم يُجبه، رفعاً لنفسه عنه، فجرىٰ بينه وبين علي بن عبد الله كلام فأسرع إليه، فقال له علي: خفض عليك أيها الرجل، فإني أتركك اليوم لما كنت تترك له الناس.

وشتم رجل أبا حنيفة وهو في درسه وأكثر، فما التفت إليه، ولا قطع كلامه، ونهى أصحابه عن مخاطبته، فلما فرغ وقام، تبعه إلى باب داره، فقام على بابه، وقال للرجل: هذه داري إن كان بقي معك شيء فأتمه حتى لا يبقى في نفسك شيء، فاستحيا الرجل.

وفي قصة أخرى أنه تبعه، فلما دخل جعل يسب ويشتم، فلم يجبه أحد، فقال: أتعدونني كلباً؟ فقيل من داخل الدار: نعم.

ذكر أن الإمام الشافعي رضي الله عنه كان مشهوراً بحسن الخلق فعمل الحسدة على إغضابه فلم يقدروا ، فبرطلوا الخياط مرة أن يعمل له الكم اليمين ضيقاً جداً لا يخرج يده منه إلا بعسر ، ويعمل اليسار كالخرج ، فلما رآه الإمام قال له : جزاك الله خيراً حيث ضيقت كمي اليمين لأجل الكتابة ولم تحوجني إلى تشميره ، ووسعت اليسار لأحمل فيه الكتب.

حكي عن المأمون أنه قال ليحيى بن أكثم يوماً: سِرْ بنا نتفرج ، فسارا ، فبينما هما في الطريق وإذا بمقصبة خرج منها رجل بقصبة للمأمون يتظلم له ، فنفرت دابته منه فألقته على الأرض ، فأمر بضرب ذلك الرجل.

فقال الرجل: يا أمير المؤمنين ، إن المضطر يركب الصعب من الأمور وهو عالم بركوبه ، ويتجاوز الأدب وهو كاره لتجاوزه ، ولو أحسنت الأيام مطالبتي لأحسنت مطالبتك ، ولأنت على رد مالم تفعل أقدر مني على رد ما قد فعلت.

فبكى المأمون وقال: بالله أعد عليّ ما قلت ، فأعاده.

فالتفت المأمون إلى يحيى بن أكثم وقال: أما تنظر إلى مخاطبة هذا بأصغريه ، والنبي ﷺ يقول: «المرء بأصغريه: قلبه ولسانه» ، والله لا وقفت لك إلا وأنا قائم على قدمي فوقف ، وأمر له بصلة جزيلة ، واعتذر إليه ، فلما همّ المأمون بالانصراف ، قال الرجل: يا أمير المؤمنين بيتان قد حضراني ثم أنشد:

ما جاء بالوفر إلا وهو معتذر ... ولا عفا قطُّ إلا وهو مقتدر

وكلما قصدوه زاد نائِله ... كالنار يؤخذ منها وهي تستعر

ذكر أن الحساد صبوا مرة على الجنيد غسالة سمك وهو خارج لصلاة الجمعة ، فعمته من رأسه إلى ذيله ، فضحك وقال: من استحق النار فصولح بالماء لا ينبغي له الغضب ، ثم عاد إلى البيت واغتسل ولبس ثياباً غيرها.

سادساً ـ الحلم صفة من الصفات التي اتصف بها الأقدمون:

من أشهر من اتصف بالحلم من العرب الأحنف بن قيس ، وقد سئل يوماً: ممن تعلمت الحلم؟

قال: من قيس بن عاصم المنقري: رأيته يوماً قاعداً بفناء داره محتبياً بخمائل سيفه، يحدث قومه، إذا برجل مكتوف ورجل مقتول: فقيل له: (هذا ابن أخيك قتل ابنك هذا).

فوالله ما قطع كلامه، ولا حل حبوته، ثم التفت إلى ابن أخيه وقال له:

(يا بن أخي أنت رميت نفسك بسهمك وقتلت ابن عمك)، ثم قال لابن له آخر:

(قم يا بني فوارِ أخاك، وحل كتاف ابن عمك، واحمل إلى أمك مائة ناقة دية عن ابنها، فإنها غريبة).

وكان العرب يضربون المثل في الحلم بالأحنف بن قيس فيقولون: أحلم من الأحنف.

وكان العلماء يقولون فيه: لقد اختلفنا إلى قيس بن عاصم في الحلم كما نختلف إلى الفقهاء في الفقه، وكان للأحنف بن قيس أقوال كثيرة في الحلم منها:

(ما عاداني أحد إلا أخذت في أمره بإحدى ثلاث خصال: إن كان أعلى مني عرفت له قدره، وإن كان دوني رفعت قدري عنه، وإن كان نظيري تفضلت عليه).

وفي مثل هذا قال محمود الوراق:

سألزم نفسي الصفح عن كل مذنب ... وإن كثرت منه علي الجرائم
وما الناس إلا واحد من ثلاثة ... شريف ومشرف ومثلي مقاوم
فأما الذي فوقي فأعرف قدره ... وأتبع فيه الحق والحق لازم
وأما الذي دوني فإن قال، صنْتُ عن ... إجابته عرضي وإن لام لائم
وأما الذي مثل فإن زل أو هفا ... تفضلت إن الفضل بالحلم حاكم

سابعاً ـ الحلم خلق عظيم تحدث عنه أهل السلف كثيراً:

ومن أقوالهم فيه:

قال لقمان الحكيم:

(ثلاث من كن فيه فقد استكمل الإيمان ، من إذا رضي لم يخرجه رضاه إلى الباطل ، وإذا غضب لم يخرجه غضبه عن الحق ، وإذا قدر لم يتناول ما ليس له) .

قال سيدنا علي كرم الله وجهه :

(أول ما يرى الحليم من بركة حلمه أن الناس كلهم أعوانه على الجاهل) .

قال شريح : الحلم كنز مُوفَّر .

قالوا : بالعقل استُخرِج غور الحكمة ، وبالحلم استُخرِج غَوْرُ العقل .

قال بعض الأدباء : من غرس شجرة الحلم اجتنى ثمرة السلم .

قال محمد بن كنانة : (إن أهل الجاهلية لم يكونوا يسوِّدون رجلاً حتى يكون حليماً ، وإن كان أكرم الناس ، وأشجع الناس ، وأشرف الناس) .

قال معاوية رحمه الله : (إني لآنف أن يكون في الأرض جهل لا يسعه حلمي ، وذنب لا يسعه عفوي ، وحاجة لا يسعها جودي) .

وقال بعض الحكماء : (الحلم والأناة توأمان نتيجتهما علو الهمة) .

وقال بعض العلماء : (ثلاث من لم تكن فيه لم ينفعه الإيمان : حلم يرد به جهل الجاهل ، وورع يكفه عن المحارم ، وخلق حسن يداري به الناس) .

قال الشَّعبي : زينُ العلم حلمُ أهله .

قال رجاء بن أبي سلمة : الحلم أرفع من العقل ، لأن الله تسمى به .

قال عمر بنُ عبد العزيز : ما قرن شيء إلى شيء أحسن من حلم إلى علم ، ومن عفو إلى قُدرة .

ثامناً ـ الحلم خلق تسارع الشعراء لمديحه والحديث عنه :

قال أبو العتاهية :

فيا رب هَبْ لي منك حلماً فإني ... أرى الحلم لم يَنْدم عليه حليمُ
ويا رب هب لي منك عزماً على التقى ... أقيم به ما عشتُ حيث أقيم
ألا إن تقوى الله أكرم نسبةٍ ... تسامى بها عن الفَخَار كريم

قال الخُرَيمي:

أرى الحلم في بعض المواطنِ ذِلةً ... وفي بعضها عزاً يُسَوِّد فاعله

قال عمارة بن عضيل:

إذا أغضبت ذا كرمٍ تَخَطَّى ... إليك ببعض أخلاق اللئيم
وإن الله ذو حلم ولكن ... بقدر الحلم مُنتصَف الحليم

وقال آخر:

أحب مكارم الأخلاق جهدي ... وأكره أن أعيب وأن أُعابا
وأصفح عن سباب الناس حلماً ... وشر الناس من يهوى السبابا
ومن هاب الرجال تهيبوه ... ومن حقر الرجال فلن يهابا

وقال غيره:

ليست الأحلام في حال الرضا ... إنما الأحلام في حال الغضب

الحلم المحمود:

ليس الحلم رضا بالذل، أو تقبلاً للهوان، وإنما هو ترفع عن الاستجابة للنزوة، أو التأثر بالوسوسة أو مقابلة السوء بمثله.

فالحلم المحمود هو ما كان عن قدرة، لا ما كان عن ذل أو عجز.

قال الشاعر:

والحلم عن قدرة ... فضل من الكرم

وقال ابن زيدون مادحاً:

عطاء ولا مَنٌّ، وحكم ولا هوى ... وحلم ولا عجز، وعز ولا كبر

ولذلك كانت أجمل مواقف الحلم، هي مواقف الحلم من أهل السلطان على غيرهم، كحلم الحاكم على المحكوم، وحلم المعلم على التلميذ، وحلم المخدوم على الخادم، وحلم الرئيس على المرؤوس، وحلم العالم على الجاهل وهكذا...

قال الأحنف في ذلك :

ويصفحوا عن كثير من إساءتهم	لا صفح ذل ولكن صفح أحلام

ضد الحلم :

الغضب هو ضد الحلم ، وهو حالة نفسية ، وظاهرة انفعالية يحس بها الطفل في الأيام الأولى من حياته وتصحبه في جميع مراحل العمر إلى الممات ، فهي فطرية وتختلف من إنسان إلى إنسان ، كما بين رسول الله ﷺ :

«إن بني آدم خلقوا على طبقات شتى ، ألا وإن منهم البطيء الغضب سريع الفيء ، والسريع الغضب سريع الفيء ، والبطيء الغضب بطيء الفيء فتلك بتلك ، ألا وإن منهم بطيء الفيء سريع الغضب ، ألا وخيرهم بطيء الغضب سريع الفيء ، وشرهم سريع الغضب بطيء الفيء». [رواه الترمذي]

والغضب حركة نفسية يهتاج لها الدم في القلب فيثور وينتشر في العروق ويرتفع إلى أعالي البدن كما ترتفع النار إذا شبت ، فيحمر الوجه والعينان وظاهر الجلد وتنتفخ أوداجه ، أو قد يصفر الجلد ، إذ يضطرب الدم إذا استشعر بالخوف.

والغضب شعبة من الجنون ، وهو شر الرذائل لعواقبه الوخيمة .

قال سيدنا علي كرم الله وجهه :

(عدو العقل الغضب) .

ويقال: أول الغضب جنون ، وآخره ندم ، ولا يقوم عزُّ الغضب بذلِّ الاعتذار .

وقيل : كل العطب في الغضب .

درجات الغضب :

للغضب ثلاث درجات :

أولاً ـ درجة الاعتدال : بأن يغضب ليدافع عن نفسه أو دينه أو عرضه أو ماله ، أو ليدافع عن الحقوق العامة ونصرة المظلوم ، في مثل ذلك يقول الإمام

الشافعي رحمة الله: (من استغضب فلم يغضب فهو حمار) أي بليد الطبع فاقد الحمية. وتلك الحالة هي التي من أجلها خلق الغضب، فهو مخلوق لحكمة ضرورية اقتضتها طبيعة العمران، وطلبها نظام المجتمع الإنساني. فإن التنافس في هذه الحياة والتزاحم على مرافقها يستدعي دفاعاً قوياً عن النفس والدين والمال والعرض والحقوق العامة.

ولولا ذلك لفسدت الأرض بانتشار الفوضى وتقويض نظام الاجتماع كما أشار إلى ذلك سبحانه وتعالى:

﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾. [البقرة: ٢٥١]

ثانياً ـ درجة التفريط: وهي أن ينحط الغضب عن درجة الاعتدال بأن يضعف في الإنسان أو يُفْقَد منه رأساً، وتلك الحالة مذمومة شرعاً وعقلاً، لأن من لا يغضب لنفسه أو لدينه أو لعرضه أو لماله أو للمصالح العامة، فهو جبان لم يجرِ على سنن الله في خلقه، وفي ذلك خطر عظيم على الاجتماع لأنه مثار الفوضى في جميع مرافق الحياة.

ثالثاً ـ درجة الإفراط: وهي أن يخرج الغضب عن حد الاعتدال ويطغى على العقل والدين ويندفع في سبيل الشر اندفاعاً قد يؤدي إلى الهلاك من حيث لا يدري، وربما جره غضبه لأجل أمر يسير إلى ارتكاب أكبر الجرائم، وشر الموبقات ومعلوم أن الغضب في تلك الحالة مذموم شرعاً وعقلاً.

وتتفاوت درجات الذم بتفاوت الآثار المترتبة عليه قوة وضعفاً، فكلما اشتد ضررها كان الغضب أكبر جرماً وأكثر ذماً.

الغضب لله عز وجل:

الغضب المطلوب كفه هو ما كان غضباً للنفس، أما الغضب لله، فهو أمر حسن ينبع من منابع الإيمان لا من منابع النفس وما يسوؤها من أمور الدنيا.

والغضب لله هو ما يكون من المؤمن إذا انتهكت حرمة من حرمات الله، بارتكاب معصية من المعاصي مع المجاهرة وعدم المبالاة.

وقد كان الرسول ﷺ حليماً في أمره كله ، وكان لا يغضب ولا ينتقم لنفسه ، ولكن كان إذا عصي الله أمامه أو انتهكت حرمة من حرماته غضب لله وانتقم لله .

عن عائشة رضي الله عنها قالت :

(ما خُيِّر رسول الله ﷺ بين أمرين قَطُّ إلا أخذ أيسَرَهما ما لم يكن إثماً ، فإن كان ثَمَّ إثمٌ كان أبعَدَ الناسِ منه ، وما انتَقَم رسولُ الله ﷺ لنفسِهِ في شيء قَطُّ إلا أن تُنْتَهَك حُرْمةُ اللهِ فَيَنْتَقِمُ لله تعالى) رواه البخاري ومسلم .

بيد أن إظهار الغضب لله يجب أن يكون مقترناً بالحكمة التامة ، التي تحقق إزالة المنكر من جهة ، وإصلاح حال العصاة من جهة أخرى .

وقد علّمنا الرسول ﷺ أساليب الحكمة المختلفة ، والتي تناسب كل منها حالاً من الأحوال .

فقد كان ﷺ إذا واجه أهل الكفر وهم متلبسون بأعمال كثيرة ، كل واحد منها فيه انتهاك لحرمات الله لم يقابلهم ولم يواجههم بالغضب والعنف ، ولكنه كان يبدؤهم بالدعوة إلى الله وإلى الإيمان بربه وحده ، ويبين لهم الأمور الأولى للإسلام .

أما إذا رأى مؤمناً أو جماعة مسلمة قد انتهكوا شيئاً من حرمات الله ، فحينئذ كان يغضب لله ، ويشتد غضبه مع أهل القرب والطاعة ، ويخف مع غيرهم ، ومهما رق إسلام الرجل كان رفق الرسول في دعوته أكثر ، وكان إظهار الغضب من عمله أخف .

وهذا ما توجبه أساليب الحكمة في الدعوة إلى الله ، والتي أرشد إليها قول الله تعالى :

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ .

[النحل : ١٢٥]

وكما أمر الله عز وجل سيدنا موسى بدعوة فرعون أشد الناس كفراً ، وذلك

بطريقة بيّنها له ولأخيه هارون ، فقال عزَّ اسمه : ﴿ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ . [طه : ٤٣ ـ ٤٤]

والأمثلة في سيرة النَّبي ﷺ في هذا الموضوع كثيرة منها :

موقف الرسول ﷺ من حبه وابن حبه أسامة بن زيد ، وذلك عندما دفعه شيوخ من كبار المؤمنين القرشيين إلى الشفاعة بالمرأة المخزومية التي سرقت ، فقد غضب الرسول ﷺ كثيراً وقال مقالته المشهورة التي أصبحت قانوناً في ميزان الشرع الإسلامي :

«إنما أهلك الذين من قبلكم أنه إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها» .

وعن أنس رضي الله عنه أنه قال :

(ما رأيت رسول الله ﷺ انتقم لنفسه من شيء إلا إذا انتهكت لله حرمة ، فإن انتهكت لله حرمة كان أشد الناس غضباً ، وما عرض عليه أمران إلا اختار أيسرهما ما لم يكن فيه سخط الله ، فإن كان فيه لله سخط كان أبعد الناس منه) .

[رواه الطبراني]

موقف القرآن الكريم من الغضب المذموم:

لما أظهر القرآن الكريم عظمة الحلم من خلال اسم من أسماء الله ، وأنه صفة من صفات الأنبياء والرسل ، دل ذلك على ضرورة الابتعاد عن الغضب المذموم الذي هو ضد الحلم ، ومع ذلك فإنه أيضاً يأمر المؤمنين والمؤمنات بكظم الغيظ والدفع بالتي هي أحسن ، والإعراض عن الجاهلين .

قال تعالى :

﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾ . [فصلت : ٣٤]

﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴾ . [الفرقان : ٦٣]

﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ . [آل عمران: ١٣٤]

﴿ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَـٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾ .

[الشورى: ٣٧]

﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴾ . [الأعراف: ١٩٩]

موقف الرسول ﷺ من الغضب المذموم:

تناول رسول الله ﷺ هذا الموضوع في مناسبات كثيرة وأحاديث متعددة ، منفراً من الغضب ذاماً له ، موجهاً الصحابة الكرام للابتعاد عنه والتخلق بالحلم.

عن أبي هريرة رضي الله عنه:

أن رجلاً قال للنبي ﷺ: أوصني.

قال: «لا تَغْضَبْ ، فردّدَ مراراً ، قال: لا تغضب». [رواه البخاري]

وعن حميد بن عبد الله عن رجل من أصحاب النّبي ﷺ قال: قال رجل: يا رسول الله أوصني.

قال: لا تغضب.

قال: ففكرت حين قال رسول الله ﷺ ما قال ، فإذا الغضب يجمعُ الشرَّ كله. [رواه أحمد]

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أنه سأل رسول الله ﷺ:

ما يباعِدُني من غَضَبِ اللهِ عز وجل؟

قال: لا تَغْضَب. [رواه أحمد]

وعن جَارِيَةَ بن قُدَامَة:

أن رجلاً قال يا رسول الله ، قل لي قولاً وأَقْلِلْ لَعَلّي أعِيه.

قال: لا تغضب ، فأعاد عليه مراراً ، كلُّ ذلك يقول: لا تغضب.

[رواه أحمد]

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال:

قال رجل لرسول الله ﷺ: دُلَّني على عملٍ يدخلني الجنة.

قال رسول اللهِ ﷺ: لا تغضب ولك الجنة. [رواه الطبراني]

وعن أبي هريرة رضي الله عنه:

أن النَّبي ﷺ قال:

«ليس الشديد بالصُّرَعَة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب».

[رواه البخاري ومسلم]

والصُّرَعَةُ: هو بطل المصارعة، الذي يغلب مصارعيه وينتصر عليهم.

وقد بين الرسول ﷺ أن بطل المصارعة ليس هو في الحقيقة الذي يستحق أن يقال عنه الرجل الشديد، وإنما الذي يستحق هذا الوصف هو قوي الإرادة، ذو الرصانة الخلقية، الذي يملك نفسه عند مثيرات الغضب، فهذا هو الشديد حقاً، لأنه استطاع أن يغلب أقوى دوافع في نفسه بقوة إرادته وسمو خلقه، ومتى كان الإنسان قادراً على أن ينتصر على أقوى دوافعه الداخلية فيه، فهو على ما دون ذلك أقدر، وله أملك وأغلب.

وفي هذا قول معاوية لعمرو بن العاص: من أبلغ الناس؟

قال: من ترك الفضول واقتصر على الإيجاز.

قال: فمن أصبر الناس؟

قال: من بذل دنياه في صلاح دينه.

قال: فمن أشجع الناس؟

قال: من ردّ جهله بحلمه.

وعن ابن المُسَيَّب رضي الله عنه قال:

بينما رسول الله ﷺ جالسٌ، ومعه أصحابُهُ، وقع رجُلٌ بأبي بكر رضي الله عنه فآذاه (أي سبه وثلبه)، فَصَمَت عنه أبو بكر، ثم آذاه الثانية، فصمت عنه

أبو بكر » ثم آذاه الثالثة فانتصر أبو بكر ، فقام رسول اللهِ ﷺ ، فقال أبو بكر رضي الله عنه :

أَوَجِدْتَ علي [أي غضبت] يا رسول الله؟

فقال رسول اللهِ ﷺ: نَزَلَ ملك من السماء يُكذِّبُه بما قالَ لك ، فلما انْتَصَرَتَ ذهَبَ المَلَك وقعد الشيطان » فلم أكُنْ لأجلس إذن مع الشيطان .

[رواه أبو داود]

أسباب الغضب المذموم:

للغضب المذموم أسباب كثيرة منها :

أولاً ـ الجدل والمزاح والسخرية بالناس ، والاستهزاء بهم ، وإطلاق العنان للسان ، فلا يبالي بسبهم أو غيبتهم أو النم عليهم. وما إلى ذلك من آفات اللسان.

ثانياً ـ كذلك الكبرياء والعجب ، فإن المتكبر المعجب بنفسه يتأثر كلما فاته ما يعتقد أنه يستبقي عظمته ومنزلته في الناس ، فإذا طالبه أحد بحق استشاط غضباً ، وكذا إذا نهاه عن رذيلة أو عارضه في أي أمر كان ، لاعتقاده أنه كامل من جميع الجهات ، فلا يصح لأحد أن يأمره أو ينهاه أو يقف في سبيله ، وهو في الواقع ناقص من كل وجه ، يحاول أن يجبر نقصه بكبريائه.

ثالثاً ـ مصاحبة الأشرار الذين يحسبون التهور شجاعة ، وطغيان الغضب الموجب للظلم رجولة ، فتتأثر نفسه بذلك ، وتصبح سرعة الغضب عادة له وشعاراً.

علاج الغضب المذموم:

الغضب المذموم إما أن يكون طبيعة في المرء ، وإما أن يكون مكتسباً بالمخالطة ، فمن كان الغضب له طبعاً ، فعلاجه باجتناب الأسباب المثيرة له ، كالتكبر والافتخار والتعيير والمزاح والجدل.

فإذا برئت نفسه من هذه الأمراض فلا يضره أن يكون سريع الغضب بطبعه ، ويجب عليه أن يروض نفسه دائماً على التواضع والحلم.

ومن كان غضبه مكتسباً بالعادة والاختلاط ، فعلاجه اجتناب الأسباب المهيجة للغضب المذكورة آنفاً ، واجتناب مصاحبة الأشرار والابتعاد عنهم ، وأن يعلم أن ليس للإنسان أن يغضب إلا لدينه أو نفسه أو عرضه أو ماله ، وما وراء هذا فالغضب فيه رذيلة يجب الاحتراس منها.

وهذا طريق الوقاية من الوقوع في سورة الغضب ، فإذا ثار غضبه كان العلاج شاقاً لأنه يذهل النفوس ويخرجها عن حد الصواب والرشد ، وينسيها مالها وما عليها من الواجبات فيصدر عنها من الأقوال والأعمال ما لا يصدر عن العقلاء.

فإذا هاج غضبه فعليه أن يتبع العلاج العلمي العقلي والعلاج العملي التطبيقي.

أما العلاج العلمي العقلي فيجب عليه أولاً أن يذكر على الفور قوله تعالى:

﴿ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾.

[آل عمران: ١٣٤]

ويتذكر ما ورد عن رسول الله ﷺ في ذلك:

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال:

قال رسول الله ﷺ:

«ما من جُرْعَةٍ أعظمَ عند الله من جُرْعة غيظٍ كظَمَها عبدٌ ابتغاء وجهِ الله».

[رواه ابن ماجه]

وعن معاذ بن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

«من كظَمَ غَيظاً وهو قادر على أن يُنفِذَه دعاه الله سبحانه على رؤوس الخلائق حتى يُخَيِّرَهُ من الحور العين ما شاء».

[رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه]

وعليه أن يتذكر قول سيدنا عمر رضي الله عنه:

(من اتقى الله لم يُشفِ غيظه ، ومن خاف الله لم يفعل ما يريد ، ولولا يوم القيامة لكان غير ما ترون). [أخرجه ابن أبي الدنيا]

وقول محمد بن كعب القرظي: ثلاث من كن فيه استكمل الإيمان بالله ، إذا رضي لم يدخله رضاه في باطل ، وإذا غضب لم يخرجه غضبه عن الحق ، وإذا قدر لم يتناول ما ليس له. [رواه ابن أبي الدنيا]

وقول لقمان لابنه: يا بني لا تذهب ماء وجهك بالمسألة ، ولا تشف غيظك بفضيحتك ، واعرف قدرك تنفعك معيشتك.

وثانياً ـ أن يخوف نفسه بعقاب الله فيقول: قدرة الله علي أعظم من قدرتي على هذا الإنسان ، فلو نفذت غضبي عليه فما آمن أن يمضي الله غضبه علي يوم القيامة وأنا أحوج ما أكون إلى العفو ، ويتذكر القول المأثور: إذا دعتك قدرتك على الآخرين فتذكر قدرة الله عليك.

ثالثاً ـ أن يحذر نفسه عاقبة العداوة والانتقام وتشمر العدو لمقابلته والسعي في إيذائه.

ورابعاً ـ أن يتفكر في قبح صورته عند الغضب ، بأن يتمثل صورة غيره في حالة غضبه.

وأما العلاج العملي:

أولاً ـ أن يقول عند غضبه أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

عن سليمان بن صُرَدٍ رضي الله عنه قال:

(استَبَّ رجلان عند النَّبي ﷺ فجعل أحدُهما يَغْضَب ويحَمرُّ وجهُهُ وتنتفخُ أودَاجُهُ فنظرَ إليه النَّبي ﷺ فقال:

إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ذا: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

فقام إلى الرجل رجل ممن سمع النَّبي ﷺ فقال:

هل تدري ما قال رسول اللهِ ﷺ آنفاً؟

قال: لا. قال: إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ذا: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

فقال له الرجل: أمجنوناً تراني؟. [رواه البخاري ومسلم]

ثانياً ـ اللجوء إلى السكوت:

روي عن النَّبي ﷺ أنه قال:

«إذا غضب أحدكم فليسكت» رواه أحمد.

ثالثاً ـ فإن لم يذهب الغضب عنه يجلس إن كان قائماً، ويضطجع إن كان جالساً:

عن أبي ذر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

«إذا غضب أحدُكم وهو قائمٌ فليجلسْ، فإن ذهب عنه الغضب وإلا فليضطجع». رواه أبو داود وابن حبان في صحيحه.

وقال ﷺ:

«إن الغضب جمرة توقد في القلب، ألم تروا إلى انتفاخ أوداجه وحمرة عينيه، فإذا وجد أحدكم من ذلك شيئاً فإن كان قائماً فليجلس وإن كان جالساً فلينم». [رواه الترمذي]

رابعاً ـ فإن لم يسكن غضبه فليتوضأ أو يغتسل:

عن أبي وائل القاضي قال:

دخلنا على عروَة بن محمد السَّعديّ فكَلَّمَه رجلٌ فأَغْضَبَه، فقام فتوضأ فقال:

حدَّثني أبي عن جدي عَطِيَّة رضي الله عنه قال:

قال رسول الله ﷺ:

«إن الغضب من الشيطان، وإن الشيطان خلق من النار، وإنما تُطْفَأُ النار بالماء، فإذا غضب أَحَدُكم فليتوضأ». [رواه أبو داود]

والمقصود من هذا أن ينتقل الإنسان من حالة إلى حالة ليتفكر في قبح الغضب وجمال الحلم ، ومتى اتجه عقله إلى هذه الناحية سكن غضبه .

وقد أخبر رسول الله ﷺ بالعلاج العملي العقلي والعلاج العملي التطبيقي معاً :

فقد روي أن أبا ذر قال لرجل : يا ابن الحمراء (في خصومة بينهما) .

فبلغ ذلك رسول الله صلوات الله عليه وسلامه فقال :

«يا أبا ذر بلغني أنك اليوم عيرت أخاك بأمه» .

فقال : نعم ، فانطلق أبو ذر يرضي صاحبه ، فسبقه الرجل فسلم عليه فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال :

«يا أبا ذر ارفع رأسك فانظر ، ثم اعلم أنك لست بأفضل من أحمر فيها ولا أسود ، إلا أن تفضله بعمل .

ثم قال : إذا غضبت فإن كنت قائماً فاقعد ، وإن كنت قاعداً فاتّكِىء ، وإن كنت متكئاً فاضطجع» . [أخرجه ابن أبي الدنيا بإسناد صحيح]

* * *

الكاظمين الغيظ والعافين عن الناس
(مسرحية من روائع واقعنا التاريخي)

الراوي: يروى في كتب الأدب أن معن بن زائدة كان أميراً على العراق، وكان حليماً كريماً يضرب به المثل فيهما، وقد قدم عليه أعرابي يمتحن حلمه:

(يفتح الستار عن الأمير جالساً على كرسي الإمارة).

الحاجب: سيدي الأمير بالباب أعرابي يريد مقابلتك.

الأمير: دعه يدخل.

الحاجب: أمرك سيدي.

الأعرابي: ينظر إلى الأمير نظرة سخرية ويقول:

أتذكر إذ لحافُك جلد شاة وإذ نعلاك من جلد البعير

الأمير: نعم أذكر ذلك ولا أنساه.

الأعرابي:

فسبحان الذي أعطاك ملكاً وعلمك الجلوسَ على السرير

الأمير: سبحانه وتعالى.

الأعرابي:

فلست مسلّماً إن عشت دهراً على معن بتسليم الأمير

الأمير: يا أخا العرب، السلام سنة.

الأعرابي:

سأرحل عن بلاد أنت فيها ولو جار الزمان على الفقير

الأمير: يا أخا العرب إن جاورتنا فمرحباً بك، وإن رحلت فمصحوباً بالسلامة.

الأعرابي:

فجد لي يا ابن ناقصة بشيء   فإني قد عزمت على المسير

الأمير: (يخاطب حاجبه) أعطوه ألف دينار يستعين بها على سفره.

الحاجب: (يخرج ثم يعود بكيس من النقود يقدمه للأعرابي).

الأعرابي: (يأخذ الكيس وينظر إليه بازدراء) ويقول:

قليل ما أتيت به وإني   لأطمع منك بالمال الكثير

الأمير: أعطوه ألفاً آخر.

الحاجب: (يخرج ويعود بكيس آخر يقدمه للأعرابي).

الأعرابي: (فيأخذه ويقول):

سألت الله أن يبقيك ذخراً   فمالك في البرية من نظير

الأمير: أعطوه ألفاً آخر.

(ويخرج الحاجب ويعود بكيس ثالث يقدمه للأعرابي فيأخذه ويقول):

يا أمير المؤمنين ما جئت إلا مختبراً حلمك لما بلغني عنه، فلقد جمع الله فيك من الحلم مالو قسم على أهل الأرض لكفاهم.

الأمير: يا غلام كم أعطيته على نظمه؟

الحاجب: ثلاثة آلاف دينار.

الأمير: أعطه على نثره مثلها، والآن قم بنا أيها الأعرابي لنتناول الطعام ويخرجان.

* * *

واجبات الآباء والمربين

عندما يكون الآباء والمربون على مستوى المسؤولية في تربية أبنائهم وبناتهم ، وعندما تكون تربية الأبناء شغلهم الشاغل واهتمامهم الكبير وسعيهم المتواصل ، عندها نرى هؤلاء الآباء والمربين هم قدوة حسنة صالحة فيما يسعون إليه ويغرسونه في أبنائهم ، وحينها يمكن الحديث عن واجبات وتوجيهات للآباء والمربين في موضوع الحلم وترك الغضب ، إذ على المربي أن يتذكر أنه مالم يرتقِ بنفسه إلى المستوى الذي يريد لمن يربيهم أن يتعلموه ، ومالم يتمثل الأخلاق والمبادىء التي يلقنهم إياها ، ومالم يَنْصِبْ من نفسه قدوة صالحة وأسوة حسنة أمامهم ، مالم يفعل ذلك كله فكل جهد يبذل حين ذلك في التوجيه والتعليم مشكوك في جدواه ، فإذا أدرك الآباء والمربون ذلك ، فهذه هي أهم الواجبات المترتبة عليهم حيال أبنائهم فيما يتعلق بموضوع الحلم والابتعاد عن الغضب وذلك بعد أن يدرس الآباء والمربون طبقات أبنائهم التي خلقوا عليها في غضبهم وفيئهم فإن كانوا من الأخيار (بطيء الغضب سريع الفيء) فليحمدوا الله عز وجل على فضله وكرمه ورحمته ، ومن كان خلقه على غير ذلك عولج بقدر حاجته التي خلق فيها وذلك :

أولاً ـ أن يوضح الآباء والمربون للناشئة معنى الحلم وأهميته وما يتعلق به وضرورة التسمك به على أنه خلق إسلامي فاضل لابد منه والابتعاد عن الغضب المذموم لعواقبه الوخيمة ومآله السيء .

ثانياً ـ أن يراقبوا أبناءهم الناشئين في طريقة معالجتهم لأمور حياتهم المختلفة ويوجهونهم نحو الحلم وترك الغضب .

ثالثاً ـ أن يعالجوا من كان منهم سريع الغضب بتذكيره دائماً بسوء هذا التصرف وعواقبه الوخيمة ويسعوا لتوضيح ذلك كلما أدركه الغضب ، كما يسعوا لإبعاده عن الحالات التي تسبب له سرعة الغضب ، ويوجهونه نحو الرياضة الروحية والأصدقاء الصالحين وممارسة الهوايات الجماعية والأنشطة التعاونية التي تبرز شخصيته واهتمام الآخرين وتقديرهم له مع استيعابهم لحالته والمساعدة في علاجها بالطرق الصحيحة والتفاهم الكامل.

رابعاً ـ أن يشجعوا الناشئة عند كل موقف يظهر فيه الحلم وترك الغضب وذلك بإبراز الموقف وإظهاره للآخرين بالتحدث عنه وبشكله الحسن والمكافأة عليه وطلب المزيد منه في مواقف أخرى.

خامساً ـ وقبل كل ذلك الالتجاء إلى الله أن يخلق أبناءهم بالأخلاق الحسنة وأن يجملهم بالحلم والابتعاد عن الغضب ، وأن يعينهم على تربية أبنائهم التربية الحسنة ، ويبدل أخلاقهم السيئة بأخلاق حسنة تفضلاً منه وتكرماً إنه قريب سميع مجيب.

* * *

العبرة والتطبيق:

أيها الناشئة [المؤمن والمؤمنة]:

بعد أن درست خلق الحلم وما يتعلق به من تعريفه وذكر أهميته وغير ذلك وتوصلت إلى ضرورة التخلق بهذا الخلق الذي هو سيد الأخلاق ، والابتعاد عن ضده وهو الغضب المذموم لسوء مآله ، وجب عليك ما يلي:

أولاً ـ أن تدرس شخصيتك وما خلقك الله عليه من الغضب والفيء ، فإن كنت كما يرضى الله ورسوله شكرت الله وحمدته على ذلك ، وإن كنت سريع الغضب قررت أن تربي نفسك وتهذبها بطريقة العلاج المذكورة في البحث ، مع مراقبة نفسك دائماً وإعلامها أنها تحت المراقبة فتبعدها عن أي شيء يغضبها ، وإذا ما غضبت نبهتها إلى مرضها وضرورة اجتناب هذا المرض والبعد عنه واستبداله بالحلم والتحلم وكظم الغيظ والعفو.

ثانياً ـ تضع نصب عينيك صورة الحلم وأهميته ، وتحاول علاج أمورك مع الناس ، الخاصة والعامة ضمن هذا الخلق الذي يرضي الله ورسوله ويرضي الناس جميعاً.

ثالثاً ـ أن تتخلق بخلق الحلم وتبتعد عن الغضب بلا إفراط أو تفريط في أي منهما.

رابعاً ـ أن تغضب لله إذا ما انتهكت حرمة من حرماته ، وذلك بالحكمة التامة التي تحقق إزالة المنكر وإصلاح حال العصاة ، دون فظاظة أو قسوة أو ضرر بالآخرين أي بالحكمة والموعظة الحسنة.

خامساً ـ إن غضبت فليكن غضبك غضب اعتدال ، دفاعاً عن نفسك أو دينك ، أو عرضك أو مالك أو دفاعاً عن الحقوق العامة ونصرة المظلوم.

سادساً ـ إن غضبت لغير ذلك ، فاعلم أن هذا الغضب هو غضب مذموم ، فحاول الابتعاد عنه بالابتعاد عن أسبابه ، ومعالجته بالطريقة المذكورة سابقاً .

سابعاً ـ أن ترشد الآخرين من إخوتك وأقاربك وأصدقائك إلى أهمية خلق الحلم والتخلق به والابتعاد عن الغضب المذموم لسوء عاقبته .

ثامناً ـ إن شاهدت أحد الأشخاص وهو في حالة غضب حاول أن تهدِّىء من روعه وتنبهه إلى ضرورة الابتعاد عن غضبه ومساعدته ليتخلق بالحلم ، وذلك بالحكمة والحجة والأمثلة العلمية والقصص الواقعية .

تاسعاً ـ راقب إخوتك وأقرباءك وأصدقاءك وأخلاقهم في الغضب والفيء ، وبين لهم حالتهم واشرح لهم طرق العلاج وأهمية ذلك ، وساعدهم في تخلقهم بالحلم المحمود والابتعاد عن الغضب المذموم .

عاشراً ـ ادع في كل المناسبات والحفلات واللقاءات التي تتاح لك مع الآخرين إلى هذا الخلق العظيم وضرورة التمسك والتخلق به ، مبيناً أهميته وضرورة الابتعاد عن ضده وهو الغضب المذموم ، موضحاً أضراره وسيئاته .

* * *

خُلُقُ الصَّبرِ

٩

تعريف الصبر:

الصبر في اللغة معناه الحبس والكف ، يقال: صَبَّرْت نفسي على ذلك الأمر أي حبستها ، وصبرت نفسي على ذلك الشيء: أي كففتها.

والصبر في الاصطلاح الأخلاقي الديني: هو حبس النفس على ما يقتضيه العقل والشرع ، أو عما يقتضيان حبسها عنه ، وذلك بحبس النفس عن الجزع والتسخط ، وحبس اللسان عن الشكوى وحبس الجوارح عن التشويش.

وضد الصبر هو الجزع ، ولذلك جاء في القرآن الكريم:

﴿ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَجَزِعۡنَآ أَمۡ صَبَرۡنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٖ ﴾. [إبراهيم: ٢١]

والصوم يسمى صبراً لما فيه من حبس النفس عن الطعام والشراب والشهوة ، لذلك يسمى رمضان شهر الصبر ، لأنه شهر الصوم أي شهر حبس النفس.

والمصابرة: هي مطاولة الغير في الصبر.

والتصبر: هو تكلف الصبر.

والاصطبار: زيادة الاحتمال في مجال الصبر.

قال تعالى:

﴿ فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦ ﴾. [مريم: ٦٥]

وقال تعالى:

﴿ وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَا ﴾. [طه: ١٣٢]

وقال أيضاً :

﴿ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ ﴾ . [القمر : ٢٧]

والصبّار والصبور : من صيغ المبالغة في الصبر وحبس النفس ومجاهدتها .

لذلك قيل مراتب الصابرين خمسة :

صابر ، ومصطبر ، ومتصبر ، وصبور ، وصبّار .

فالصابر : أعَمّهَا ، والمصطبر : المكتسب الصبر المليء به .

والمتصبر : المتكلف حامل نفسه عليه ، والصبور : العظيم الصبر الذي صبره أشد من صبر غيره ، والصبَّار : الكثير الصبر .

وكلمة الصبر فيها معنى الانتظار وعلى هذا جاء قول الله تعالى :

﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴾ . [الإنسان : ٢٤]

أي انتظر .

وفيها معنى الاستقامة والمداومة ، قال تعالى :

﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَوٰةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾ .

[الكهف : ٢٨]

أي احبس نفسك معهم ، واستقم على ملازمتهم .

والصبر قوة خلقية من قوى الإرادة ، تمكن الإنسان من ضبط نفسه لتحمل المتاعب والمشقات والآلام ، وضبطها عن الاندفاع بعوامل الضجر والجزع ، والسأم والملل ، والعجلة والرعونة ، والغضب والطيش ، والخوف والطمع ، والأهواء والشهوات والغرائز .

والصبر تحمل مكاره الحياة ، وعدم الجزع لنوائب الدهر ونكباته ، وهو الدواء الشافي لمن ملك الحزن نفسه ، والبلسم المعافي لمن قبض الجزع على زمام عواطفه ، بل هو عين الراحة ، وينبوع الفرح ، ومبيد الهموم ، ومزيل الغموم ، ولا سبيل إلى ما علق بالمرء من الأحزان إلا التمسك به والتعلق بأهدابه ، فهو ركن حصين في محاربتها ، وعماد قويم على دفعها .

فالصبر حالة نفسية تجد الصابر فيها ساكناً هادئاً ، حامداً شاكراً ، واثباً على العمل وكأنه في حالة عادية لا يضجر ، ولا يشكو ، ولا يغضب ، ولا يتذمر ، ولا يعبس.

من هنا نجد أن الصبر لازم في كل حال وفي كل زمان ، وهو غريزة في الإنسان تزيد وتنقص ، إلا أنها شأن الغرائز تنمو بالعلم والمران والتجارب.

أهمية الصبر :

لخلق الصبر أهمية كبيرة تظهر فيما يلي :

أولاً ـ الصبر صفة من صفات الله :

فالله جل جلاله هو (الصبور) أي الذي لا يعاجل العصاة بالانتقام والعقاب ، وفي الحديث القدسي الذي رواه النبي ﷺ عن ربه :

«إني أنا الصبور».

وفي الحديث النبوي : «لا أحد أصبر على أذى يسمعه من الله عز وجل».

ومعنى (الصبور) قريب من معنى (الحليم) ، والفرق بينهما أن المذنب لا يأمن العقوبة في صفة الصبور كما يأمنها في صفة الحليم.

ثانياً ـ الصبر خلق أكثر القرآن الكريم من ذكره أكثر من أي خلق آخر :

حتى قال الإمام أحمد :

الصبر في القرآن في نحو تسعين موضعاً ، وقد كرر القرآن الأمر بالصبر ، فتكررت كلمة (اصبر) تسع عشرة مرة ، وتكررت كلمة (اصبروا) ست مرات.

ولذلك قال العلماء : إن الصبر واجب بإجماع الأمة ، ولا عجب فهو نصف الإيمان ، لأن الإيمان شطران فنصفه صبر ، ونصفه شكر.

كما ذكر ابن مسعود رضي الله عنه :

الإيمان نصفان ، نصف صبر ، ونصف شكر.

وكذلك اهتم القرآن الكريم بموضوع الصبر بذكر عدد من قصص

الصابرين ، تعليماً لنا وإرشاداً كصبر سيدنا إبراهيم وابنه إسماعيل ، وصبر أيوب وصبر يوسف .

ثالثاً ـ الصبر صفة من صفات الأنبياء والمرسلين :

قال تعالى عن أيوب :

﴿ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ . [ص : ٤٤]

وقال تعالى :

﴿ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ . [الأنبياء : ٨٥ ـ ٨٦]

فقد صبر أيوب على ما أصابه من ضر في بدنه ، وعلى فقده أهله .

وصبر إسماعيل على طاعة الله تعالى فيما أمر الله والده إبراهيم بذبحه فقال :

﴿ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ . [الصافات : ١٠٢]

فكان جزاء الصابرين : ﴿ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾ . [الصافات : ١٠٧]

وصبر يعقوب على امتحان الله بفراق أحب أبنائه إليه يوسف ومن بعده شقيقه الأصغر الذي قيل إن اسمه (بنيامين) ، فقال بعد فراق يوسف :

﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ . [يوسف : ١٨]

وقال بعد فراق الثاني :

﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ .
[يوسف : ٨٣]

كذلك صبر يوسف الصديق عن معصية الله تعالى ، بل صبر على سلسلة متلاحقة من البلاء ، فمحنة إخوته وكيدهم له ، محنة فقد الأحبة محنة الرق ، ومحنة امرأة العزيز وكيدها العظيم ، ومحنة السجن ، ثم محنة السراء والعافية ، المنصب والوزارة .

ويخاطب الله عز وجل سيدنا محمد ﷺ :

﴿ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾ . [يونس : ١٠٩]

وقال سبحانه:

﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ﴾ .

[الأنعام: ٣٤]

وهذا النوع من الصبر الذي أمر الله به هو الصبر على مشاق الدعوة إلى الله ، إنه صبر أولي العزم من الرسل ، الذين أمر الله خاتم رسله وصفوة خلقه ورحمته إلى العالمين ، أن يتخذ منهم أسوة في صبرهم.

﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ . [الأحقاف: ٣٥]

وأولي العزم من الرسل هم: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بالإضافة إلى سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام لاقوا من العنت والأذى والبلاء أكثر مما لقيه غيرهم من المرسلين ، وهم الذين خصهم الله بالذكر في قوله:

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴾ . [الأحزاب: ٧]

رابعاً - الصبر من أهم الأخلاق التي تخلق بها النبي ﷺ وأمر بها وحث عليها:

وهذا ما يجده المؤمن إذا تصفح سيرة المصطفى ﷺ في كل دعوته وحياته ، فقد صبر على دعوة قومه ، وصبر على أذاهم ، وصبر على تربيتهم ، وصبر على تصرفاتهم وأقوالهم وأعمالهم ، فلقد كان في خلق الرسول الذي فطر عليه خلق الصبر ، الذي كان يظهر في تحمله وحلمه وأناته ، وزاد هذا الخلق ونما في نفس الرسول ، بألوان التربية التي أدبه الله بها ، وبالتجارب الكثيرة التي مارسها في حياته صلوات الله عليه ، فكان أعظم قدوة حسنة للناس في فضيلة خلق الصبر ، وفي خلق الصبر تظهر فضائل كثيرة من فضائل السلوك الخلقي.

ومع قدوة النبي ﷺ في الصبر ، أمر بالصبر وحث عليه وبين أهميته في مجالات كثيرة ، وأحاديث متعددة نذكرها أثناء تبيان أنواع الصبر.

ومن جملة ما روي عن النبي ﷺ في الصبر.

عن رسول الله ﷺ في حديث طويل جاء فيه قول الرسول ﷺ يصف الصبر بقوله:

«والصبر ضياء». [رواه مسلم]

وعن أبي يحيى صهيب بن سنان رضي عنه قال:

قال رسول الله ﷺ:

«عجباً لأمر المؤمن، إن أمره كله له خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له».

[رواه مسلم]

خامساً ـ الصبر من أهم صفات وأخلاق الصحابة الكرام:

عندما نقرأ سيرة وقصص الصحابة الكرام، وخاصة المشهورين منهم نجد أن الصبر من أهم صفاتهم وأخلاقهم التي تحلوا بها، فقد صبروا على أذى المشركين، وصبروا في الدعوة إلى الله، وصبروا في جهاد نفوسهم وجهاد أعدائهم وصبروا في نشر الإيمان في نفوس العباد، وصبروا في فتح البلاد وصبروا على الفقر والشدة والتعب والنصب، وصبروا في العبادة والعمل بأوامر الله، والانتهاء عما نهى الله عنه، وصبروا في حياتهم كلها وفي مجالات أعمالهم، والأمثلة على ذلك كثيرة ومتعددة.

من هؤلاء الصابرين، عمار بن ياسر وأسرته، حيث كان يمر بهم رسول الله ﷺ ويرى عذاب أهل الكفر لهم فيقول لهم:

«صبراً آل ياسر موعدُكم الجنة».

ومنهم بلال الحبشي وصهيب الرومي وخباب بن الأَرَت ومصعب بن عمير وسعد بن أبي وقاص، رضي الله عنهم أجمعين، وجمعنا بهم يوم القيامة.

وإلى جانب صبرهم كانوا يدعون إلى الصبر ويأمرون به، فقد وجد في رسالة عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أبي موسى الأشعري:

(عليك بالصبر ، وأعلم أن الصبر صبران أحدهما أفضل من الآخر ، والصبر في المصيبات حسن ، وأفضل منه الصبر عما حرم الله تعالى).

وقال سيدنا علي كرم الله وجهه :

(بني الإسلام على أربع دعائم : اليقين والصبر والجهاد والعدل).

وقال أيضاً :

(الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ، ولا جسد لمن لا رأس له ، ولا إيمان لمن لا صبر له).

سادساً ـ الصبر من أهم صفات الصالحين والأولياء والمقربين والدعاة المخلصين :

كذلك الأمر إذا تصفحنا سيرة وقصص هؤلاء ، نجد أن الصبر من أهم صفاتهم وأخلاقهم ، والقصص في صبرهم في مجالات متعددة أكثر من أن تحصى أو تعد.

سابعاً ـ الصبر من عزم الأمور :

الصبر هو ـ كما يحدثنا القرآن الكريم ـ خلق أهل العزيمة القوية وأصحاب الإرادة الماضية ، الذين يعرفون الخير ، ويعزمون عليه ، ويمضون فيه ، لا ينثنون عنه مهما كلفهم من تعب أو مشقة.

ومن هنا جعل القرآن الصبر من (عزم الأمور) ، والعزم هو عقد القلب على إمضاء الأمر ، وهو أيضاً المحافظة على ما يؤمر الإنسان به ، وقيل إن عزم الأمور هو محكم الأمور ، قال الله تعالى :

﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ . [الشورى : ٤٣]

وقال أيضاً :

﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ . [لقمان : ١٧]

وقال :

﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ . [آل عمران : ١٨٦]

ثامناً ـ الصبر هو طريق الخير:

وهذا ما بينه القران الكريم: ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾.

[النحل: ١٢٦]

﴿وَأَن تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. [النساء: ٢٥]

قال الحسن: الصبر كنز من كنوز الخير، لا يعطيه الله عز وجل إلا لعبد كريم عنده.

تاسعاً ـ الصبر نتائجه حسنة مضمونة وثوابه عظيم جزيل:

بالصبر يتمكن الإنسان بطمأنينة وثبات، أن يضع الأشياء في مواضعها، ويتصرف في الأمور بعقل واتزان، وينفذ ما يريد من تصرف في الزمن المناسب وبالطريقة المناسبة الحكيمة، وعلى الوجه المناسب الحكيم، بخلاف عدم الصبر الذي يدفع إلى التسرع والعجلة، فيضع الإنسان الأشياء في غير مواضعها، ويتصرف برعونة، وربما يكون صاحب حق أو يريد الخير فيغدو جانياً أو مفسداً، ولو أنه اعتصم بالصبر لسلم من كل ذلك.

فنتائج الصبر وثوابه عديدة وعظيمة في الدنيا والآخرة ومن أهمها:

أن أهل الصبر يستحقون البشرى من الله عز وجل:

﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾. [البقرة: ١٥٥]

ويستحقون محبة الله عز وجل:

﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾. [آل عمران: ١٤٦]

ويستحقون معية الله التي فيها التأييد والنصر والتكريم والمعونة والمثوبة.

قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾.

[البقرة: ١٥٣]

وقال تعالى: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾. [البقرة: ٢٤٩]

وقال تعالى:

﴿ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ .

[الأنفال: ٤٦]

ويستحقون الثواب الجزيل ، فبعد أن تحدث عن الصابرين قال:

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾ .

[البقرة: ١٥٧]

وقد وعد الله عز وجل الصابرين بمضاعفة أجورهم:

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡتَوۡنَ أَجۡرَهُم مَّرَّتَيۡنِ بِمَا صَبَرُواْ﴾ . [القصص: ٥٤]

وقد ذكر القرآن الكريم أكثر من مرة أن عاقبة الصابرين ، هي نعيم الجنة العظيم ، فقد قال عن عباد الرحمن:

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوۡنَ فِيهَا تَحِيَّةٗ وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ حَسُنَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا﴾ . [الفرقان: ٧٥ ـ ٧٦]

الغرفة: أعلى منازل الجنة وأفضلها.

وقال:

﴿ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةٗ وَحَرِيرٗا﴾ . [الإنسان: ١٢]

ويؤكد القرآن عظيم الثواب للصابرين وضمانه لهم فيقول:

﴿ وَلَنَجۡزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ . [النحل: ٩٦]

وقال:

﴿ إِنِّي جَزَيۡتُهُمُ ٱلۡيَوۡمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾ . [المؤمنون: ١١٢]

وقال: ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ .

[يوسف: ٩٠]

وينتهي بنا القرآن الكريم في تكريم الصابرين إلى أن ثوابهم غير محدود ، بل هو موكول لفضل الله العظيم الذي لا حدود له ولا قيود ، فيقول:

﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ . [الزمر: ١٠]

قال الشاعر:

الصبر مثل اسمه، مر مذاقته | لكن عواقبه أحلى من العسل

عاشراً ـ الصبر مما اهتم به الشعراء لمنزلته العظيمة:

قال الشاعر:

لا تحسبن المجد تمراً أنت آكله | لن تبلغ المجد حتى تلعق الصبرا

وقال آخر:

اصبر ففي الصبر خير لو علمت به | لكنت باركت شكراً صاحب النعم
واعلم بأنك إن لم تصطبر كرماً | صبرت قهراً على ما خُط بالقلم

وقال غيره:

تصبَّر ففي الأوار قد يحمد الصبر | ولولا صروف الدهر لم يعرف الحرُّ

الأوار: الشدة. صروف الدهر: مصائبه ونوائبه.

وقال آخر:

عليك بالصبر فيما قد مُنيتَ به | فالصبر يذهب ما في الصدر من حرج
كم ليلة من هموم الدهر مظلمة | قد ضاء من بعدها صبح من الفرج

وقال غيره:

إن الأمور إذا سدت مسالكها | فالصبر يفتح منها كل ما أرتجا
لا تيأسن وإن طالت مطالبها | إذا استعنت بصبر أن ترى فرجا
أخلق بذي الصبر أن يحظى بحاجته | ومُدمِن القرع للأبواب أن يلجا

ما أرتجا: ما أغلق.

أنواع الصبر:

للصبر أنواع متعددة ومجالات كثيرة، ولكن أهم هذه الأنواع ما يلي:

أولاً ـ الصبر على الطاعات:

ويعني الصبر على الطاعة الاستمساك بأدائها، هذا وإن الطاعات والقربات

تحتاج أثناء القيام بها والمداومة عليها إلى تحمل ومعاناة ، ومجاهدة للنفس ، وكل ذلك يحتاج إلى صبر.

فالصلاة مثلاً فريضة متكررة يقول الله فيها:

﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾. [طه: ١٣٢]

ويقول تعالى:

﴿ رَّبُّ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴾.

[مريم: ٦٥]

ويقول تعالى:

﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَوٰةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَٰشِعِينَ ﴾. [البقرة: ٤٥]

فالصلاة تحتاج إلى وضوء ، والوضوء يحتاج إلى صبر ، وخاصة في أيام الشتاء الباردة.

والصلاة تحتاج إلى صبر وخاصة صلاة الصبح تحتاج ممن يؤديها أن يستيقظ في الليل ، ويترك الفراش الناعم ، وهذا يحتاج إلى صبر ، وكذلك الصوم يحتاج إلى صبر يساعد على ترك الطعام والشراب والشهوات ، ولذلك سمي رمضان بشهر الصبر.

وكذلك سائر العبادات والطاعات والقربات الموصلة إلى رضاء الله عز وجل تحتاج إلى صبر.

يقول الله سبحانه في إحدى كتبه: (من صبر علينا وصل إلينا).

حتى عشرة المؤمنين ، والإبقاء على مودتهم ، والإغضاء عن هفواتهم خصال تعتمد على الصبر الجميل:

﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَوٰةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾.

[الكهف: ٢٨]

ومن الطاعات الدعوة إلى الله ، والدعوة إلى الله تحتاج إلى صبر شديد من قبل الدعاة؛ ليتمكنوا من دعوة الناس إلى الله عز وجل ، ويتحملوا مشاق هذه الدعوة ، قدوتهم في ذلك رسول الله ﷺ.

قال الله تعالى :

﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ .

[السجدة : ٢٤]

وقد ذكر الله ذلك على لسان لقمان الحكيم حيث وصى ابنه بالصبر على ما يصيبه من بلاء وأذى ، عقب وصية له بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فقال تعالى على لسانه :

﴿ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ . [لقمان : ١٧]

وفي هذا المجال أمر الله رسوله أن يصبر على إيذاء قومه لدعوته إياهم بمثل قوله تعالى :

﴿ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴾ . [المزمل : ١٠]

والأنبياء جميعاً يمثلون هذا النوع من الصبر ، ولهذا حكى الله على لسانهم هذا القول رداً على أقوامهم :

﴿ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ . [إبراهيم : ١٢]

والأخلاق الفاضلة بحد ذاتها تحتاج إلى الصبر عند التخلق بها وتطبيق سلوكها .

فالصدق وحفظ اللسان من آفاته يحتاج إلى صبر .

والشجاعة وعدم الجبن تحتاج إلى صبر ، والحلم وترك الغضب يحتاج إلى صبر ، وهكذا كل الأخلاق الفاضلة ، وكذلك مراقبة الحواس والجوارح واستخدامها بما يرضي الله سبحانه يحتاج كل ذلك إلى صبر .

شعار المؤمن في كل ذلك قول الشاعر :

سأصبر كي ترضى وأُتلَف حسرة ... وحسبيَ أن ترضى وتُبلِّغَني صبري

وقد قيل :

اصبروا بنفوسكم على طاعة الله ، وصابروا بقلوبكم على البلوى من الله ، ورابطوا بأسراركم على الشوق إلى الله .

وقيل :

اصبروا على النعماء ، وصابروا على البأساء والضراء .

وقيل : الصبر لله غناء وبالله بقاء وفي الله بلاء ومع الله وفاء .

ثانياً ـ الصبر عن المعاصي :

وهو عنصر المقاومة للمغريات والشهوات ، التي بثت في طريق الناس ، وزينت لهم اقتراف المآثم المحظورة قال رسول الله ﷺ :

«حفت الجنة بالمكاره ، وحفت النار بالشهوات» . [رواه مسلم]

والإقبال على المكاره والإدبار عن الشهوات لا يتأتى إلا لصبور ، والصبر هنا أثر اليقين الحاسم ، والاتجاه الجازم إلى ما يرضي الله ، وهو روح العفاف الذي يحمي المؤمن من أوازار الدنايا ومكر السيئات .

﴿رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ﴾ . [الأعراف : ١٢٩]

ثالثاً ـ الصبر على ما يصيب المؤمن من البلاء :

وذلك بملاحظة حسن الجزاء ، وانتظار روح الفرج ، وتهوين البليّة بِعَدِّ أيادي المنن ، وبذكر سوالف النعم . والبلاء الذي يصيب المؤمن متعدد في نفسه ، أو ماله ، أو منزلته ، أو أهله وهذا مما لا يدخل تحت الاختيار ، كالمصائب مثل موت الأحبة ، وهلاك الأموال وعمى العين ، وزوال الصحة ، وسائر أنواع البلاء .

فالصبر على ذلك من أعلى المقامات لأن سنده اليقين .

وتلك كلها أعراض متوقعة وهيهات أن تخلو الحياة منها ، وإذا لم يصب أحد بسيلها الطام ضربه رشاشها المتناثر .

وكل ذلك بتقدير الله وقدره ، وهو امتحان واختبار وبلاء من الله ، لينال المؤمن بذلك المنزلة التي يستحقها مع حب الله ورضاه ، ولا يساعده على ذلك إلا الصبر الذي هو دواء لكل داء .

قال الله تعالى:

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾. [البقرة: ١٥٥ ـ ١٥٧]

ومن لطف الله تعالى ورحمته هنا أنه جعل البلاء بـ(شيء) ، وتنكير (شيء) هنا كما يدل عليه السياق ـ للتقليل ـ والتحقير ، لأن ما هو أكثر وأكبر لا يطيقونه ، فمسهم بشيء قليل من البلاء تخفيفاً عنهم ورحمة بهم وتقديراً لضعفهم.

والبلاء هنا بلاء عام يصيب القلوب بالخوف ، والبطون بالجوع ، والأموال بالنقص ، والأنفس بالموت ، والثمرات بالآفات ، وهذا البلاء العام لكل المخلوقات ، إنما لاختبارهم وتحديد مقدار ودرجة إيمانهم قال تعالى:

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ ﴾. [محمد: ٣١]

وقال سبحانه وتعالى يصف المؤمنين الصادقين الناجحين في امتحان البلاء:

﴿ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾.

[البقرة: ١٧٧]

البأساء: الفقر. الضراء: المرض. حين البأس: الحرب.

وقال أيضاً:

﴿ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾. [الحج: ٣٥]

هذا ولابد من هذا الاختبار والامتحان لتحديد الصادقين في الإيمان والمنافقين والكاذبين.

قال سبحانه:

﴿ الم ﴿١﴾ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴾. [العنكبوت: ١ ـ ٣]

وكل هذه الامتحانات والاختبارات لابد لها من الصبر ، الذي يعين على تحملها ، ويغرس الرضا والرضوان عن كل ما يصدر من الله وما يكون من قدره ، ومن لم يصبر على بلاء الله وامتحاناته دل ذلك على ضعف إيمانه واتصافه بالنفاق ، كما بين الله ذلك في قوله :

﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ﴾ .

[آل عمران : ١٧٩]

وقوله تعالى :

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴾ . [الحج : ١١]

هذا وقد بينت السنة الشريفة أهمية هذا الصبر وثوابه العظيم في كثير من الأحاديث النبوية ومنها :

ما روي عن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال :

«قال الله تعالى : إذا وجهت إلى عبد من عبادي مصيبة في بدنه أو ولده أو في ماله فاستقبلها بصبر جميل استحييت يوم القيامة أن أنصب له ميزاناً أو أنشر له ديواناً» . [رواه الترمذي]

عن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما :

عن النبي ﷺ قال :

«ما يصيب المسلم من نَصَب ولا وَصَبٍ ولا هَمّ ولا حَزَن ولا أذىً ولا غمٍ حتى الشوكةِ يشاكُها إلا كفَّر الله بها خطاياه» . [رواه البخاري ومسلم]

الوصب : المرض .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال :

قال رسول الله ﷺ :

«ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في نفسه وولده وماله حتى يلقى الله تعالى وما عليه خطيئة» . [رواه الترمذي]

كذلك بيَّن أهل السلف أهمية الصبر ومنزلته العظيمة في أقوالهم وأعمالهم ومنها:

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

أفضل العدة الصبر على الشدة.

وقال علي كرم الله وجهه للأشعث بن قيس:

إذا صبرت جرى عليك القلم وأنت مأجور، وإن جزعت جرى عليك القلم وأنت مأزور.

الوزر: الإثم.

قال بعض الحكماء: من أحب البقاء فليعد للمصائب قلباً صبوراً.

وقال أحد العلماء: اصبر لحكم من لا تجد مُعَوَّلاً إلا عليه، ولا مفزعاً إلا إليه.

وقد قيل: الصبر على الطلب عنوان الظفر، وفي المحن عنوان الفرج.

هذا وإن أمر الله بالصبر الجميل، وهو الذي لا شكوى فيه ولا معه.

وقيل أنواع الصبر ثلاثة:

الأول ـ صبر بالله: أي صبر بالاستعانة به والاعتقاد بأنه هو المصبر، وأن صبر العبد بربه لا بنفسه كما قال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾.

[النحل: ١٢٧]

يعني إن لم يصبرك هو لم تصبر.

والثاني ـ الصبر لله: وهو أن يكون الباعث له على الصبر محبة الله وإرادة وجهه والتقرب إليه، لا لإظهار قوة النفس، والاستحماد إلى الخلق وغير ذلك من الأعراض.

والثالث ـ الصبر مع الله: وهو دوران العبد مع مراد الله الديني منه، ومع

أحكامه الدينية ، صابراً نفسه معها ، سائراً بسيرها ، مقيماً بإقامتها ، يتوجه معها أنَّى توجهت ركائبها وينزل معها أنَّى استقلت مضاربها.

فهذا معنى كونه صابراً مع الله ، أي قد جعل نفسه وقفاً على أوامره ومحابّه ، وهو أشد أنواع الصبر وأصعبها وهو صبر الصديقين.

* * *

واجبات الآباء والمربين

يسعى كل أب ومرب دائماً إلى البلوغ بأبنائه مبلغ الكمال ، وبما أن الإنسان يحتاج في جميع حالاته ومتطلباتها ومواجهاتها إلى الصبر ، كان على الآباء والمربين غرس هذا الخلق في نفوس الأبناء ليساعدوهم على النجاح في هذه الحياة .

ومن أهم هذه الواجبات :

أولاً ـ شرح أهمية الصبر في كل المواقف وضرورة التخلق به .

ثانياً ـ ذكر قصص الصابرين وثواب الله لهم ونتائج هذا الصبر في حياتهم .

ثالثاً ـ مراقبة الأبناء في مقدار صبرهم على ما يواجهونه ، وتوجيههم إلى التوسع في هذا الخلق وتحمل مشاق الحياة .

رابعاً ـ الترغيب الدائم بالتخلق بالصبر في كل مجالات الحياة .

خامساً ـ إظهار المواقف التي تدل على الصبر في أعمال الأولاد واستحسانها وإبراز أهميتها والمكافأة عليها .

* * *

العبرة والتطبيق:

أيها الناشئة [المؤمن والمؤمنة]:

بعد اطلاعك على ما مر في موضوع هذا الخلق العظيم خلق الصبر، واقتناعك بضرورة التمسك والتخلق بهذا الخلق عليك أن تعمل على ما يلي:

أولاً - ادرس نفسك كاملة ولاحظ مدى تطبيقك لهذا الخلق العظيم.

ثانياً - كون لنفسك اقتناعاً واعتقاداً بضرورة التحلي بهذا الخلق بكل أنواعه وفي جميع ظروف الحياة وما فيها من امتحانات وفتن واختبارات وبلاء.

ثالثاً - استغفر الله وتب إليه من المواقف التي مرت معك سابقاً ولم تتخلق فيها بالصبر.

رابعاً - ألزم نفسك الصبر في كل ما يواجهك في هذه الحياة.

خامساً - حاسب نفسك في تصرفاتها ومدى التزامها بهذا الخلق، وعندما تجدها بعيدة عن هذا الخلق توجه بها نحو الالتزام والتمسك به.

سادساً - اقرأ بين الفترة والأخرى قصص الصابرين في القرآن الكريم، وحياة الصحابة والصالحين، ليعينك ذلك على محبة تطبيق هذا الخلق لما يحمله من نتائج مضمونة ناجحة سعيدة، فيها رضاء الله سبحانه في الدنيا والآخرة.

سابعاً - ادع الآخرين من إخوتك وأصدقائك إلى هذا الخلق الكريم، وبين لهم أهميته ونتائجه وضرورة التمسك به في كل مواقف الحياة المختلفة.

ثامناً - حاول إظهار مواقف الصبر في تصرفات أولئك الذين تدعوهم، وأبرزها واستحسنها وكافىء عليها بما يليق بها.

تاسعاً ـ اشكر الله واحمده دائماً على ما وهبك من صبر في مواقفك وتصرفاتك المتعددة.

عاشراً ـ ادع الله دائماً أن يجعلك من الصابرين في كل شؤون حياتك حتى تلقاه وهو راض عنك.

* * *

خُلُقُ التَّوَاضُعِ

١٠

تعريف التواضع :

التواضع في اللغة مأخوذ من مادة (وضع) ، وهي تدل على خفض الشيء .

أما في عرف علماء الأخلاق ، فالتواضع لين الجانب والبعد عن الاغترار بالنفس .

فكأن المتواضع قد كلف نفسه أن يضعها دون منزلتها التي تستحقها ، وأن يهضمها حقها ، ويجنبها الاغترار بذاتها .

فالتواضع اللين مع الخلق ، والخضوع للحق وخفض الجناح .

وعرف مظفر القرميسيني التواضع : بأنه قبول الحق ممن كان ، وذلك بالخضوع له ، والانقياد إليه ولو كان من صغير أو جاهل .

وعرف غيره التواضع : أنه تجمل النفس بالخضوع ، ومنعها من الترفع على الناس ، والاستخفاف بهم ، وحملها على احترامهم مهما اختلفت درجاتهم ، وتباينت مشاربهم ، وعدم الكبر على أحد سواء في ذلك الوضيع والرفيع والصغير والكبير على منزلته في النفوس ويأخذ مكانته في القلوب .

والمتواضع لا يهتم بالمظهر لأنه يعرف أن حقيقة الإنسان في إيمانه وعقله وقلبه وعمله لا في مظهره وشكله ولبسه .

والتواضع خصلة محمودة تدعو إلى التوادد والتعاون ، وتدل على طهارة النفس ، وسلامة الذوق ، فكم رفع التواضع أقواماً فكانوا هم الألى فازوا

برضاء ربهم والفضل العظيم ، وكم خفض الكبر آخرين فحل عليهم غضب الرحمن وباؤوا بالخسران المبين .

والتواضع من مصائد الشرف ، وجالب المحبة ، وموجب الاحترام ، ومن تواضع لله رفعه ، وهو ساتر للعيوب ، إن أصابت المتواضع نائبة ، وجد مشفقين وراحمين وناصرين .

والتواضع إنما يصدق إذا كان على قدرة ، أما إذا رغب الإنسان أو رَهِب أو خاف من شخص فذل له وانكسر معه ، فليس ذلك من التواضع في شيء .

وإنما التواضع من الكبير مع الصغير ، ومن القوي مع الضعيف ، ومن العالم مع الجاهل ، ومن الغني مع الفقير .

وهذا يذكر بقول سيدنا علي رضي الله عنه :

(ما أحسن التواضع بالأغنياء في مجالس الفقراء رغبة منهم في ثواب الله ، وأحسن من ذلك تيه الفقراء على الأغنياء ، ثقة منهم بالله عز وجل) .

والتواضع كالأخلاق الإسلامية كلها ، فيها اعتدال وتوسط فالتواضع اعتدال بين الهُون والتكبر .

فالمتواضع لا إفراط في تواضعه ، حتى يصبح ذليلاً بين الناس ، ولا تفريط فيه ، حتى يصبح متكبراً على الناس . والمؤمن المتواضع يجب أن يعرف لمن يتواضع ومع من يتواضع وكيف يتواضع ، حتى لا يكون التواضع سبباً للمذلة مع من لا يستحق التواضع .

فالمؤمن يتواضع للمؤمن الذي يعرف معنى التواضع ويقدر التواضع ، وينزل الناس منازلهم ، أما غير ذلك ، فلا تواضع معهم ، حتى لا يستهزىء الآخرون بالمتواضع ويذلونه ويسخرون منه .

أهمية التواضع :

تظهر أهمية هذا الخلق العظيم من خلال ما يلي :

أولاً ـ التواضع في القرآن الكريم :

لم ترد كلمة التواضع بلفظها في القرآن الكريم ، ولكن وردت كلمات تشير إليها وتدل عليها ، مما يجيز أن نعد التواضع خلقاً من أخلاق القرآن الذي دعا المؤمنين للتخلق بها والتعامل بعضهم مع بعض من خلالها .

ومن هذه الآيات :

١ ـ قوله تعالى :

﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا ﴾ . [الفرقان : ٦٣]

أي يمشون على الأرض هينين ، أو يمشون مشياً هيناً ، متواضعين بسكينة ووقار .

والهون : بفتح فسكون : هو الرفق والسهولة .

أما الهون : بضم الهاء فهو الهوان أو الذل ، كما قال تعالى : ﴿ فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ ﴾ . [الأحقاف : ٢٠]

٢ ـ قوله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ . [المائدة : ٥٤]

والمراد بالذلة في الآية الكريمة الرحمة والشفقة واللين ، أي التواضع ، وليس المراد بها الهوان فالمؤمن ذلول أي عطوف على مستحق العطف .

وغير المؤمن ذليل أي صاحب هوان .

وفي الأثر : (المؤمن كالجمل الذّلول ، والمنافق والفاسق ذليل) .

٣ ـ قوله تعالى :

﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ . [الفتح : ٢٩]

ومعنى رحماء بينهم : قريب من معنى الآية السابقة ، ومنه معنى التواضع فيما بينهم .

٤ ـ قوله تعالى :

﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ . [القصص: ٨٣]

لا يريدون علواً في الأرض: أي تعالياً وتكبراً على الحق.

كما أن القرآن الكريم أشار إلى أهمية خلق التواضع من ناحية أخرى، من خلال ما أمر الله تعالى به نبينا ﷺ من الاتصاف بخفض الجناح للمؤمنين، وهو إشارة واضحة لكل مؤمن بأن يتصف بهذا الخلق العظيم.

﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ . [الشعراء: ٢١٥]

﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ . [الحجر: ٨٨]

أي تواضع وألن جانبك.

يقول الزمخشري في بيان معنى خفض الجناح:

(إن الطائر إذا أراد أن يهبط من أعلى إلى أدنى كسر جناحه وخفضه، وإذا أراد أن ينهض للطيران رفع جناحه ونشره، فجعل القرآن الكريم خفض الجناح عند النزول أو الهبوط مثلاً في التواضع ولين الجانب).

ومنه قول بعضهم مادحاً:

وأنت الشهير بخفض الجناح ... فلا تك في رفعة أجدلاً

فالشاعر ينهى ممدوحه هنا عن التكبر. والأجدل الصقر، وهذا المعنى الأخلاقي لخفض الجناح يذكرنا بقول النبي ﷺ:

«إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاً بما يصنع».

[رواه الترمذي]

أي تتواضع معه تعظيماً لحقه، أو تضعها وطاء له إذا مشى، وهذا كناية عن التوقير والتكريم.

والخطاب في هاتين الآيتين يتجه إلى سيدنا رسول الله ﷺ، وجاء الخطاب بأسلوب الأمر والطلب، وفي هذا ما فيه من إشارة إلى علو مكانة هذه الفضيلة الأخلاقية القرآنية، ومن تشريف لها عن طريق مطالبة الرسول بها أكثر من

مرة ، ليكون خير قدوة للناس في الاستمساك بهذا الخلق الكريم ، وهو التواضع وخفض الجناح للمؤمنين بعضهم مع بعض.

ثانياً ـ التواضع في السيرة النبوية:

يظهر خلق التواضع في السيرة النبوية مع غيره من الأخلاق الإسلامية من خلال أمرين اثنين:

تخلق الرسول ﷺ به من جهة ، ومن جهة أخرى أحاديثه الشريفة التي يدعو بها إلى التخلق بهذا الخلق.

١ ـ تخلق الرسول ﷺ بالتواضع:

مما أدب الله تعالى به رسوله ﷺ ، أن يتحلى بخلق التواضع وخفض الجناح للمؤمنين: ﴿ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٨].

فالتواضع يتألف القلوب ، ويملكها بالمحبة ، لا سيما إذا كان من عظيم القوم لأتباعه وجنوده ، والمنتمين إليه ، وقد كان الرسول ﷺ ـ كما أدبه ربه ـ متواضعاً خافض الجناح ، لين الجانب ، إذا جلس بين أصحابه كان كأحدهم ، فيأتي قاصد ، فلا يعرفه فيقول: أيكم محمد؟؟

وإذا سار مع أصحابه كان كأحدهم لا يتعالى ولا يترفع عليهم ، ولا يعطي لنفسه امتيازاً إلا ما تقتضيه طبيعة القيادة والأمر والنهي.

روي عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ:

«كان يعود المريض ، ويتبع الجنازة ، ويجيب دعوة المملوك ، ويركب الحمار ، لقد رأيته يوم خيبر على حمار خطامه ليف».

[رواه ابن ماجه والبيهقي في شعب الإيمان]

عن عائشة رضي الله عنها قالت:

(كان رسول الله ﷺ يخصِفُ نَعْلَه ، ويَخيط ثوبَه ، ويعمل في بيته كما يعمل أحدكم في بيته).

وقالت:

(كان بشراً من البشر، يُفَلِّي ثوبه، ويحلب شاته، ويخدم نفسه).

[رواه الترمذي]

روي عن قيس بن حازم:

أن رجلاً أتي به إلى النبي ﷺ فأصابته رِعْدَة، فقال له ﷺ: «هون عليك، فإنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد» رواه ابن ماجه والحاكم عن ابن مسعود البدري.

القديد: اللحم المقدد.

وأراد أصحاب النَّبي ﷺ في سفر أن يهيئوا شاة للطعام، فقال أحدهم: علي ذبحها، وقال آخر: علي سلخها، وقال آخر: علي طبخها، فقال ﷺ: وعلي جمع الحطب.

فقالوا: يا رسول الله نحن نكفيك ذلك.

فقال: «علمت أنكم تكفونني، ولكن أكره أن أتميز عليكم، وإن الله يكره من عبده أن يراه متميزاً بين أصحابه».

ومن قرأ سيرة المصطفى ﷺ وجد أن التواضع لازم الرسول ﷺ في كل صفاته وأعماله، فكان إذا جلس بين أصحابه كان كواحد منهم، وإذا مشىٰ جعل أصحابه أمامه ومشى خلفهم، وإذا أكل جلس على الأرض، وإذا جهل عليه أحد عفى عنه وأرشده حتى يترضاه، وإذا كان في سفر رعى أصحابه وتلطف بهم وساعدهم في شؤونهم، وإن استضاف أحداً أكرمه وأجلسه على وسادته وجلس ﷺ على الأرض.

وكان يجيب دعوة الحر والعبد والأمة والمسكين، ويقبل عذر المعتذر، ويقوم بأعماله المنزلية بنفسه، ويأكل مع الخادم ويقضي حاجة الضعيف.

ولما دخل رسول الله ﷺ مكة فاتحاً، على رأس أعظم جيش، دخل ساجداً على ظهر دابته تواضعاً لله.

٢ ـ أحاديث الرسول ﷺ في موضوع التواضع

أحاديث الرسول ﷺ في موضوع التواضع كثيرة منها :

١ ـ عن عِيَاض بن حَمَّاد رضي الله عنه قال :

قال رسول الله ﷺ :

«إن الله أوحى إلي أن تواضعوا حتى لا يفخَر أحدٌ على أحدٍ ، ولا يبغي أحد على أحد». [رواه مسلم وأبو داود وابن ماجه]

٢ ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه :

أن رسول الله ﷺ قال :

«ما نَقَصَت صدقةٌ من مال ، وما زاد اللهُ عبداً بعفو إلا عزاً ، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله». [رواه مسلم والترمذي]

٣ ـ عن نَصِيح العَنْسي عن رَكْب المصري رضي الله عنه قال :

قال رسول الله ﷺ :

«طوبى لمن تَواضع في غير مَنْقَصَة ، وذَلَّ في نفسه من غير مسألة ، وأَنْفَقَ مالاً جمعَه في غير معصية ، ورحم أهل الذُّل والمسكنة ، وخالط أهل الفقه والحكمة .

طوبى لمن طاب كسبُه ، وصَلَحَت سَرِيرَتُه ، وكرمت علانيته ، وعزل عن الناس شره ، طوبى لمن عمل بعلمه ، وأنفق الفضل من مالهِ ، وأمسَكَ الفضلَ من قَولِه». [رواه الطبراني]

طوبى : مكان في الجنة واسع جداً .

٤ ـ عن أبي سعيد الخُدْرِي رضي الله عنه :

عن رسول الله ﷺ قال :

«من تَواضَع لله درجةً ، يرفعه الله درجة حتى يجعلَه في أعلى عليين ، ومن تكبر على الله درَجَةً ، يَضَعه الله درجةً حتى يجعلَه في أسفلِ سافلين» .

[رواه ابن ماجه وابن حبان وزاد فيه]

«ولو أن أَحَدَكم يعملُ في صخرةٍ صماءَ ليس عليها بَابٌ ولا كَوَّة لَخرَج ما غَيَّبَهُ للناس كائناً ما كان».

٥ ـ عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه مرفوعاً قال:

يقول الله تبارك وتعالى: «من تواضع لي هكذا ـ وجعل يزيد باطن كفَّه إلى الأرض وأدناها ـ رفعته هكذا ـ وجعل باطن كفه للسماء ورفعها نحوَ السماء ـ».

[رواه أحمد و البزار]

٦ ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال:

قال رسول الله ﷺ:

«من تواضع لأخيه رفعه الله، ومن ارتفع عليه وضعه الله».

[رواه الطبراني في الأوسط]

٧ ـ عن أنس رضي الله عنه قال:

(كانت ناقة لرسول الله ﷺ تسمى العضباء، كانت لا تسبق، فجاء أعرابي على قعود له فسبقها فاشتد ذلك على المسلمين وقالوا: سبقت العضباء!

فقال رسول الله ﷺ: «إن حقاً على الله أن لا يرفع شيئاً من الدنيا إلا وضعه»). [رواه البخاري]

وفي هذا الحديث إشارة إلى الحث على عدم الترفع، والحث على التواضع والإعلام بأن أمور الدنيا ناقصة غير كاملة.

ثالثاً ـ التواضع في أقوال الأنبياء والرسل:

أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام:

(إنما أقبل صلاة من تواضع لعظمتي ولم يتعاظم على خلقي، وألزم قلبه خوفي، وقطع نهاره بذكري وكف نفسه عن الشهوات من أجلي).

قال السيد المسيح عليه السلام:

(طوبى للمتواضعين في الدنيا، هم أصحاب المنابر يوم القيامة.

طوبى للمصلحين بين الناس في الدنيا ، هم الذين يرثون الفردوس يوم القيامة .

طوبى للمطهّرة قلوبهم في الدنيا ، هم الذين ينظرون إلى الله تعالى يوم القيامة) .

كان سليمان بن داود عليهما السلام إذا أصبح تصفح وجوه الأغنياء والأشراف ، حتى يجيء إلى المساكين فيقعد معهم ويقول: مسكين مع مساكين .

رابعاً ـ التواضع في أقوال أهل السلف وأعمالهم:

لقد تجلت شواهد التواضع من سلف هذه الأمة بصورة رائعة باهرة :

فعمر بن الخطاب رضي الله عنه يلبس المرقع ، ويحمل الدقيق للمرأة العجوز ، وينفخ على النار لينضج الطعام للأطفال الفقراء ، ويطلي إبل الصدقة حتى تبرأ من مرضها ، ولقد دعا الناس ذات يوم إلى الاجتماع في المسجد ثم وقف يخطب ويقول بعد أن حمد الله وأثنى عليه بما هو أهله :

(أيها الناس ، لقد رأيتني أرعى الغنم على خالات لي من بني مخزوم ، فأقبض القبضة من التمر والزبيب ، فأظل بها يومي) .

ثم نزل ، فقال له عبد الرحمن بن عوف :

يا أمير المؤمنين ، ما زدت على أن عبت نفسك .

فقال له عمر: ويحك يا ابن عوف ، إني خلوت بنفسي فحدثتني فقالت: أنت أمير المؤمنين ، فمن ذا أفضل منك؟؟ فأردت أن أعرفها نفسها .

وقال عروة:

رأيت عمر بن الخطاب رضي الله عنه على عاتقه قربة ماء ، فقلت: يا أمير المؤمنين ، لا ينبغي لك هذا ، فقال: لما أتاني الوفود سامعين مطيعين ، دخلت نفسي نخوة فأردت أن أكسرها .

ـ وعن طارق قال :

خرج عمر رضي الله عنه إلى الشام « ومعنا أبو عبيدة ، فأتوا على مخاضة ، وعمر على ناقة له ، فنزل وخلع خفيه فوضعهما على عاتقه وأخذ بزمام ناقته فخاض.

فقال أبو عبيدة: يا أمير المؤمنين أنت تفعل هذا؟ ما يسرني أن أهل البلد استشرفوك.

فقال: أوَّه ، ولو يقل ذا غيرك أبا عبيدة جعلته نكالاً لأمة محمد.

ـ أتى رسول كسرى إلى المدينة ليقابل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فلما دخل المدينة سأل أين قصر الخليفة العظيم؟؟

فدلوه على المسجد ولما لم يجده ، قالوا له: ذهب يتفقد الرعية.

وأثناء بحثه عنه وجده نائماً على الأرض وحذاؤه تحت رأسه والعرق يتصبب منه ، لا حرس ولا حجاب فلما رآه امتلأ هيبة منه ، وقال: عدلت فأمنت فنمت.

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول:

(إن العبد إذا تواضع لله رفع الله حكمته ، وقال انتعش رفعك الله وإذا تكبر وعدا طوره ، رهصه الله في الأرض وقال اخسأ خسأك الله ، فهو في نفسه كبير وفي أعين الناس حقير ، حتى إنه لأحقر عندهم من الخنزير).

ـ وُلِّيَ أبو هريرة رضي الله عنه إمارة مَرَّةً ، فكان يحمل الحطب على ظهره ويقول: طَرِّقوا للأمير.

ـ وقالت السيدة عائشة رضي الله عنها:

إنكم لتغفلون عن أفضل العبادات ، التواضع.

ـ وهذا الخليفة العادل خامس الراشدين عمر بن عبد العزيز ، يضرب الأمثلة الرائعة في التواضع ، وهو خليفة ، فثيابه تقدر باثني عشر درهماً ، وكان عنده بعض جلسائه فاحتاج السراج إلى إصلاح فقام إليه عمر فأصلحه ، فقال له من معه: كنا نكفيك ذلك.

فقال: ليس من كرم الرجل أن يستخدم ضيفه، قمت وأنا عمر، ورجعت وأنا عمر، ما نقص مني شيء.

قال ابن جرير بن عبد الله:

انتهيت مرة إلى شجرة تحتها رجل نائم قد استظل بنِطَع له، وقد جاوزت الشمس النطع فسويته عليه، ثم إن الرجل استيقظ فإذا هو سلمان الفارسي، فذكرت له ما صنعت فقال لي:

يا جرير تواضع لله في الدنيا، فإنه من تواضع لله في الدنيا رفعه الله يوم القيامة، يا جرير أتدري ما ظلمة النار يوم القيامة؟؟

قلتُ: لا. قال: إنه ظلم الناس بعضهم بعضاً في الدنيا.

قال الحسن:

أتدرون ما التواضع؟ التواضع أن تخرج من منزلك ولا تلقى مسلماً إلا رأيت له عليك فضلاً. ومر الحسن على صبيان معهم كسر خبز، فاستضافوه، فنزل فأكل معهم ثم حملهم إلى منزله فأطعمهم وكساهم، وقال: اليد لهم، لأنهم لا يجدون شيئاً غير ما أطعموني ونحن نجد أكثر منه.

قال ابن المبارك:

رأس التواضع أن تضع نفسك عند من دونك في لقمة الدنيا، حتى تعلمه أن ليس لك بدنياك عليه فضل، وأن ترفع نفسك عمن هو فوقك في الدنيا، حتى تعلمه أنه ليس له بدنياه عليك فضل.

دخل ابن السماك على هارون الرشيد فقال:

يا أمير المؤمنين إن تواضعك في شرفك أشرف لك من شرفك.

فقال هارون: ما أحسن ما قلت.

قال بعضهم: كما تكره أن يراك الأغنياء في الدون، فكذلك فاكره أن يراك الفقراء في الثياب المرتفعة.

قال الحسن:

قال عروة بن الورد: التواضع أحد مصائد الشرف، وكل نعمة محسود عليها صاحبها إلا التواضع.

قال أحدهم:

التواضع في الخلق كلهم حسن، وفي الأغنياء أحسن.

وقال آخر:

التواضع من أخلاق الكرام، والتكبر من أخلاق اللئام.

وقيل: تاج المرء التواضع.

خامساً ـ التواضع في أقوال الشعراء:

قال الشاعر:

إذا شئت أن تزداد قدراً ورفعةً   فلِن وتواضع واترك الكبر والعُجْبا

وقال غيره:

تواضع إذا ما نلت رفعة   فإن رفيع القوم من يتواضع

وقال ثالث:

وأقبح شيء أن يرى المرءُ نفسه   رفيعاً وعند العالمين وضيع
تواضع تكن كالنجم لاح لناظر   على صفحات الماء وهو رفيع
ولا تكن كالدخان يعلو بنفسه   على طبقات الجو وهو وضيع

وقال رابع:

اتضع للناس إن رُمْت العُلا   واكظم الغيظ ولا تُبْدِ الضجر

اتضع: أي تواضع.

وقال خامس:

تواضع إذا ما كان قدرك عالياً   فإن اتضاع المرء من شيم العقل

اتضاع: أي تواضع.

وقال سادس:

إن شئت أن تبني بناء شامخاً   يلزم لذا البنيان أس راسخ
إن البناء هو الكمال وأسه الصـ   ـخري فهو الاتضاع الباذخ

أضداد التواضع:

الكبر والعجب والغرور هي أضداد التواضع.

والعجب والغرور يؤديان إلى الكبر.

فما هو الكبر؟

الكبر هو تعاظم ينشأ عن رؤية الشخص نفسه فوق غيره.

وللكبر أسباب متعددة منها:

١ - الرغبة بعدم الخضوع لأحد، وقد تمتد هذه الرغبة في أقصى مداها إلى التمرد على طاعة الله كما فعل إبليس.

٢ - الطموح الجامح إلى الامتياز على الآخرين، والرغبة المجنونة باحتلال المرتبة المتفوقة ولو بغير حق.

٣ - الرغبة بإخفاء ما يشعر به المستكبر من نقص في ذاته أو في عمله، وهو حريص على أن يكون في أعين الناس كبيراً، وأن لا يكشفوا نقصه.

تعريف الرسول ﷺ للكبر:

عرف الرسول ﷺ الكبر بأبرز مظاهره في السلوك.

فقد روي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال:

قال رسول الله ﷺ:

«لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر».

فقال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسناً.

فقال رسول الله ﷺ:

«إن الله تعالى جميل يحب الجمال ، الكبر بطر الحق وغمط الناس» .

[رواه مسلم]

فعرف الرسول ﷺ الكبر بأنه بطر الحق وغمط الناس .

وبطر الحق : جحود الحق ، والتفريط فيه والاستهانة بشأنه ، والاستعلاء عن قبوله ، إرضاء للنفس الأنانية المستكبرة ، التي تريد الاستئثار بالمجد والكبرياء في الأرض ، وتستعلي عن اتباع غيرها وطاعته ، مهما كان الحق والخير في جانبه ، وتستعلي عن الرجوع إلى الحق وإن تبين لها خطؤها عناداً وإصراراً على الباطل ، وترى أنها أكبر من أن تستجيب لدعوة الحق من غيرها ، وأكبر من أن يخفى عنها أمر ويعلمه آخرون .

وغمط الناس : هو احتقارهم ، واستصغارهم ، والازدراء بهم ، والاستهانة بأقدارهم ، وعدم شكرهم على إحسانهم ، والترفع عن الثناء عليهم بفضائلهم ، وعدم الاعتراف بحقوقهم الأدبية وصفاتهم الفاضلة .

أنواع الكبر :

للكبر أنواع منها :

أولاً ـ التكبر على الله :

وهو أفحش أنواع الكبر ولا مثار له إلا الجهل والطغيان مثل ما كان من نمرود ، فقد كان يحدث نفسه بأن يقاتل رب السماء .

وكما فعل فرعون من ادعائه الربوبية ، فإنه لتكبره قال :

﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴾ . [النازعات : ٢٤]

واستنكف أن يكون عبداً لله لذلك قال الله تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ .

[غافر : ٦٠]

وقد قال الله تعالى في حق فرعون :

﴿ وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ . [القصص : ٣٩]

ثانياً ـ التكبر على الرسل:

من حيث تعزز النفس وترفعها عن الانقياد لبشر مثل سائر الناس ، وذلك يصد صاحبه عن التفكير والاستبصار ، فيبقى في ظلمة الجهل ويمتنع عن الانقياد.

والتكبر على الرسل يجر إلى معصية الله والكفر به كما حدث مع إبليس:

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ . [البقرة: ٣٤]

وكما حكى الله عن أمثال هؤلاء:

﴿ فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا ﴾ . [المؤمنون: ٤٧]

وقولهم: ﴿ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴾ . [المؤمنون: ٣٤]

﴿ ۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴾ . [الفرقان: ٢١]

وقالت قريش فيما أخبر الله عنهم في القرآن الكريم:

﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ . [الزخرف: ٣١]

قال بعض المفسرين:

عظيم القريتين هو الوليد بن المغيرة وأبو مسعود الثقفي ، طلبوا من هو أعظم رئاسة من النبي ﷺ ، إذ قالوا: غلام يتيم وكيف بعثه الله إلينا؟

قال تعالى:

﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ﴾ . [الزخرف: ٣٢]

وقالت قريش لرسول الله ﷺ:

كيف نصدق بك وعندك هؤلاء؟ وأشاروا إلى فقراء المسلمين.

فازدروهم بأعينهم لفقرهم وتكبروا عن مجالستهم وأمروه بطردهم ، فأنزل الله تعالى:

﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ .

[الأنعام: ٥٢]

وتكرر عرض المشركين على رسول الله ﷺ ، فأنزل الله تعالى في ذلك :

﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾ .

[الكهف: ٢٨]

ومن هؤلاء المتكبرين أبو جهل وأمية بن خلف وأبو لهب وغيرهم ، ممن ماتوا على الكفر بسبب عنادهم وتكبرهم على الحق وأتباعه .

ثالثاً ـ التكبر على العباد:

وذلك بأن يستعظم نفسه ويستحقر غيره ، فتأبى نفسه الانقياد لهم ، وتدعوه إلى الترفع عليهم ، فيزدريهم ويستصغرهم ويأنف من مساواتهم ، وهذا النوع هو الذي نتحدث عنه على أنه ضد التواضع .

دوافع الاستعظام والكبر:

المؤمن الحقيقي لا يؤثر فيه أي دافع من دوافع الاستعظام والكبر ، لأنه قد هذب نفسه ، وعرَفها وعرَّفها بمايرضي الله عنه ، فهو يسعى إلى رضاء الله وما يحب .

أما المؤمن ضعيف الإيمان ، فإن دوافع كثيرة تدخل إلى قلبه ، فيصبح مستعظماً لنفسه متكبراً على غيره ، مما يجره إلى بطلان عمله وسخط الله عليه .

ومن هذه الدوافع إلى الاستعظام والكبر :

١ ـ العلم: فإذا ما تعلم الإنسان أيّ علم ، واشتهر به فإن ذلك يدفعه إلى استعظام نفسه ، والتكبر على الآخرين واستحقارهم.

المؤمن الحقيقي يعرف أن العلم وسيلة لرضاء الله ، وأن الله هو الذي هيأ له

هذا العلم وعلمه ورفعه ، فكلما توسع في العلم زاد في التواضع وشكر الله وحمده.

قال تعالى:

﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ﴾. [فاطر: ٢٨]

٢ ـ العمل الصالح والتعبد: واشتهار الإنسان به والإشارة بالأصابع إلى صاحبه والحديث عنه ، كل ذلك يدفع للاستعظام والتكبر وذلك في ناحيتين:

الناحية الأولى: في الدنيا فهو يتوقع توقيره وقضاء حاجته والتوسع له في المجالس وذكره بالورع والتقوى.

والناحية الثانية: في الدين فهو يرى الناس هلكى ، ويرى نفسه ناجياً ، والحق أنه هو الهالك بما سولت له نفسه من الغرور والكبر. قال ﷺ:

«إذا سمعتم الرجل يقول هلك الناس فهو أهلكهم».

[رواه البخاري ومسلم وأحمد]

لكن المؤمن الحقيقي يحاول إخفاء عمله وعبادته ، حتى إذا ما اشتهرت على أمن الله ، ازداد تواضعاً وخوفاً من الله ، أن لا يقبل عمله وعبادته ويخشى دائما سوء الخاتمة.

٣ ـ الحسب والنسب: دافع للاستعظام والتكبر على الآخرين واحتقارهم والبعد عن مجالستهم ومخالطتهم ، لأنهم أقل منه حسباً ونسباً.

والمؤمن الحقيقي يعلم أن الحسب والنسب ليسا مقياساً في ميزان الإيمان بل:

﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾. [الحجرات: ١٣]

وكلما عظم حسب المؤمن الحقيقي ونسبه ، ازداد تواضعاً مع الآخرين وقرباً منهم وحباً في الله سبحانه وتعالى.

٤ ـ الجمال: دافع للاستعظام والتكبر على الآخرين والتفاخر عليهم وتنقصهم.

والمؤمن الحقيقي كلما ازداد جمالاً ازداد شكراً لله ، وتواضعاً للناس ، وحافظ على جماله بما يرضي الله عز وجل.

٥ ـ **المال**: دافع للاستعظام والتكبر على الآخرين ، واحتقار الفقراء ، والاستهزاء بهم والترفع عليهم.

والمؤمن الحقيقي كلما ازداد مالاً ، حمد الله وشكره وأدى حق الفقراء فيه ، وازداد تواضعاً وكرماً وحباً للناس من حوله.

٦ ـ **القوة وشدة البطش**: دافع للاستعظام والتكبر على أهل الضعف ، ناسياً من أعطاه القوة وأنه قادر على سلبها منه.

والمؤمن الحقيقي كلما أعطاه الله نعمة ازداد شكراً لله ، وازداد تواضعاً بين الناس.

٧ ـ **كثرة الأتباع والأنصار والتلاميذ والعشيرة والأقارب والمعارف**: دوافع للاستعظام والتكبر على الناس واحتقارهم والاستهزاء بهم واستغلالهم.

والمؤمن الحقيقي لا تكون هذه الأمور إلا سبباً في كثرة تواضعه ، وخوفه من الله وحبه للآخرين وخدمتهم ، وتقديم كل مساعدة يحتاجونها.

موقف الإسلام من الكبر:

الإسلام يحذر من الكبر لأنه من أقبح الانحرافات الخلقية وأسوئها ، وقد يدفع بصاحبه إلى جحود خالقه والاستكبار على طاعته ، ولذلك شدد الإسلام في تحريمه والتحذير منه ، وشدد اللائمة على المستكبرين وأوعدهم بالعقاب الشديد وبعدهم عن الله لأنه لا يحبُّ المتكبِّرين ولن يدخلهم الجنة ، وذلك من خلال ما ورد في القرآن الكريم والأحاديث الشريفة ، فقد تحدث الله تعالى عن الكبر وأهله في آيات كثيرة منها:

١ ـ ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾.

[الأعراف: ١٤٦]

٢ ـ ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾. [غافر: ٣٥]

٣ ـ ﴿ وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ . [إبراهيم : ١٥]

٤ ـ ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴾ . [النحل : ٢٣]

٥ ـ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ .

[غافر : ٦٠]

٦ ـ ﴿ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴾ .

[الإسراء : ٣٧]

٧ ـ ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ . [لقمان : ١٨]

٨ ـ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ . [الأعراف : ٤٠]

وورد عن رسول الله ﷺ في هذا الموضوع أحاديث كثيرة منها :

١ ـ عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه :

أن رسول الله ﷺ قال :

«إن من أحبّكم إليّ وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحاسِنُكُم أخلاقاً ، وإن أبغضَكم إلي وأبعدَكم مني مجلساً يومَ القيامة الثرثارون والمتَشدِّقون والمتفيقهون؟» .

قالوا : يا رسول الله قد علمنا الثرثارين والمتشدقين فما المتفيقهون؟

قال : «المتكبرون» . [رواه الترمذي بإسناد حسن]

وهذا الحديث يبين أن أبغض المؤمنين إلى رسول الله ، وأبعدهم منه مجلساً يوم القيامة المتكبرون .

٢ ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال :

قال رسول الله ﷺ :

يقول الله تعالى :

«الكبرياء ردائي ، والعظمة إزاري ، فمن نَازَعَني واحداً منهما قذفته في النار» . [رواه مسلم]

٣ ـ عن حارثة بن وهب قال:

قال رسول الله ﷺ:

«ألا أخبركم بأهل النار؟ كل عتلّ جواظٍ مستكبر». [رواه البخاري ومسلم]

العتل: هو الجافي شديد الخصومة بالباطل.

الجواظ: الجموع المنوع، أو هو المختال المتكبر أو هو الفاجر.

٤ ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال:

قال رسول الله ﷺ:

«ثلاثةٌ لا يُكَلِّمُهُم اللهُ يومَ القيامةِ ولا يُزكيهم ولا يَنظُر إليهم ولهم عذاب أليم: شيخ زانٍ، ومَلك كذاب وعائل مستكبر». [رواه مسلم]

أي فقير مستكبر، وذلك لأن الفقير من شأنه أن يخفض الجناح ولا يستكبر مع فقره، إلا من ازداد لديه خلق الكبر زيادة جعلته منطمس البصيرة عن إدراك واقعه الذي يقتضي منه أن لا يكون مستكبراً.

٥ ـ عن سلمة بن عمرو بن الأكوع:

أن رجلاً أكل عند رسول الله ﷺ بشماله، فقال له:

«كل بيمنك».

قال: لا أستطيع.

قال: «لا استطعت» ما منعه إلا الكبر فما رفعها إلى فيه. [رواه مسلم]

٦ ـ عن عبد الله بن مسعود قال:

قال رسول الله ﷺ:

«لا يدخل النار أحد في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان، ولا يدخل الجنة أحد في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر». [رواه مسلم]

٧ ـ عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النّبي ﷺ قال:

«احتجت الجنة والنار، فقالت النار: فيَّ الجبارون المتكبرون، وقالت

الجنة: فيَّ ضعفاء الناس ومساكينهم ، فقضى الله بينهما. إنك الجنة رحمتي أرحم بك من أشاء ، وإنّك النار عذابي أعذب بك من أشاء ، ولكليكما علي ملؤها». [رواه مسلم]

٨ ـ عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما:

عن رسول الله ﷺ قال:

«إياكم والكبر ، فإن الكبر يكون في الرجل ، وإن عليه العباءة» رواه الطبراني في الأوسط ورواته ثقات.

أي ربما يلبس رداء فيتفاخر به ويتعاظم فيوجد الكبر ، فحذر الرسول ﷺ المسلمين أن يتطاولوا بحسن هندامهم أو يتفاخروا ببداعة حللهم وغلو ثمنها.

٩ ـ عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال:

«بينما رجل كان قبلكم يَجُرُّ إزاره من الخُيَلاَء خُسِفَ به ، فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة». [رواه البخاري والنسائي وغيرهما]

١٠ ـ عن ابن عمر رضي الله عنهما:

سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«من تَعَظَّم في نفسه أو اختال في مِشيَته ، لقي الله تبارك وتعالى وهو عليه غضبان». [رواه الطبراني في الكبير]

١١ ـ روي عن أسماء بنت عميس رضي الله عنها قالت:

سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«بئس العبد تَخَيَّل واختال ونسي الكبير المتعال.

بئس العبد عبد تَجَبَّر واعتدى ، ونسي الجبَّار الأعلى.

بئس العبد سَهَا ولها ، ونسي المقابر والبلى.

بئس العبد عبد عتى وطغى ، ونسي المبتدا والمنتهى.

بئس العبد عبدٌ يَخْتِل الدنيا بالدين بالشهوات.

بئس العبد عبدٌ طَمَعٌ يقوده .

بئس العبد عبدٌ هوى يضله .

بئس العبد عبدٌ رَغَب يُذِلُّه» . [رواه الترمذي]

بئس : كلمة ذم وسخط .

اختال : أعجب بنفسه مرحاً .

المتعال : العظيم المنزه عن كل نقص .

اعتدى : ظلم وجاوز الحد وقسا وأساء .

لها : غفل عن حقوق الله واشتغل باللهو واللعب .

البلى : الموت .

عتى : استكبر .

طغى : جاوز الحد والمقدار في العصيان وبغى وظلم .

المبتدا والمنتهى : أصله من نطفة قذرة وآخره الموت والفناء .

يختل الدنيا بالدين بالشهوات : أي يطلب الدنيا بعمل الآخرة ويتظاهر بالصلاح ويفعل الفواحش سراً ، ويخلط رغبات الدين بملذاته .

* * *

واجبات الآباء والمربين

أهم واجبات الآباء والمربين هو سعيهم الدائم إلى تربية أبنائهم وبناتهم التربية الصحيحة المتكاملة ، ولا يتحقق ذلك إلا عندما يكون الآباء والمربون القدوة الصالحة للخُلُق الذي يريدون زرعه في نفوس أبنائهم وبناتهم .

من هذه الأخلاق التواضع ، فماذا يجب عليهم عمله لغرس هذا الخلق في نفوس أبنائهم؟

أولاً ـ دراسة لأعماق كمائن أبنائهم وبناتهم وما يتعلق خاصة في موضوع إمكانية التواضع عندهم ، أو تواجد دوافع الاستعظام والتكبر عندهم .

ثانياً ـ توجيههم التوجيه الصحيح في إرساخ سلوك التواضع في معاملاتهم مع الآخرين ، والبعد عن التكبر على الآخرين ، مهما كانت أسبابه ودوافعه ، وذلك بتوضيح معنى التواضع وإظهار أهميته ومكانته عند الله عز وجل ورسول الله ﷺ ، وكيف دعا الإسلام إليه ، وتبيان مضار الكبر ونتائجه وسخط الله على المتكبرين وبعدهم عن رسول الله ﷺ يوم القيامة .

ثالثاً ـ التشجيع المستمر على التواضع والمكافأة عليه ، وإبرازه أمام الآخرين مع إظهار الكبر بصورته البشعة ، واعتذار أصحابه مباشرة والعدول عنه إلى التواضع ، ومحبة الآخرين والتعاون معهم .

رابعاً ـ ذكر وعرض لأهم أعمال المتواضع والمتواضعين ، وخاصة عند رسول الله ﷺ وأصحابه الكرام والتابعين والعلماء الصالحين ، وذلك في المناسبات المختلفة ، مع التشجيع على تقمص هذا الخلق من وراء هذه القصص المثيرة الحقيقية في هذه الشخصيات الإسلامية العظيمة .

العبرة والتطبيق:

أيها الناشئة [المؤمن والمؤمنة]:

أظنك قد سررت كثيراً بهذا الخلق العظيم بعد أن قمت بدراسته وتعرفت على كل متعلقاته ، ووجدت أنه من الضروري جداً أن تتخلق به وتجعله صفة دائمة واضحة في أخلاقك وتصرفاتك.

وأنصحك لذلك أن تقوم بما يلي:

١ ـ دراسة نفسك وتصرفاتها السابقة ومدى تطبيقها لهذا الخلق الفاضل.

٢ ـ استغفر الله وتب إليه مما بدر منك سابقاً من مخالفة لهذا الخلق ومن ظهور الكبر في أعمالك وأقوالك.

٣ ـ عاهد الله عز وجل على الالتزام بهذا الخلق ، وادع الله أن يساعدك على التخلق به.

٤ ـ مراقبة تصرفاتك وتوجيهها نحو هذا الخلق العظيم في كل أمور حياتك.

٥ ـ أدم المطالعة لقصص المتواضعين وتصرفاتهم وبعدهم عن التكبر والغرور وإعجابهم بأنفسهم.

٦ ـ احمد الله عند قدرتك على التخلق بهذا الخلق ، بخلق التواضع وبعدك عن التكبر في مواقف الحياة المختلفة.

٧ ـ ادع إخوتك وأصدقاءك لهذا الخلق ، وبين لهم أهميته وضرورة التخلق به.

٨ ـ أظهر مواقف التواضع عند الآخرين ، وأظهر الاستحسان لها وشجعهم عليها وكافئهم عليها.

* * *

الفهرس

الموضوع	الصفحة
الإهداء	٥
ـ المقدمة	٧
ـ الأخلاق الفطرية والأخلاق المكتسبة	١٢
ـ أهمية الأخلاق في الإسلام	١٧
١ ـ الصدق	٢٤
ـ آفات اللسان	٣٦
١ ـ الآفة الأولى (الكذب)	٣٧
٢ ـ الآفة الثانية (الغيبة)	٤٣
٣ ـ الآفة الثالثة (النميمة)	٥٤
٤ ـ الآفة الرابعة (فضول الكلام)	٦٠
٥ ـ الآفة الخامسة (المراء والجدال والمخاصمة)	٦٨
٦ ـ الآفة السادسة (الفحش والسب وبذاءة اللسان)	٧٢
٧ ـ الآفة السابعة (اللعن)	٧٧
٨ ـ الآفة الثامنة (السخرية والاستهزاء)	٨١
٩ ـ الآفة التاسعة (كلام ذي اللسانين والوجهين)	٨٣
١٠ ـ الآفة العاشرة (المزاح الفاسد)	٨٧

٢ ـ خلق الحياء ٩٣
ـ تعريف الحياء ٩٣
ـ خصائص الحياء ٩٤
١ ـ الحياء من صفات الله ٩٤
٢ ـ الحياء خلق من أخلاق القرآن الكريم ٩٥
٣ ـ الحياء خلق من أخلاق الرسل وخاصة رسولنا ﷺ ٩٦
٤ ـ الحياء هو الدين كله ٩٧
٥ ـ الحياء خلق الإسلام ٩٨
٦ ـ الحياء والإيمان قرناء ٩٨
٧ ـ الحياء خير كله ١٠٠
٨ ـ الحياء رجل صالح ١٠١
٩ ـ الحياء خلق الصحابة الصالحين ١٠٢
ـ أقسام الحياء ١٠٢
ـ أنواع الحياء ١٠٣
١ ـ الحياء من الله سبحانه وتعالى ١٠٣
٢ ـ الحياء من الناس ١٠٧
٣ ـ الحياء من نفسك ١٠٩
ـ درجات الحياء ١١٠
ـ مظاهر الحياء ١١١
ـ الفرق بين الحياء والخجل ١١٧
ـ فضائل الحياء ١١٩
ـ ضد الحياء: (السفه والوقاحة والفحش والبذاءة) ١٢٠
ـ أقوال الشعراء في الحياء ١٢٢

الموضوع	الصفحة

- واجبات الآباء والمربين ١٢٤
- العبرة والتطبيق ١٢٨

٣ ـ خلق الأمانة ١٣٠
- تعريف الأمانة ١٣٠
- أثر الأمانة وفائدتها ١٣١
- ضخامة الأمانة ١٣٢
- مكانة الأمانة في الإسلام ١٣٤
١ ـ الأمانة خلق إسلامي حث القرآن عليه ١٣٤
٢ ـ الأمانة صفة من صفات الملائكة ١٣٤
٣ ـ الأمانة صفة من صفات الرسل ١٣٥
٤ ـ أقسم الله سبحانه وتعالى بمكة (البلد الأمين) ١٣٨
٥ ـ الأمانة صفة وصف الله تبارك وتعالى المؤمنين بها ١٣٨
٦ ـ الأمانة خلق دعت إليه السنة المطهرة ١٣٨
٧ ـ الأمانة من الإيمان وتركها نفاق ١٣٩
٨ ـ الأمانة أشد شيء في الدين ولا دين لمن لا أمانة له ١٣٩
٩ ـ الأمانة سيحاسب عنها المسلم يوم القيامة ولو مات شهيداً في سبيل الله ١٤٠
١٠ ـ الأمانة من أحسن الأعمال للتقرب إلى الله والالتجاء إليه عند الشدائد ١٤٠
١١ ـ الأمانة عز وغنى وهي تجلب الرزق وتبعد الفقر ١٤١
١٢ ـ الأمانة خلق اهتم به وذكره الرسول عن الأقوام السابقة ١٤١
- أقسام الأمانة ١٤٤
١ ـ خلق الأمانة الفطري ١٤٤

الموضوع	الصفحة

٢ ـ خلق الأمانة المكتسبة ١٤٤
ـ أنواع الأمانة ١٤٥
١ ـ أمانة التكاليف الدينية ١٤٦
٢ ـ أمانة النعم ١٤٦
٣ ـ أمانة الرعاية ١٤٩
٤ ـ أمانة الأموال ـ أمانة الودائع ١٥٠
٥ ـ أمانة المعاملة ١٥١
٦ ـ أمانة المشورة ١٥٤
٧ ـ أمانة القضاء ١٥٥
٨ ـ أمانة الشهادة ١٥٥
٩ ـ أمانة الوظيفة والعمل ١٥٥
١٠ ـ أمانة المجالس ١٥٩
ـ ضد الأمانة (الخيانة) ١٦٢
ـ رفع الأمانة ١٦٦
مسرحية في موضوع خلق الأمانة (فأين الله) ١٦٨
ـ واجبات الوالدين والمربين تجاه أبنائهم وبناتهم ١٧٢
ـ العبرة والتطبيق ١٧٣
٤ ـ خلق الوفـاء ١٧٥
ـ تعريف الوفاء ١٧٥
ـ أهمية الوفاء ١٧٦
ـ لمن يكون الوفاء ١٧٧
ـ مكانة الوفاء في الإسلام ١٧٨
١ ـ الوفاء صفة من صفات الله سبحانه وتعالى ١٧٨

الموضوع	الصفحة

٢ ـ الوفاء خلق إسلامي أمر القرآن الكريم به وحث عليه ١٧٩
٣ ـ الوفاء صفة من صفات الرسل عليهم السلام ١٧٩
٤ ـ الوفاء صفة من أهم صفات نبينا المصطفى ١٨٠
٥ ـ الوفاء من أهم صفات الصحابة الكرام ١٨٢
٦ ـ الوفاء من أهم صفات المؤمنين الأخيار الأبرار الأتقياء ١٨٤
٧ ـ الوفاء صفة جعلها الله جزاءً لمكارم الأعمال والخصال ١٨٤
٨ ـ الوفاء صفة اهتم بها العرب منذ القديم ١٨٥
ـ أنواع الوفاء ١٨٧
١ ـ حسن العهد ١٨٧
٢ ـ الوفاء بالعقود والعهود ١٩١
٣ ـ الوفاء بالوعود ١٩٣
٤ ـ الوفاء بالبيعة ١٩٥
٥ ـ الوفاء بالديون ١٩٨
٦ ـ الوفاء بالكيل ٢٠١
٧ ـ الوفاء بالنذر ٢٠٢
ـ ضد الوفاء (الإخلاف والغدر) ٢٠٢
ـ الوفاء المحمود ٢٠٤
ـ واجبات الآباء والمربين ٢٠٨
ـ العبرة والتطبيق ٢١٠

٥ ـ خلق العفة ٢١٢

ـ تعريف العفة ٢١٢
ـ مجالات العفة ٢١٣

الموضوع	الصفحة

١ ـ تعفف المؤمن عن الوقوع في معصية الله فيما يتعلق بالشهوة الجنسية ٢١٣
٢ ـ تعفف الفقراء عن المسألة ٢٢١
٣ ـ التعفف عن أموال الآخرين ٢٢٥
٤ ـ التعفف عن كل ما وهب الله الآخرين ٢٢٦
ـ طلب العفة ٢٢٨
ـ واجبات الآباء والمربين ٢٢٩
ـ العبرة والتطبيق ٢٣١

٦ ـ خلق الشجاعة ٢٣٢
ـ تعريف الشجاعة ٢٣٢
ـ قيمة الشجاعة ٢٣٢
ـ أنواع الشجاعة ٢٣٥
١ ـ الشجاعة الجسمية ٢٣٥
٢ ـ شجاعة الإيمان ٢٤٠
٣ ـ الشجاعة الأخلاقية ٢٤٥
٤ ـ الشجاعة الأدبية ٢٤٦
٥ ـ شجاعة الرجوع إلى الحق ٢٥٢
ـ الشجاعة فطرية ومكتسبة ٢٥٦
ـ الجبن ضد الشجاعة ٢٥٧
ـ واجبات الوالدين والمربين ٢٥٩
ـ العبرة والتطبيق ٢٦١

٧ ـ خلق الاعتدال ٢٦٣
ـ معنى الاعتدال وأهميته ٢٦٣

- الاعتدال والتوسط في القرآن الكريم ٢٦٤
- الاعتدال والتوسط في السنة النبوية ٢٦٧
- الاعتدال والتوسط عند السلف ٢٦٨
- الاستقامة معنى من معاني الاعتدال ٢٧٠
- ضروب الاعتدال ٢٧٣
١ - الاعتدال في العبادة ٢٧٤
٢ - الاعتدال في الأخلاق ٢٧٧
٣ - الاعتدال في الإنفاق ٢٧٩
٤ - الاعتدال في الحب والبغض ٢٨١
٥ - الاعتدال في الطعام والشراب ٢٨٢
٦ - الاعتدال في اللباس ٢٨٤
٧ - الاعتدال في السير ٢٨٥
٨ - الاعتدال في النوم ٢٨٥
- واجبات الآباء والمربين ٢٨٧
- العبرة والتطبيق ٢٨٨

٨ - خلق الحلم ٢٨٩
- معنى الحلم ٢٨٩
- أهمية الحلم ٢٩٠
١ - الحلم اسم من أسماء الله سبحانه وصفة من صفاته ٢٩٠
٢ - الحلم خلق من أخلاق الأنبياء ٢٩١
٣ - الحلم صفة من صفات نبينا المصطفى ﷺ ٢٩٢
٤ - الحلم خلق أمر به النبي ﷺ ومدح المتصف به ٢٩٤
٥ - الحلم صفة من صفات عباد الرحمن الصالحين ٢٩٥

الموضوع	الصفحة

٦ ـ الحلم صفة من الصفات التي اتصف بها الأقدمون ٢٩٧
٧ ـ الحلم خلق عظيم تحدث عنه أهل السلف ٢٩٨
٨ ـ الحلم خلق تسارع الشعراء لمديحه والحديث عنه ٢٩٩
ـ الحلم المحمود ٣٠٠
ـ الغضب ضد الحلم ٣٠١
ـ درجات الغضب: ٣٠١
١ ـ درجة الاعتدال ٣٠١
٢ ـ درجة التفريط ٣٠٢
٣ ـ درجة الإفراط ٣٠٢
ـ الغضب لله عز وجل ٣٠٢
ـ موقف القرآن من الغضب المذموم ٣٠٤
ـ موقف النبي من الغضب المذموم ٣٠٥
ـ أسباب الغضب المذموم: ٣٠٧
١ ـ الجدل والمزاح ٣٠٧
٢ ـ الكبرياء والعجب ٣٠٧
٣ ـ مصاحبة الأشرار ٣٠٧
ـ علاج الغضب المذموم ٣٠٧
ـ مسرحية (الكاظمين الغيظ والعافين عن الناس) ٣١٢
ـ واجبات الآباء والمربين ٣١٤
ـ العبرة والتطبيق ٣١٦

٩ ـ خلق الصبر ٣١٨
ـ تعريف الصبر ٣١٨
ـ أهمية الصبر: ٣٢٠

١ ـ الصبر صفة من صفات الله سبحانه ٣٢٠
٢ ـ الصبر خلق أكثر القرآن من ذكره ٣٢٠
٣ ـ الصبر صفة من صفات الأنبياء والمرسلين ٣٢١
٤ ـ الصبر أهم أخلاق النبي ٣٢٢
٥ ـ الصبر من أهم صفات وأخلاق الصحابة ٣٢٣
٦ ـ الصبر من أهم صفات الصالحين ٣٢٤
٧ ـ الصبر من عزم الأمور ٣٢٤
٨ ـ الصبر هو طريق الخير ٣٢٥
٩ ـ الصبر نتائجه حسنة ٣٢٥
١٠ ـ اهتمام الشعراء بالصبر ٣٢٧
ـ أنواع الصبر: ٣٢٧
١ ـ الصبر على الطاعات ٣٢٧
٢ ـ الصبر عن المعاصي ٣٣٠
٣ ـ الصبر على ما يصيب المؤمن من البلاء ٣٣٠
ـ تقسيم آخر للصبر: ٣٣٣
١ ـ صبر بالله ٣٣٣
٢ ـ الصبر لله ٣٣٣
٣ ـ الصبر مع الله ٣٣٣
ـ واجبات الآباء والمربين ٣٣٥
ـ العبرة والتطبيق ٣٣٦
١٠ ـ خلق التواضع ٣٣٨
ـ تعريف التواضع ٣٣٨
ـ أهمية التواضع: ٣٣٩
١ ـ التواضع في القرآن الكريم ٣٣٩

الموضوع	الصفحة

٢ ـ التواضع في السيرة النبوية ٣٤٢
أ ـ تخلق النبي بالتواضع ٣٤٢
ب ـ أحاديثه في التواضع ٣٤٤
٣ ـ التواضع في أقوال الأنبياء والرسل ٣٤٥
٤ ـ التواضع في أقوال أهل السلف وأعمالهم ٣٤٦
٥ ـ التواضع في أقوال الشعراء ٣٤٩
ـ أضداد التواضع: الكبر والعجب والغرور ٣٥٠
ـ تعريف النبي ﷺ للكبر ٣٥١
ـ أنواع الكبر: ٣٥١
١ ـ التكبر على الله ٣٥١
٢ ـ التكبر على الرسل ٣٥٢
٣ ـ التكبر على العباد ٣٥٣
ـ دوافع الاستعظام والكبر: ٣٥٣
١ ـ العلم ٣٥٣
٢ ـ العمل الصالح والتعبد ٣٥٤
٣ ـ الحسب والنسب ٣٥٤
٤ ـ الجمال ٣٥٤
٥ ـ المال ٣٥٥
٦ ـ القوة وشدة البطش ٣٥٥
٧ ـ كثرة الأتباع والأنصار ٣٥٥
ـ موقف الإسلام من الكبر ٣٥٥
ـ واجبات الآباء والمربين ٣٦٠
ـ العبرة والتطبيق ٣٦١
الفهرس ٣٦٣

هذا الكتاب

وهذه السلسلة :

مِن تأليفٍ وإعداد :

للأستاذ المربي محمد خير فاطمة . (أبو الخير)

حفظهُ الله

الذي وفق للعناية بتربية الناشئة من هذا الجيل تربية عالية وعمليّة ، مُستقاة من هدي القرآن الكريم وهدي رسول الله (ص) فهو كتاب عظيم يقوم على تربية القلوب على التقى والهدى والإيمان. ويعمل على تغذية العقول بالعلوم والعرفان. ويشرف على سقاية النفوس الظمآى للآداب ومكارم الأخلاق قدوتنا في ذلك (إنما بُعثتُ معلّمًا . إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق) فهو كتاب فريد في بابه بحاجة له كلُّ بيت وكل مربٍ وكلُّ تربية .

الناشر